

محسن الوكيلي

أسيير اليرتغالين حكاية الناچي

رواية



مكتبة الجبر الإلكتروني

@bookkn

@d110d





أسير البرتغاليين : حكاية الناجي محسن الوكيلى

رواية

ميم للنشر

تم تحويل الكتاب الى الصيغة النصية بواسطة:

مكتبة الحبر الإلكتروني

أسعد الكناني

نَحْنُ الْوَادِي الَّذِي يَنْحَتُّهُ السَّيْلُ، يَسْتَبِدُّ بِهِ الْوَهْمُ فَيَحْسِبُ يَوْمًا أَنَّهُ الَّذِي شَكَّلَ مَجْرَى النَّهْرِ

الاهداء:

إلى الأجيال التي تلي؛ لا تُحاكُمونا رجاء عمّا فعلَ السَّيِّئُ بنا.

النَّاجِي

- 1 -

«كَانَتْ النَّاجِيِ الْوَحِيدَ مِنْ بَيْنِ سَبْعَةِ أَطْفَالٍ نَحَرَهُمْ أَبِي فِي قَبْرِ بَيْنَتِنَا. أُمِّي الَّتِي كَانَ بِإِمْكَانِهَا أَنْ تَدْفَعَ عَنَّا الْمَوْتَ هَلَكْتُ جُوعًا وَكَمَدًا قَبْلَ يَوْمِ مِنَ الْفَاجِعَةِ. دَفَنَهَا أَبِي فِي بَهْوِ الْبَيْتِ، بَكَاهَا اللَّيْلَ كُلَّهُ ثُمَّ خَرَجَ فَجْرًا وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ فِي دُرُوبِ فَاسِ الْخَالِيَةِ وَحَارَاتِهَا.

بموت أمي كان العالم قد تبدل إلى الأبد.

جُنَّ أَخِي عَبْدُ الصَّمَدِ، طَارَ عَقْلُهُ. لَمْ يَحْتَمِلْ مَوْتَ أُمِّي وَالْجُوعَ. عَدْنَانُ اسْتَمَرَ طَرِيحَ الْفَرَاشِ. كَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ عَوْدَةِ أَبِي لَكِنَّ الْقَدَرَ اخْتَارَ لَهُ أَنْ يَمُوتَ مَذْبُوحًا وَمُرْتَعِبًا. الْآخَرُونَ اسْتَمَرُّوا مِثْلَ دَجَاجَاتٍ عَرَجَاءَ وَمَرِيضَةٍ؛ يَنْهَضُونَ فِي جَانِبٍ وَيَسْقُطُونَ فِي آخَرَ.

كَانَتْ السَّنَةُ الثَّلَاثَةَ لِلْجُوعِ وَالْقَحْطِ وَالطَّاعُونَ. لَمْ تَكُفَّ عَنَّا الْمِحَنُ، وَكَانَ الْبُرْتِغَالِيُّونَ وَالْإِسْبَانُ يَتَرَبَّصُونَ بِأَرْضِنَا مِنْ نَاحِيَةِ الْبَحْرِ، أَمَا التَّرْكُ فَعَدُّوا الْعُدَّةَ مِنْ جِهَةِ الْجَزَائِرِ كَيْ يَتَّخِذُوا مِنْ بِلَادِنَا مُنْطَلَقًا لِمُقَاتَلَةِ النَّصَارَى وَالْجُوزِ إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ. تَنَاوَبَتْ عَلَيْنَا الْأُوبِيَّةُ وَتَكَالَبَتِ الْأُمَمُ وَتَمَكَّنَ مِنَّا الْجُوعُ وَاسْتَحْكَمَ الطَّاعُونَ حَتَّى خَلْنَا أَنَّ اللَّهَ يَقْطَعُ أَنْسَالَنَا مِنْ عَلَى الْأَرْضِ. مَاتَتْ الْخَلْقُ جَمَلَةً وَعَظَمَتِ الْفِتْنُ وَدَفَنْتِ النَّاسَ جَمَاعَاتٍ، وَأَهْمَلَ صَرَغَى الْوَبَاءُ كَجَيْفِ بِلَا مَرَّاسِيمٍ وَلَا دَفْنٍ. عَمَّ الْخَرَابُ الْمَدَائِنَ وَاسْتَشْرَى فِي الْبُوَادِي الدَّعْرُ وَلِحَقَّ سَاكِنَةُ الْجَبَلِ فَخَلَّتِ الْأُوطَانَ مِنْ بَشَرٍ يَمْشِي أَوْ حَيَّوَانٍ يَدْبُ. انْشَغَلَتِ الْخَاصَّةُ عَنِ الْعَامَّةِ بِالْأَحْقَادِ وَالضَّغَائِنِ وَتَدْبِيرِ الْمَكَائِدِ، مَا يَنْتَهِي الْحُكَّامُ مِنْ حَرْبٍ حَتَّى يَشْعُلُوا فَنَيْلَ حَرْبٍ أُخْرَى فِي نِزَاعِهِمْ الْمَحْمُومِ حَوْلَ السُّلْطَانِ وَالْمَلِكِ، بَيْنَمَا انْشَغَلَتِ الْعَامَّةُ عَنِ الْخَاصَّةِ بِقَتْلِ بَعْضِهَا الْبَعْضَ وَهَتْكَ الْأَعْرَاضِ وَالسَّرَقَاتِ الصَّغِيرَةَ.

خَرَجَ أَبِي وَهَامَ. كُنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ. مَوْتُ أُمِّي خَلَّفَ فَرَاغًا عَظِيمًا. وَفِي حَاجَةٍ لِلْإِحْتِمَاءِ مِنَ الْجُوعِ، وَالْعَدْوَى وَالْحَوْفِ مِنَ الْمَجْهُولِ.

لا أحلام سيدي في ليالي القحط والمحل.

فِي زَمَنِ الطَّاعُونَ يَسْقِي الْقَمَرَ أَسْطَحَ الْبُيُوتِ بِالْمَزِيدِ مِنَ الْأَسَى. بَيْنَ الْبَيْتِ وَالْبَيْتِ تَكْبُرُ الْفَرَاعَاتُ، وَيَعْظُمُ الظَّلَامُ. يَرْتَعُ الْقَمَرُ بَعِيدًا عَنِ أَوْجَاعِنَا. يَظْهَرُ مُكْتَمِلًا وَمُسْتَدِيرًا، مِثْلَ عَيْنٍ فِي السَّمَاءِ. عَيْنٌ

كَبِيرَةٌ، لَكِنَّهَا تَرَى وَلَا تَتَدَخَّلُ، تَنْظُرُ وَلَا تُبَالِي. الْبُؤْسَاءُ يُوَاصِلُونَ الْعَرَقَ فِي الظَّلَامِ، فِي الخَوْفِ،
وَفِي أَنفُسِهِمْ، تَحْفَهُمُ الشَّيَاطِينُ، فِي سَبِيلِهِمُ الْمَحْتَمُومَ، إِلَى الْمَوْتِ.

قَمْرُ الْأَوْبَيْتَةِ، لَا يُوَاسِي، يُشْعَلُ الْأَحْزَانَ.

رَبَضْتُ فِي الْبُهْوِ سَاعَاتِ الْيَوْمِ أَتْرَقِبُ رُجُوعَ وَالِدِي. كَانَتْ أُمِّي تَخْشَى عَلَيَّ مِنْ الْمَوْتِ خَارِجَ
الْبَيْتِ. «الْمَوْتُ عَلَى الطَّرِيقِ مَذَلَّةٌ»، رَدَدْتُ طَوِيلًا. خَفْتُ عَلَيْهِ، عَلَيَّ إِخْوَتِي، وَعَلَى نَفْسِي. كَانَ
أَمَلْنَا الْمُتَبَقِّي.

انْتَظَرْتُ طَوِيلًا. نَفَخَتْ الْجِبَالُ الرِّيحَ فِي دُرُوبِ فَاسٍ. مَا كَانَ فِي الشَّجَرِ وَرَقٌ لِيَطِيرَ. سَقَطَتْ آخِرُ
الْأوراقِ قَبْلَ أَرْبَعِينَ مِنْ سَنَتَيْنِ. يَنْدَفِعُ الْعُبَارُ وَحَدَّهُ، فِي زَوَابِعِ، أَوْ دُونِهَا، فَيَمَلَأُ السَّمَاءَ بِاللَّوْنِ الدَّاكِنِ،
الْمُرِيحِ.

وَكَانَتْ الرِّيحُ وَالْعُبَارُ حَصَادَنَا مِنْ فِصُولِ الشِّتَاءِ.

ظَهَرَ أَبِي عَلَى الْعَتَبَةِ مَعَ الْغُرُوبِ. سَكَنْتِ الرِّيحُ وَلَادَتْ الشَّمْسُ خَلْفَ الْجِبَالِ. نَطَّ عَبْدُ الصَّمَدِ مِثْلَ
قِرْدٍ، حَافِيًا وَعَارِيًا، طِفْلًا بِلَا ظِلٍّ. أَمْسَكَهُ مِنْ يَدِهِ، جَرَجَرَهُ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ انْحَدَرَ مَعَ أَدْرَاجِ الْقَبْرِ.
دَبَحَهُ هُنَاكَ وَعَادَ.

كَانَ عَبْدُ الصَّمَدِ الْعَرِيسَ الْأَوَّلَ فِي زَفَّةِ الدَّمِ.

بَيْنَ نَزُولِ أَبِي إِلَى الْقَبْرِ وَرُجُوعِهِ إِلَى الْبُهْوِ فَقَدَ الْعَدِيدَ مِنَ السَّنَوَاتِ. غَزَا الْبِياضُ لِحِيَّتَهُ وَتَسَلَّلَ إِلَى
شَعْرِهِ.

اشْتَدَّتْ وَطْأَةُ الْغُرُوبِ، نَزَلَ الْبَرْدُ بِجَفَاءٍ، وَمَضَتْ السُّحُبُ الْقَلِيلَةُ تَلَاحِقُ مَا عَلِقَ مِنْ خُيُوطِ الضَّوءِ،
فِي دُرُوبٍ مَتَعَرِّجَةٍ، هَرَبًا مِنْ لَيْلِ
فَاسِ الْحَائِلِ.

كَلَّ شَيْءٌ يَهْرُبُ عَنْ أَرْضِنَا سَيِّدِي. اخْتَبَسَ الْمَطْرُ وَاخْتَفَتِ الْبَسَاتِينُ وَغَادَرَتِ الطَّيُورُ وَتَعَطَّلَتِ
الْفِصُولُ. آخِرُ الزَّهْوَرِ تَفْتَقَتْ قَبْلَ سَنَيْنِ. أَيُّوبُ، أَخِي الْأَصْغَرَ سِنًّا، وَالْأَقْلَّ حَظًّا كَذَلِكَ، لَمْ يَعْرِفْ
الزَّهْوَرَ أَبَدًا. مَاتَ دُونَ أَنْ يَقْطِفَ وَرْدَةً.

اللَّهُ لَمْ يَعِدْ هُنَا. اللَّهُ فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ عَلَى الْأَرْضِ، لَكِنَّهُ، حَتْمًا، لَيْسَ هُنَا.

بلَغ أُيُوبُ سنته الثالثة، فتح عينيه على القحط فامتلاً رغبة في الحياة. كان صدرُ أُمِّي قد ضاق فلم تعد تفكر في غير تأمين اللقمة. يقترب منها فتَهشُّ عليه حتَّى يُخلي ساحتها. يدور بين غرف البيت، تردّه الحيطان وتصدّه الوجوه فيجلس إلى جانبي في البهو. يبتسم ولا يتحدّث. ابتسم في وجهه، يطمئنّ باله فيسأل:

- كيف هي البساتين؟

سألني، في بضعة أسابيع، للمرة المائة. حلم بالوجه الآخر للأرض، لكنّه لم يبقَ ليعيشه. مات وأخذ معه أحلامه المؤودة.

أكبرُ كي أرضيه ولا أكسر بخاطره. أهزُّ رأسي فيفرح. أعانقه، يضع رأسه على كتفي، أشرع في الكلام فيسرح مع الكلمات:

- البساتينُ أراضٍ مفتوحة، تنبسطُ في السهل، وتتدرّجُ أعلى فأعلى في التلال والجبال، يزرعها الفلاحون في الخريف وتسقيها السماء في الشتاء فتفيضُ بالخيرات والتعم، تكثر فيها السنابلُ والذرة وأشجار التين والكرام والزيتون. في فصل الربيع، يكون الجو رائقاً، فتملأها الورود بالألوان وتكثر فوقها الفراشات، ترويها مياه العيون في سواقي وقد انجلت الغيوم وتوقف المطرُ فيأخذ كلُّ بستان نصيبه الوافي من الماء. في الصيف يصفرُّ لون الأرض فيجني البدويون ويحصدون؛ يدخرون ثلث المحاصيل، يبيعون الثلث، ويتصدّقون بالثلث الباقي للفقراء والمساكين وعابري السبيل.

أسرج أبي الفانوس. جمعنا في البهو كما كان يفعل مع الخراف التي يجلب من الضيعة قبيل العيد. بكى أيوب فضربه بمقبض السكين. كسر فكّه فصمت. كنّا ثابتين كأصنام وكانت ظلالنا ترتجف مهابة الموت. مال عدنان إلى الخلف وسقط على ظهره. نهشه المرض على مدى شهر ولم يحتمل الوقوف. حمله أبي على كتفه كجراب وساقنا إلى القبو، رأينا، تحت نور الفانوس الخابي، عنق عبد الصمد وقد حُرّ من الوريد إلى الوريد.

«أسن»، قال أبي يستيق صراخنا. تحدّث بصوت هادئ، وواثق، مثلما يمكن لرجل في مهمّة جليّة أن يفعل:

- النساء وحدهن من ينتحبن خوفاً من الموت.

لا تزال ظلمة القبو تسكن قلبي حتّى اليوم سيدي وتحوم حولي وجوه إختي كلّما وضعت رأسي على المخدة. الرائحة نفسها؛ رائحة الرطوبة والبراز والدم.

لكنَّ أيُّوبَ أجهش. أعطيته يدي فتمسكَّ بها. جرَّ أبي عيسى من شعره فهمست في أذنه:

- أغمض عينيك، سأحكي لك عن البساتين.

حرَّك رأسه، مسح دموعه وأغلق عينيه.

- البساتينُ أراضٍ مفتوحة، تنبسطُ في السَّهْلِ، وتندرجُ أعلى فأعلى في التلالِ والجبالِ، يزرعُها الفلاحون في الخريف وتسقيها السَّماءُ في الشَّتاء فتفيضُ بالخيراتِ والنَّعم، تكثر فيها السَّنابلُ والدَّرةُ وأشجار التَّينِ والكرومِ والرَّيتون. في فصل الرَّبيع..

انتزعه أبي من يدي. استمرَّ يُغمض عينيه فرفعتُ صوتي:

- يكون الجوّ رائقاً، فتملأها الورود بالألوان وتكثر فوقها الفراشات، ترويهامياه العيون في سواقي وقد انجلبت الغيومُ وتوقَّف المطرُ فيأخذ كلُّ بستان نصيبه الوافي من الماء.

ثمَّ ذبحه. لم يتركَّل. مات بعينين مغمضتين يحلم بالبساتين وفصل الرَّبيع والفراشات.

ذبح أبي إخوتي كلَّهم؛ واحداً بعد آخر. كانوا مستسلمين، ورَّبما راغبين في الموت. عندما نظر صوبي انطفاً الفانوس. تناهى حُوارُ حفيظ، خافتاً، كظلاً في نهاية مساء. تحت نور السَّماء الوهن لمحتُ أبي يرتقي درجات سلَّم القبو إلى البهو. لا أعرف إلى حدِّ اليوم لمَ عفا عني، لعلَّه نورُ الفانوس، انطفاً فدفع عني الموت.

خرج إبراهيم فتسلَّقتُ الدَّرجات. عبَّرَ باب البيت الموارب هربث. لا أحد في دروب فاس. لا ملائكة ولا شياطين. اجتزتُ باب بوجلود فتنفَّستِ الرِّيحُ قحطَ الشَّعاب. كان اللَّيْلُ قد سكن والبدر قد طلع، رمى نوره الكسيح فلاحت الكثير من الجثث على جانبي الطريق. واصلتُ الرُّكض، خشيتُ من يد أبي تعيدني إلى القبو.

ركضتُ كثيراً.

«اهرب يا ولد، ماتت أمك، ومسَّ أباك الجنون، ولم يبقَ لك من أحد. ارحل أبعد، ولا تلتفت إلى الوراء. خلفك يوجد الجحيم».

تصلَّبتُ أطرافِي فتناقلتُ. تمايلتِ الأرضُ تحتي وتداعت الأشجار اليابسة من حولي وأوشك قلبي على الانفطار.

- لن تموت يا بنيّ، اهدأ، ستبقى وتلدُ صبياناً يملئون أحياء
فاس هرجا.

سمعتُ أمي تقول. توقفتُ. استدرتُ فلم أجد أحدا. خارت قواي فسقطت. في السماء كان القمرُ
ناصعاً يبحر والسحبُ هشة تمرق والنجومُ تتلألأ وسط الظلماتِ.

كانت سماء ساحرة وبغيضة.

صوفي

- 2 -

أعاد ترتيب أضص الحديقة بنفس الشّعف المعهود فيه. «الألوان حُرُوفٌ، كُلَّمَا تَغَيَّرَتِ المواقِعُ تَبَدَّلَتِ المعاني»، قال الرَّجُلُ المُعْتَدُّ بنفسِه. نفضَ يَدَيْهِ مِنَ التُّرابِ، انتصَبَ. رياح المُحيطِ تُنْعِشُهُ. أخذَ الهِواءَ مَلاً رَتْنِيهِ ثُمَّ عادَ لِيَتَأَمَّلَ التَّوَلِيْفَاتِ فِي تَناعِمِها وَتَنافُرِها. نَظَرَ إِلَيْها مِنْ زوايا مُخْتَلِفَةٍ، ثُمَّ أصاحَ السَّمْعَ. «لِلألوانِ نَغمٌ»، آمَنَ مَذاً كانَ طِفْلاً. جَرَسَ خَفِيٌّ، وَخافِتٌ، كالضَّوِّءِ الباردِ، لَكِنَّهُ مَسْمُوعٌ كفايَةٍ. حَرَكَ رَأْسَهُ قَبُولاً. كانَ راضِياً على تَناعِمِ الأَصْصِ الجَدِيدِ وَوَفَعِها على النَفْسِ. استدارَ نحوَ أشجارِ التَّخِيلِ الباسِقَةِ فَصرختُ صَوفِي التي تطلُّ عِبرَ النَّافِذَةِ بِصَدْرٍ شَبِهُ عارٍ:

- رائع، أجدت يا بيدرو، ممتاز.

«زهرة في أصيص»، فَكَّرَ. كانَ صَباحاً رِيبِعِيًّا، مُشمِساً، ووديعاً. أزالَ قَبَعَةَ البِستنةِ التَّبَنِيَّةَ اللَّونِ ثُمَّ خَطاَ نحوَ البابِ.

- لحظة يا صوفي، أنا آتٍ.

لم يطعم القِطَطَ بعدَ شرائحِ السَّلْمونِ ولا مَلاً الطَّسْتِ بالحليبِ. شعرَ بالرَّغبةِ تَجتاحِها. انتفضَ عَضوهُ وَتَشَنَّجَ. عَندما قابَلها في العَرفةِ كانت عاريةً تَنتَظِرُ.

«هذه الصَّبِيَّةُ تَلعبُ مَعِي لَعِبَةَ الإِغواءِ»

اقترَبَ مِنْها فَاستدارت. عَبرَ النَّافِذَةَ لاحتَ سَفينُ «الكارافيل» بأَشرِعتها المِثْلَثةِ تَمخُرُ مِياها المُحيطِ حاملةً على مَنتَها السَّلَعِ والعَبِيدِ إلى البَرِّ الأخرِ. ما حَلَمَ بِعالمِ أروَعِ مِنْ هَذا. تَخَلَّصَ مِنْ مَلابِسِه؛ رَمَها اتِّفاقاً، ثُمَّ أَمسَكَ الصَّبِيَّةَ مِنْ خِصْرِها الذي شَعَّ تَحْتَ نورِ شَمْسِ إِفريقيَّةِ ساطِعةٍ فَمالتَ بِطرفِها العُلويِّ على السَّريرِ.

اخترَقها عَميقاً. بلا مَقَدِّماتٍ. مَكْمُنُها دافِيٌّ، زَلِقٌ ومَشْدودٌ، وَخَصَرُها ناعِمُ المِلمَسِ وَسَخِيٌّ. تَذَكَّرَتِ أَحلامَ أُمِّها بِزَواجِ كاثولِكيِّ تَحْتَفِي بِه «لاسانكارا» كَاملةً وَحَفْدَةً تُعَمِّدُهُم بِنَفسِها في كَنِيسةِ القَريَّةِ الوَحيدةِ. نَظَرَتِ إلى المُحيطِ حيثَ اختَلَطَتِ زَرَقَةُ المِياهِ العامِقةِ بِزَرَقَةِ سَماءِ طَلقةٍ. تابَعَتُ أَشْرَعَةَ

سفينة تغيب وأخرى تلوح، تناوب عليها الإحساسُ باللذّة والشّعورُ بالألم. ارتخت، تركت وجهها
البيضاويّ الجميل يستريح على الملاءة البيضاء بينما واصل ضابط كتيبة الإعدام الإبحار في
عباب النّعيم كما يشاء.

انقلبت على ظهرها، طفحت أنوثتها ففاض، غامت عيناه من فرط اللذّة وارتفع ستارٌ أبيض، كثيف،
فَحَارَ إلى جانبيها.

واصلت السّفنُ نفيها الطّويل، المبحوح. أصوات أبواقها التي ترتفع وتخبو تُشعِرُهُ بعظمة
إمبراطورية البرتغال التي بلغت أطراف العالم. استرخى مع وهج اللذّة الذي خبا. وضع يده على
بطنها. نفس الملمس الحلو والناعم والباعث على الأحلام.

- شكرا عزيزتي صوفي.

ابتسمت. «أنا لا أحبك يا بيدرو، أنا ألعب اللّعبة التي تستهويني وحسب»، قالت في نفسها. خفقت
الستائر مع دفقات الرّيح. في صدرها تفتّق إحساسٌ حلو. ما يكاد الهواء يلامسها حتى يتلاشى.
تستطيب لحظتها.

- اشكر عربة البريد يا بيدرو.

أجابت. ضحك بلا صوت، يعرف الحكاية من بدايتها. يقدر الرّغبة التي اضطرت في صدرها
أوان الرّحيل، إحساسها بالخوف وهي تمضي في عربة البريد نحو عالم لا تعرف عنه أيّ شيء،
والرّهبة التي تملكتها عند وصولها إلى لشبونة تحت سماء غائمة في نهاية مساء.

- شكرا عربة البريد.

فَهْفَهة. جسّ الدّعابة يجعلها أحلى. كان ممتنّاً بالفعل لعربة البريد والحوذي العجوز. استند على
منكبيه ثم استوى جالسا. على يمينه كان الرّأسُ المحنّطُ للمرأة الخمسينية في مكانه المعتاد يحمل
علامات الدّهشةِ نَفْسِهَا من موت عاصف.

نهضت عن السرير. تأمّلها في صمت. عقصت شعرها واستدارت. ما عادت منذ سنوات تخجل من
عُرْيِهَا، تركت وراءها حياة البساطة في قرية «لاسانكارا» التي لا يكاد يسمع عنها أحد. كرهت
حشمة الصّبايا وعذريّتهنّ وقناعة أبيها الذي عاش كمعلم؛ يأخذ القليل، ويسعى إلى الخبز والماء،
ولا يمانع في الانحناء أمام متعلميه ليَرْضَى عنه آباءهم ويكرموه ببيض الإوز والذرة. قرية

مهمّشة، تمرُّ عبرها طريق واحدة، مستقيمة، كحياة راهب مخلص، حولها دور ومتاجر وورش قليلة، وفي نهايتها كنيسة صغيرة وفقيرة.

لم يسبق لصوفي أن مضت أبعد من الكنيسة شمالا ولا تجاوزت شجرة التوت التي إلى جانب البيت الأخير في القرية جنوبا. عاشت تحمل خوف أمّها من الفلاحين وصبيّة الورش والغرباء العابرين، تعدّها بزواج سعيد وزوج يمتلك عربية وبيتا كبيرا وقطعة سلاح.

خرجت صوفي الصّغيرة بلا نية مسبقة في الرّحيل. تركت أمّها تنتظر على طاولة الإفطار. كانت الأمّ «ماريا» قد أرسلتها، في مهمّة قصيرة، إلى ساحة القرية، كي تستقصي على بريد قادم من لثبونة، بدل أن تعود إليها، وتكمل الإفطار معها، ركبت عربية بريد العاصمة لقاء قبلة دافنة على خدّ الحوذيّ الأرملة، العجوز.

فكّر الحوذي أن يأخذها إلى بيته في ضواحي العاصمة لبضع ليال فقط لكن أرضه كانت قاحلة. لحق فحولته بوار خريف العمر وما عاد يصلح للسّرير.

ستحكي لحفدتها بعد عمر طويل عن الطائر الذي انطلق من غصن شجرة الكروم وهي تدفع دقّة الباب فأوحى لها بالهروب. تابعت السنونو يُحلّق مبتعدا. عندما اختفى بين السحب انفجرت في صدرها الرّغبة في الرّحيل. في منتصف الطّريق، التفتت إلى البيت، فأدركت، بيقين جازم، أنّه اليوم الأخير في قرية «لاسانكارا»؛ أنّها لن ترى أمّها مرّة أخرى.

غابت القرية سريعا. كانت العربية بطيئة ومتهاككة، لكنّ القرية كانت صغيرة بما يكفي لتختفي في بضعة دقائق. مرّت في طريقها إلى العاصمة على قرى كثيرة، رأت كنائس كبيرة وشبانا أكثر طولا ووسامة من شبان قريتها. أدركت أنّ العالم أكبر بكثير من عالمها الصّغير وأثرى من فلاحي ضواحي «لاسانكارا». ستفتح ذراعيها للدنيا، وساقبها للريح، وتمنح جسدها للرجال بلا تحفّظ.

صوفي الصّغيرة، والخجولة، استمرّت هناك، في ساحة القرية، تجترّ أحلام والدتها ببيت كبير وزوج يمتلك عربية فاخرة وتجارة محترمة وقطعة سلاح. الصّبيّة الأخرى التي ركبت العربية تزدرى الأولى، ترفضها، لأنّها نسخة مقرّفة من ماريا التي تقبل الفتات وتشكر الرّب.

أنزلها الحوذيّ بحسرة في باب الميناء في نهاية مساء. كان المطر قد توقّف والشمس قد خمدت، أمّا الغروب فكسا أسوار الميناء وأبنيته بلون داكن وحزين. نصحتها:

- اذهبي إلى البرّ الإفريقيّ، فهناك مستقبل لمن لا حظ له هنا.

فتحت عينيها:

- أنا أملك ثمن الإبحار.

انحنى، وضع يده على صدرها، أغمض عينيهِ وتنهَّد.

- بلا، تملكين الكثير.

صعدت إلى سفينة تجارية. بعد ليالٍ من الإبحار اقترح عليها القبطان أن تواصل برفقته إلى شواطئ العالم الجديد. وصف لها أرضاً عامرة بالذهب والعييد والخيرات. كان فرجها قد التهب فقررت النزول في حصن برتغالي على الساحل الإفريقي. قدّم لها غابرييل عروضاً سخيةً:

- سأمنحك المال الذي تريدين.

- شكراً لك.

- وأبني لك بيتاً في لشبونة.

لكنها رفضت. أبحرت السفينة فاستبدّ بالقبطان الندم. تأسّف. كان ليكرهها على البقاء ويأخذها معه إلى أمريكا.

مدّت يدها إلى الشماعة. أثواب كثيرة، بمختلف الألوان، جلبت بعضها من فاس ومرّاكش، واقتنت أخرى من من تجار فرسٍ وتركٍ قدموا عبر بلاد المغرب الأوسط إلى بلاد المغرب الأقصى. وضعت قطعة كاكية اللون، مطرزة الأطراف، على كتفها. نهدها العامران ظلاً حرّين طليقين.

تأمل ببدر الجسد اليافع الذي يفيض أنوثة وحياة. صوفي أيقونة باهرة تؤثث بيته الجميل وتجعل حياته أبهى.

انتزعه قرع ناقوس الكنيسة من شروده. لم يكن يوماً متديناً ولا اجتاحتته رغبة في التّعبد. شكّ في وجود خالق واحتقر سذاجة المتدينين وكره رجال الدين، لكنّه أحبّ وقّع الأجراس، أشعره على الدوام بالأمان والرّسوخ على الأرض الإفريقية التي أعلنت الولاء لسادة العالم الجدد.

- عودي مساءً.

- لعلي أتأخر.

- البيت بلا امرأة موحش يا صوفي، لا تتأخري.

- أحضر حفلات العجر وأرجع عند الغروب.

ارتدى البذلة الرسمية التي تمنحُ المزيد من الثقة. اعتمر قبعة الضابط، واستدار نحوها. انحنى لترتدي سروالا قصيرا فتدلى شعرها الطويل إلى الأرض. فكّر أن الحياة تمنحه بسخاء كما لم يحلم يوما.

- رقصُ العجريات لا يستحق اهتمامك.

ارتدت السرّوال، جلست على طرف السرير، سحبت جوربا ودست قدمها اليمنى برشاقة. دون أن تنتظر إليه:

- اعتن بنفسك.

- شكرا صوفي.

ارتدت الجورب الثاني. قالت بابتسامة خافتة وفي عينيها بريق الذكاء:

- اشكر عربة البريد.

ضحك بيدرو هذه المرّة من أعماقه. دمعت عيناه. في صدره اختلج إحساسٌ عميقٌ، انحنى، قبل رأسها.

- شكرا لعربة البريد التي أقلتكَ من «لاسانكارا»، والساعي الأبله الذي تركك في ميناء لشبونة، والقبطان الأحمق الذي سمح لك بالنزول في الحصن.

نزل الأدراج، اجتاز الممرّ المُبلّط بالحجارة الصّقيلة، وعبر باب الحديقة انزلق إلى الشارع. رمى بضعة خطوات، ثم التفت إلى الخلف. بين أشجار النّخيل، من شرفة البيت، ظهرت صوفي نصف عارية. لوح لها، لكنّها لم تردّ. رفع صوته:

- أنتظرك.

ارتعش سعف النَّخل السَّامق تحت السَّماء الصَّحوَّة وتدفَّقت الرِّيحُ برائحة المُحيط. انشرح صدره
أكثر، تذكَّر القطط. كان الوقتُ قد تأخَّر. قال يشير إلى الحديقة:

- أطعمي القطط شرائح السَّلْمون عزيزتي.

- افعل عندما تعود.

ردَّت بصوت خافت. لم يسمعها، لكنَّه فهم المعنى من حركة شفثيها. ابتسم ثم مضى عبر الشَّارع
الطَّويل يختال في زيِّ الضَّابط. لا بدَّ أن يحافظ على
رنين حذائه، على الأرض المرصوفة، بإيقاع واحد، وصولاً إلى البرج، حيث ينتظر الكثير من
الأسرى المغاربة حكماً قاسياً بالمثل أمام جنود كتيبة الإعدام.

أسرى كتيبة الإعدام

- 3 -

قال بيدرو ينفخ صدره، كديك يقابل سرباً من الدجاج:

- نحتفظ بأسير واحد. البقية تصرفها العربات رأساً إلى كتيبة الإعدام.

خيم الصمت بين الأسرى. تحاشوا النظر إلى عيون بعضهم بعضاً. كانوا متوترين ومرتبكين، لكنهم لم يكونوا خائفين. علمتهم الحروب المتواترة أن الخوف بين يدي العدو خيانة.

- مقعد فارغ منذ أكثر من شهر.

دفع الكرسي إلى الوراء وأمال رأسه إلى الخلف، نظر إلى السقف الهرمي للبرج حيث يتدلى الفانوس المصّلع الكبير وترتفع الدعامات الخشبية الضخمة بلونها البني الداكن. من النوافذ المزروعة أعلى الجدران الحجرية تسلك حزم الضوء سبلها إلى القاعة وتتشابك. ينكسر بعضها على أجساد الأسرى وتسقط البقية على الأرض. بينها تظهر أجساد الرجال كأشجار من فحم وقد نال منها الحريق.

كرّر يوغل في جراحهم:

- أسير واحد فقط، بقية الرجال تقصد السور لتحطّ الرّجال مرّة واحدة وإلى الأبد.

تابع ببرود:

- لست متأسفاً، ولا يمكنني أن أكون كذلك، فموت المخربين جزاء عادل. سيكون العالم أفضل وأنتم تحت التراب.

رفع صوته قليلاً:

- هذه إمبراطورية البرتغال يا حمقى، أما نحن فحَمَاتُهَا وبناء نُصْبِ النَّبَالَةَ من لشبونة إلى ما وراء الهند. من يتحدّث عنها بسوءٍ، وإن سهوا، نقطع لسانه.

غمّرت أصوات الطيور القاعة العريضة. حول البرج تُعمّر آلاف الطيور في أشجار الحدائق القريبة والساحات المتاخمة. لا أحد من الأسرى ينتبه إلى سحر الفضاء. يصمّ وفُغ الموتِ آذانهم ويعشى قلوبهم فلا يبصرون غير الهلاك.

سحب بيدرو نفسا عميقا من غليونه فأزهرت عيناه. نفث الدخان نحو الأسرى. تابع بهدوء:

- سيضعونكم على الأسوار في صفّ واحد وطويل، لن يعصبوا أعينكم، وباسم الملك جواو الثالث يقرأ القائد نصّ الحكم. تطلق رصاصة في الهواء، و..

صمت لحظات يستلذ إحساسهم بالعجز. وبوجه خال من التعابير استرسل:

- تخترق صليات الرصاص أجسادكم. تسقطون من أعلى السور العالي إلى الصّخور فيطليها الدّم باللون الأحمر.

مدّ بيدرو رجلا على المكتب، سحب نفسا آخر من الغليون. أخذ وقته الكافي. تأمل الوجوه واحدا بعد آخر؛ رجالاً أشداء، أدلهم الأسر، وهدّتهم قسوة الهزيمة.

تابع:

- تتداعى الأجساد من على السور؛ تميل إلى الهاوية ثم تسقط بمهابة أمام أعين آلاف الناس.

فتح ذراعيه:

- بربّكم، أليس الأمر عظيما؟

ابتسم في وجوههم ثم أخفض ذراعيه. استرسل:

- لا تحزنوا، ليس موتكم مجانيا، دماؤكم السّخية تمنح الأسوار العظيمة التي يحتاجها الحصن ليبقى شامخا ومهابا وصامدا أمام أعداء يتربّصون من كلّ الجهات. دَمُكُمْ، يا سادة؛ عزّتنا وبقاؤنا على طريق التّوابل والعبيد.

انحنى بمقدار ثم رفع رأسه. تابع:

- إلا أسير واحد. لنقل إنني أستبقيه لداع التسلية ما أبقاه لسانه حيًا.

سحب رجله من على المكتب وقد استعاد وجهه سابق جديته. ظهر أنفه أكثر طولاً وعيناه أكثر بروزاً وأشدّ بريقاً. وضع الغليون مقلوباً في طست من النحاس الكابي ثم أشار إلى الحرس أمراً:

- خذوهم إلى الساحة وجهّزوا العربات. قبل الظهيرة يمثلون أمام كتبية الإعدام.

ضحّ الأسرى وتحركت مع اللغط بنادق الحرس بأخفّ من البرق كي تُخمد أيّ تمرّدٍ محتمل. لم يحدث شيء، استدار السجّاء وساروا إلى الباب. «مستحيل»، قال سجين فاس في نفسه. لم يصدّق أنّ نهايته قد أزفت بالفعل.

- أما أنت فتبقى إلى حين.

قال الضابط. توقّف النّاجي . يعرف أنّه المعنيّ بالبقاء. أصاب حدسه من جديد. استدار فألفى الأصبغ مصوّباً. تنفّس بارتياح. يريد أن يعود إلى بيته وأولاده. حرام أن يموت الآن. لديه حياة كاملة تنتظر في فاس.

- كلا، لست أنت.

النفث. كان سجيناً آخر قد توقّف إلى جانبه. خفق قلبه بشدّة. أدرك أنّ الضابط يتعمّد اللبس كي يثير أعصابه أكثر. «هذا الحقيير يتلهّى بنا»، فكّر. لا يملك خياراً آخر. سيبقى واقفاً، متماسكاً، إلى نهاية اللعبة.

سار الأسرى الآخرون كخراف تساق إلى باب زريبة، مرّوا تحت حُرَم النور التي لوّنت وجوههم التّعيسة والكالحة ثم انحدروا عبر الأدراج الصّخرية الملتقّة إلى مصيرهم البائس.

بيدرو

- 4 -

نظّف بيدرو الغليونَ بعناية ثمّ وضعه، في أنيةٍ من نحاس، بلمسة رسّامٍ مُرهِفِ الحسِّ. كان إنساناً
بادي الاختلاف، مميّزا في كلّ شيء. «أوه عزيزي»، قال يمدّ يده ليداعبَ القطّ الذي غادر مهجّعه
الأمين. ماء القطّ وتمدّد بكسل ثمّ ربض بين قوائم الكرسيّ يأكل شريحة السلمون. سحب بيدرو
السجّل الكبير وجعل المحبرة في متناول يده، رفع رأسه جهة الباب، وسأل الحارس الذي أعاد
البندقية إلى كتفه بعد انصراف آخر الأسرى:

- هل سقيتم زهور الأصص جميعها قبل شروق الشمس؟

- نعم سيدي، سقيت في الوقت المحدّد.

ردّ على الفور. كان معتادا على السؤال.

- وأطعتم القطط؟

- أطعناها سيدي سمك السلمون وأعطينا الحليب للقطط كما أمرت.

رمى شريحة سلمون ثانية للقطّ. نظر إلى الحارس الذي أدرك على الفور الهفوة التي وقع فيها.
علّق الضابط:

- لم أسأل عن القطط يا خوليو؟

- معذرة سيدي.

- وهل اعتنيتم بالقطط كما أمرت؟

شعر الحارس بالحرج. بدا منزعا أكثر لوجود الأسير. انحنى مُكرهاً:

- نعم سيدي، كما أمرت.

- جيّد، هذا أمرٌ جيّد يا خوليو.

مسح يده بمنديل صغير، مطرّز الأطراف، ثمّ مرّر رؤوس أصابعه على سطح المكتب. عاد لينظر إلى الحارس.

- وهذا الغبارُ الذي على مكتبي؟

- نُظِّفَ المكتبُ سيّدي على أكمل وجه، لكنّ النّوافذ التي تأمر بإبقائها مفتوحة..

قاطعته:

- تُدخِلُ الغبارَ.

مالَ بجسده قليلاً إلى الخلف، نظر إلى الحارس تعبيراً عن عدم رضا.

- نوافذ ينقصُها التّهذيب إذن.

ابتلع الحارسُ ريقه. سُخريّة الضّابط لاذعة وغضبهُ خطر.

- معذرة سيّدي.

أضاف الضّابط بذات اللّهجة التي يخبرها عنه الجميع:

- لا يمكنني أن أعاقب النّوافذ يا خوليو لأنّها تسمح للغبار أن يمرّ إلى مكتبي. هل تُدينُ البندقية إذا أخطأ القنّاصُ الطّريدة؟

«هذا الغبيّ يستبدلني»، فكّر الحارس، لكنّه لا يملك الحقّ في الاعتراض. تمالك أعصابه وحافظ على ملامح الوجه الصّاغر أمام رئيسه.

- بل تُدينُ الصياد سيّدي.

خفّف خوليو من لهجته:

- التّوافذ توَمَّنُ هواء صافيا وتُبلغ صوتَ الأرضِ إلى الأماكنِ التي جعلها الإنسانُ بليدَةً وكنييةً. لا يمكنني أن أعمل في مكان توصدُ فيه التّوافذ أمام نُور الشّمس أو تحبَسُ عنه الرّيح، ولا في مكتب مهملٍ مفهوم؟

- مفهوم سيّدي، يُنظَّفُ على الدّوام وتبقى التّوافذ مفتوحة كما أمرت.

- أحسنت يا خوليو أحسنت.

صرف النّظر عن الحارس، غمر رأس الرّيشة في المحبرة وشرع في توثيق هويّات المحكومين. يُمتِعُه عمله في سلك الجيش. إنّها الوظيفة التي تلائمه. «أنت محظوظ يا بيدرو بوقوفك على عتبة العبور إلى الموت»، فكّر. راجع الأسماء والأعمار، تثبت من الأعداد، وأضاف بضع ملاحظات، ثم أغلق السجّل. خرخر القطّ بين قوائم الكرسيّ.

- أوه، معذرة عزيزي، تأخّرتُ عنك.

قال. مدّ للقط شريحة سلمون أخرى ثمّ نظر أخيراً صوب النّاجي .

- أنت النّاجي إذن؟

أشار له أن يقترب ففعل. أذن له بالجلوس.

- هذا الكرسيّ لا يستقبل غير رجل واحد. ما دمتَ جالسا عليه يكون على كلّ الأسرى الذين يأتون بعدك أن يمرّوا إلى كنيية الإعدام بلا أمل في النجاة. كرسيّ ثمين، أعلى من كراسي الحكم، تتفق معي؟

حرّك رأسه:

- أجل.

ابتسم بيدرو بخبث.

- حياتك تعني موت آخرين؛ رجال من بني جنسك. تقبل هذا؟

- ليس أمامي من خيارٍ سيّدي.

- تشبثك بالحياة يعني كذلك أنك شريك في دم إخوانك؛ ببقائك حيًا تقتل رجلاً كل يوم.

- إنّما الأعمار بيد الله.

- بل بيدي، أعمار الأسرى بيدي أنا، ومن هذا الباب يعبرون إلى حتفهم بأمر منّي.

حمل القَطّ برفق، وضعه على الجانب الفارغ من المكتب العريض. ماء القَطّ بدلال، حرّك ذيلهُ الطَّويل يمينا ويسارا ثمّ ترك وجهه المائل يرتخي على قائمته الأماميتين. مسدّ بيدرو فراه الكث. بدت عيناه ناعستين. مواؤه الأخير جاء خافتا، وديعا، مثل صوت رضيع سكن في حضن أمّ.

- أنظر إليه، أليس جميلا بحقّ؟

- بلى.

- أوه، تحبُّ القَطط إذن؟

- نعم، سيدي.

ابتسم بيدرو بخبث، داعب القَطّ بحنوّ. أضاف:

- هذا القَطّ الملكيّ يفطر كلّ صباح بشرائح السّلمون والحليب. في المساء أطعمه قلوب قنلى فصيل الإعدام.

تقيّاً النّاجي، تقيّاً كثيرا، عندما رفع رأسه دُهلَ بنظرة القَطّ. كان ينظر إلى صدره بعينين متحفزتين. قهقه بيدرو ثمّ رفعه من المكتب بكياسة وأرجعه حيث كان.

- لا تستعجل عزيزي، لعلّ قلبه يكون عشاءك غداً أو بعد غدّ.

البشير

- 5 -

لاحت أسوار آسفي من بعيد يظللها الغروب وتطبعها كآبة الصّمت. من جهة الغرب استرسل المحيط في لعق جراحها الطّريّة. شرقا تتكاتف الغابات مع الظّلمات لتزيد من عزلتها وانقطاعها عن العالم. في الأطراف زحف الظّلام يسبقُ اللّيل.

«أنتشرقُ الشّمسُ فوق أسطح بيوتك مرّة أخرى يا آسفي وتعود الصّبايا إلى سلال التّين والبساتين وقوارب الصّيد أم تراه قدرك الأخير؟ آسفي، وحيدة تتطلّعين إلى المحيط، بلا أمل في فرج قريب، وقد اشتقتِ إلى خُصومات باعّة البيض المسلوق على بواباتك ونكات أهل الحَضْر عن سداجّة أهالي البوادي وللمسات صنّاع الخزف المتباهين بعظمتك»

مسح البشيرُ العرق عن جبينه. كانَ مُنهكا ومُحبطا. شدّ لجام الحصان فأبطأ. ما عادَ أحدٌ، غير الصّعاليك وقُطّاع الطّرق، يجرؤ على الولوج عبر الأبواب. آسفي ليست حاضرة «عبدة» التي كانت وقد هجرها أهلها إلى الفيافي والجبال. نكّل بها الأعراب المتواطئين مع الغزاة وتهاون بئو مَرينٍ عن نصرتها فصارت نهبًا للخراب.

يحفظُ البشيرُ كلَّ شبر من هذه الأرض وإن غاب عنها سنواتٍ؛ المرتفعات التي تطلُّ على البحر باحتشامٍ مثل صبايا يُغلّفن العشق بالخلج، والغابات التي تتكاتف وتلتفُّ، ثمّ تتقدّم بعنادٍ إلى البحر. لا زالَ صخبُ الملاحين ولغَطُ التجار القادمين من البريجة ومراكش ومن أطراف الدّنيا كلّها يتردّد في أذنيه وهو يركبُ البغل خُلف والده قادما من «تصوّرت». اختلف الحال ودارت الدّنيا. ضَعُف السلطان المريني وكثرتِ الفتنُ واستحكم حبلُ المَحَن على الرّقاب.

تسلّل عبرَ الجانب المُتهدّم من سور المدينة، جهة السّاحل، يتلافى صعاليك يُغيرون عليه من الغابات، وسار متخفيًا في عتمة الغروب يخوض في الدّروب. ملامحُ الدّهول لا تزالُ مرتسّمة على الأبواب والنوافذ، وفي قطع الخزف التي تُركت، على حين غرّة، في عتبات البيوت. رحلوا بغتةً في غمرة الهلع والفوضى. ما كان لأحد أن يفكر بتروّ. حملوا أطفالهم، والقليل من المتاع، وتسلّقوا السُّبلَ بحثًا عن الأمان.

بلغ بيت والده الذي لاذ إلى قبيلة «الشبانات» يحمل نساءه الثلاث وكوكبة أطفال، ربط الحصان في جذع شجرة الزيتون وانسل إلى الداخل. بحث عن الفانوس ليسرجه وأحجم. لا يريد أن يستشير فُطَاعَ الطُّرُق. تسلق السلم إلى الطابق العلوي. النوافذ مشرعة على البحر. تعمد والده أن يتركها مفتوحة كي لا يغيب هدير المحيط عن الغُرفِ.

كان والده عاشقا للبحر، متيماً بأسفي حدّ الجنون.

ارتقى على الفراش فعاوده الإحساس بالخيبة. ترك صاحبه في قبضة البرتغاليين ورجع بمفرده. سحب الملاءة ففاحت رائحة العُبار. عبر النافذة تسرب ضوء القمر البارد. على الجدار لاح وجه شقيقته البريء.

- بما تجيب غيئة لما تسألك عن زوجها يا بشير؟ كيف تبرز لها عودتك سالما وسقوط الناجي في الأسر؟

تنهد.

- وحده الله يستطيع أن ينقذه يا غيئة.

مدّ يده على طرف الفراش، تحسس البندقية. ما كان بوسعه أن يفعل أكثر. قاتل بشراسة. تراجع فرق المجاهدين وتركته وحيدا مع صاحبه فاضطر للفرار. طلب من الناجي أن يركب خلفه وقد فقد مطيته لكنه استمرّ متمسرا حيث هو. صرخ البشير وسط لعلة الرصاص ودوي القذائف:

- هيا، اصعد.

ذهل الرّجل. لم يسبق له أن تابع الرصاص بذات الغزارة يصلي الأجساد ويشويها. خرّ على ركبتيه وتاه. نسي للحظات من يكون وعلى أي أرض يوجد وماذا يفعل وسط الدمار والموت. مات الكثير من الرجال

وجرح الكثير. أقبل البرتغاليون فأدبر البشير ينجو بجلده. احتوى بالشجر من الرصاص المتطاير وسلك سبيله وحيدا، انفصل عن المقاتلين وقصد قبلة أسفي.

انتبه البشير لسرب من الطيور يُحلق، غطى لوهلة وجه القمر، ثم تلاشى؛ ابتلعت النجوم. «إنه القمري»، قال في نفسه. طيور القمري تُشعره بالدّفء، بحضن أمه وليالي الصيف في بادية الشبانات. «كان للحياة أن تكون أفضل وأرحم لو توقّف الحكام عن خوض المزيد من الحروب»، فكر. تأسف. دس وجهه في الفراش.

- ناجي، يا ناجي، نصحتك ألا تفعل فعاندي. قلت لك إنك لست من أهل السلاح فكابرت. غامرت لأجلك وحملت البندقية.. سدى يا صاحبي، تركتكم في ساحة المعركة وعدت.

استعاد الأحداث كما جرت منذ دخلا سوق الحصن قبل أسبوعين وانتهاء بوقوع الناجي في الأسر. الناجي ليس رجل حرب ولم يحمل البندقية يوما. كان كل همّه، منذ تزوّج وأنجب أطفالا، أن يُعيل أسرته ويكفيها شرّ العوز والجوع.

ندّم الناجي على الزواج. كلما أحبّ زوجته وأبناءه أكثر ازداد ندما. رأى أطفاله مثل الحطب الجافت، لا بدّ أن تأكلهم النار يوما كي تستمرّ حياة جوفاء وعديمة المعنى.

قرّرا أن يسافرا سويا من فاس ويجوبا البوادي والقرى والمدن. الناجي ذكي وحذق، يُجيدُ صنعة الحكي، ما دخل قرية إلا وأعجب أهلها بفنونه، يقصّ الحكايات ويضرب الأمثال. ليلا تتقاطر على خيمته النساء ليقرأ لهنّ الكفّ.

ابتسم لهما الحظّ فكسبا مالا وفيرا. شجعتهما الأرباح والعطايا فسارا أبعد ممّا خطّطا من قبل. كان البشير قويّ البنية وعالي الهمة، خبيرا بالمسالك والطرق، يختار السبيل الأفضل والأكثر أمانا. تتابعت القرى وطالت الطريق. أطلت أسوار الحصن فتشجعا على الاقتراب. البرتغاليون لا يمنعون الأهالي إذا جاؤوا مسالمين ابتغاء التجارة.

نصبا خيمتيهما على أطراف الحصن واشتغلا مع التجار والبدو وعابري السبيل والحجيج والبرتغاليين الذين تعلّموا العربية. مرّض «همام» فأضرب الناجي عن العمل. كرّس كلّ وقته للاعتناء بالقرد الذي أحبّ كصديق.

- هذا ليس إنسانا يا ناجي، هذا قرود، لا أكثر، أفهم ارتباطك به، إنّما ليس إلى هذا الحدّ. قدّمنا لنشتغل ونعود إلى أهلنا بربح وفير..

أحبّ الناجي القرد الذي سخره لإمتاع الناس وجلب الفرحة للقلوب. مع الأيام أخذ القرد مكانا معتبرا في قلب صاحبه. ما كان ينام إلا إلى جانبه. أطلق عليه بدل «الضحّاك» اسمًا آخر. صار القرد إلى «همام»، وبات منذ ذلك ثالثهما. لا يأكل إلا إذا قاسمه الطّعام ولا ينام إلا إذا اطمأنّ على مرّقه. بادله همّام الوفاء. لن ينسى الناجي حزن القرد عليه لما أصابته الحمى. لازمه في مرضه لا يأكل ولا يشرب. يوم نهض الناجي من فراشه تابع فرحة القرد بذهول، قفز ونطّ وضحك.

- ما ينقصه غير اللسان يا بشير.

- وكزّ منا بني آدم.

- هذا ليس قردا يا بشير، القرده هم هذه المسوخ التي تضحك بأفواه مفتوحة تشبه فروج العاهرات. همّام كائن مكتمل، يفرح لفرحي ويحزن لحزني.

تجرّأ الرّجلان أكثر فدخلا الحصن. نصحهُما التجار بالعمل بين الأسوار، قالوا لهم إنّ هناك نساء برتغاليات يعشقن حكايات الوافدين ورجالا كرماء يجزلون العطاء. لم يتردّدا. جرّبا فكان لهما ما أرادا من ربح ويزيد.

أعجب النّاجي بالحصن، وجد في الدّخول عبر البوّابة انتقالا من حضارة الشّرق إلى حضارة الغرب. تابع باندهاش نساء أوروبيات جميلات ومتحرّرات يمشين في السّاحات بلا غايات محدّدة ولا مقاصد بعينها، يقضين وقتنا طويلا في الكلام والجلوس إلى مقاعد الحدائق. وجد صبايا الحصن رائقات المزاج وأكثر انشراحا وإقبالا على الدنيا. أعجبه الثياب المفتوحة الصّدر، المكشوفة السيقان، والمشدودة في الوسط.

كانت الحياة التي يريد.

واستمع بانتباه كبير لأجراس الكنائس تُقرع. لم يشعُر بنفسه غريبا ولا بالكنائس عدوا كما تخيلها، ولا لاحظ مقدار القسوة التي بلغته، عن رجالها، على لسان من هاجر من غرناطة إلى فاس. تُقرع فيتردّد صداها بين العمران

التي لا تشبه في شيء عمران العرب والمسلمين. «هذا عالمٌ مختلفٌ وجميل»، أقرّ في نفسه. فكر أن يبقى أطول. كان المال وفيرا والمزاج طيبا والقلب مطمئنا. ذهب أبعد فرأى غيثة تمشي إلى جانبه في زيّ امرأة برتغالية، بشعر مكشوف، وأبناءه الثلاثة يلعبون في ساحة الحصن المطّلة على البحر.

ثمّ جرت الرّيح عكس ما انتهى فانقلب كلّ شيءٍ إلى النّقيض؛ صار البياضُ إلى سوادٍ واستحال الجمالُ إلى فُبح.

في اليوم السّابع لدخوله الحصن، في السّاحة المرصوفة التي تشرف على المحيط، بينما كان النّاجي يقصّ الحكايات عن رجال من مملكة «سونغاي»، والبشيرُ يضرب على الطّبّل في فواصلٍ لإثارة الجُمهور، توقّف جنديّ من حرس الحصن بين المتفرّجين. كان المُتابعون في معظّمهم من السكان المحليّين الذين قدموا لاقتناء سلع برتغالية الصنع أو التزوّد بالتوابل والتبّير واقتناء «الملح الحلو». يأتي النّاس عادة بجيوب عامرة فيشترون الأثواب والأرائك والفوانيس الحديثة.. ويبيعون زيت الرّيتون والبيض والدّواجن والقطاني والتمر، وقد يتوقّفون لحظات، لأجل النّفكّه، قبل أن يولوا

شطر القرى والمداشر البعيدة والدواوير والمدن. يدخلون الحصن البرتغاليّ وفي قلوبهم غلّ على سادات العصر الحديث، ويولون وفي صدورهم قَدْرٌ وافر من الإعجاب.

صَقَّ النَّاجِي وَضَرَبَ البَشِيرُ على الطَّبَل، هَمَّام، مثل سيّد وقور، كان يقتعدُ كرسيًا وينتظر دورَهُ. سيمدّ القبّعة إلى الجمهور ليجمع النّفود ويعود للكرسيّ. انتهت وصلة الموسيقى فأشار النَّاجِي للقرد، أمسك هَمَّام القبّعة وقبّل أن يمدها لعطايا الجمهور، وبلا مقدّمات، وجّه الجنديّ نحوه فوهة البندقية، وقف النَّاجِي مشدوها لا يلوي على شيءٍ. أراد أن يستجدي الجنديّ، فكّر أن يساومه بما يطلب من مال لكنّ الكلمات خانتها، ابتلع لسانه وجحظت عيناه. التفت الجمهور إلى الجنديّ. يعرفه البعض. كان إيمانويل صائد القروذ. صرخ البشيرُ يصقُّ:

- اهْرُب يا هَمَّام، اهْرُب..

لكنّ القرد لم يفعل، تسمّر في مكانه. أدرك بغريزته أنّ خطرا داهمًا يتهدّده. اخترقت الرّصاصة صدره فانقلب على الأرض. هرعًا إليه، أمسكا بيديه. ظلّت نظرة هَمَّام معلقة بوجه صاحبه إلى أن انقطعت أنفاسه.

بكاؤه بحسرةٍ. ألقى المتفرّجون الكثير من القطع النقدية على الأرض. أرادوا أن يواسوه. لم يقبل العزاء. ترك النّفود حول بقعة الدم وسار يحمل صاحبه إلى خارج الحصن.

دفنهُ في المساء، قرأ عليه القرآن، ودعا له بالرحمة. عندما سقط الظلامُ كان قد اتّخذ قراره الأخير؛ أن يشتري بما جمع من مالٍ بندقيةً إسبانية الصّنع وسيفا وذخيرة ويهاجم الحصن مع فرق المتطوّعين.

النّاجي

- 6 -

«خلق الله الجحيم للأغبياء، فالخَيْرَاتِ تكفي النَّاسَ جميعاً. السُّدُجُ وحدَهُم يتقاتلون لأجل أموال وأملاك يخلفونها وراءهم ويرحلون محمّلين بالأوزارِ». قال أبي ذات يوم.

ما رأيتُ من الخيرات التي حدّثنا عنها أبي إلا القليل سيّدي، وكان الطيّبُون، أينما حللتُ، كالماء في زمن القحط.

ماتت أمّي، المرأة الخيرة، وجاءت بعدها العاصفة. صرّتُ من حمّاد أكلناو إلى ناجي العوّاد. لم يكن الأمر مجرد تغيير في الاسم. كان انتقالاً من حال إلى حال. تشوّه وجه الدنيا دفعة واحدة وباتت الحياة الجحيم.

نعم، وصارت الملائكة إلى شياطين، وإلا كيف صار أبي إلى وحش؟

نسي أهل فاس سيرتي الأولى؛ حكاية حمّاد، فحكايات الموت، في زمن الوباء، كثيرة تجبّ بعضها، لكنّ النّاجي استمرّ يلاحقني ليذكّرني بالقبو ودماء إخوتي.

.....

تململ الضّابط في كرسيّه، وبَدَلَ القَدَمِ الواحدة وضع القدم الثّانية على المكتب. سحب نفساً عميقاً من غليونه، بدا مرتاحاً، مستمتعاً بحياته التي صنعها بيديه على مدى سنوات طويلة. ألقى شريحة سلمون للقطّ الذي ماء بكسلٍ بين قوائم الكرسيّ. عبّر النّوافذ التي في أعلى الجدران كان هواء خفيف، ومرح، ينساب مع نور الشّمس وحفيف الشّجر.

- أنت يا.. ناجي.

- نعم سيدي.

- اسمع، أريد الحكاية كالريّح. هل تكفّ الرّيح عن الحركة؟

- كلا سيدي.

- إذا توقفتُ الرِّيحَ تلاشت وإذا اشتدَّتْ صارت إلى زوابع. أريد أن الأمس الدِّمار والفوضى والهلاك في كلماتك. لا تتقل عليّ بما يزيد عن المعنى الذي أبغي فيخفّ وزنك عندي وتلقى ما لقيهُ غيرك.

.....

غِبْتُ عن الدُّنيا ما شاء الله من وقتٍ ثمّ فتحتُ عينيّ في بيت غريب وعلى وُجوهٍ لا أعرّفها. أشعرتني الابتسامات بالدّفء. كنتُ في أمان. مالت امرأة وأطلت عليّ. كان وجهُها الأسمر، رغم السن، جميلاً. مدّت يدها تتحسّس جَبْهتي.

قالت:

- حمدا لله، نجوت من الحُمى.

- أين أنا؟

- أنت في حفظ الله، وفي بيت العوَاد، فلا تقلق.

التفتتُ إلى صاحبَتها، تحدّثت إليها:

- ومن دخل بيتَ العوَاد فهو آمن.

حرّكت المرأة الأخرى رأسها. كانت نحيفة العوَد، أشدّ سمرة وأقلّ حيويّة، يفضحُ وجهها الطويل حياة العناء والكدح التي عرفتتها. ردّت عليها:

- لا أمان لأحد يا فاطمة في زمن الطّاعون، لا لعبد ولا لسيد، ولا لغنيّ ولا لفقير. كلُّ البيوت يتهدّدُها الخراب.

عادت السيّدة لتنظر إليّ بنفس الابتسامة العريضة. اقتربت مني، قالت تهمس لي:

- أمّا أنت ففي أمان الله وأمان العوَاد.

ساعدتني لأتكى على الوسادة، أطعمتني فأكلتُ. اللقمة في زمن القحط لا ثمن لها حضرة الضابط. استدارت لتعد لقمة أخرى، تحدّثت تحكي لي ما جرى:

- وجَدَكَ سيدي العواد ملقى على الطريق وعاد يحملك إلى بيته. خشينا أن تنتقل إلينا الوباء، لكن سيدي طمأننا. قال لنا إن بدنك سليم من أي طفح أو تقرح ولا داعي للقلق من عدوى الطاعون. أمرنا أن نسهر على علاجك ونعاملك كما يعامل سائر بنيه.

أعطتني لقمة أخرى. قالت:

- منذ اليوم تنسى اسمك القديم.

رفعت رأسي فتنبهت لقلقي. تابعتُ:

- لا يا ولدي، ما أراد أن يسترقك، بل قصد خيرا. أمرنا أن نناديك «النّاجي» عساك تكون مدخل خير وفألا حسنا على نجاة البلاد والعباد.

تعافيتُ أسرع ممّا حسبوا. ما سألني أحد من أيّ دار أكون ولا راودهم الفضول ليعرفوا حكايتي. قضيت أسابيع بين إخوة جدد وأبوين جاد بهما الزمن وقت عُسرٍ. كانوا متفائلين بالغد، يأكلون القليل ويقضون وقتهم في الدّار مخافة العدوى. لا يخرج منهم غير العواد ليستقصي أخبار الأسواق، لكنّه كان يعود مهموما، فالأسواق بلا سلع والمحاصيل القليلة التي كانت في المخازن والمطامر حازها الأعيان في البوادي لأنفسهم وذويهم وتركوا الخلق جياعا دون أن يجدوا ناهيا ينهى أو رادعا يردع.

وأسرع ممّا حسبوا كذلك تسللت إليهم ريح الوباء فعصف بهم الطاعون. شبّ فيهم المرض كما تشبّ النَّارُ في الحطب الجافّ فاحترقوا واحدا خلف واحد. هلك السيد والعبد، والرّضيع والشّيخ، والمرأة والرّجل.

مرض بينهم عبد عجوز. كان الضحية الأولى. جاء الخدم فزعين إلى سيّدهم الذي أمر بعزل المصاب عن البقية، صرخ يأمرهم:

- لا يقترب منه أحد، ادفعوا له الطعام تحت الدفة ولا تستعيدوا الأنية منه. يقضي حاجته حيث هو فلا يخرج من مطرحة ولا يدخل إليه أحد.

أطاعه العبيد إلا فاطم، عزَّ عليها أن تترك زوجها يواجه المرض وحيدا. انصرف العبيد وظلت هي مكانها تنتظر إلى سيدها.

- لا أملك له شيئا.

قال السيد.

- أدخل إليه وأبقى معه.

ردت فاطم.

- على ألا تخرجي بعده.

وافقت فأذن لها.

دُفِعَ إلى العبد وزوجته الطَّعامُ تحت دَقَّةِ الباب. مات الرَّجُلُ بعد يومين فأمر العواد بإغلاق الباب بالحجارة والطَّوب، لم يجرأ أحد أن ينبَّهه إلى وجود فاطم حيَّة. رفعوا السَّور في صمت. ما سمعنا المرأة الصَّبورَةَ تصرخ طالبا للنَّجاة. تناهى إلينا أنينها بعد أيَّام. كانت فاطم التي قضت عمرها في خدمة الدار تحتضر إلى جانب جثة زوجها.

ما نفعت الحجارة والطوب. تسللت العدوى إلى غرفة أخرى فعزلوا المصاب الجديد. في الأسبوع الثالث من هلاك العبد الأوَّل كان الطَّاعونُ قد مسَّ معظم أهل الدَّار.

هلكوا حتَّى الرَّجُلُ الأخير.

كانت أيَّامًا سوداء أذاقهم فيها المرض العذاب ألوانا، وكان الإحساس بالعجز أعسر ما فيها. يقف الرَّجُلُ على ولده يضيع ولا يملك له غير الدَّعاء.

لكئنِّي نجوتُ سيدي.

اعتذرتُ للشَّيخ وهو على فراش الموت. كنتُ الأحقُّ بالموت من أهل الدَّار أنا الدَّخيلُ الآتي تَلَطَّفًا ورحمة. جاهد ليبتسم في وجهي. أشار لي بالابتعاد مخافة العدوى. قال:

- عندي طلب فلا تخيِّب رجائي يا بني.

هممتُ بالاقتراب فرَدّني.

- دعك بعيدا واحرص على ترك التّوافذ مفتوحة حتّى لا يتلوّث الهواء.

تسمرتُ في مكاني فواصل:

- أهلك الوباء نسلي ولم يعد من بعدي من يخلفني. يؤلمني أن ينتهي ذِكْرُ آل العوّاد أجمعين وأنا وحيد أبي.

مال بوجهه نحوي. تقيّاً الكثير من الدّم في ساعته تلك وازرقّ جلده أكثر. كان على وشك الموت. سألني باستعطاف:

- هلا حملت اسمي يا ناجي؟

أطال الصّمت حتّى حسبته انتهى ممّا يوّد أن يبلغني به. عاد ليتكلّم:

- ما كنت لآتي بك إلى بيتي في زمن الوباء يا ناجي. رأيتُ في منامي أبي يقف أمام باب البيت فاستغربتُ. سألته كيف يتردّد في الدّخول إلى محلّ ولده الذي من صلبه. لم يردّ، مدّ لي صبيّاً صغيراً. قال: «خذ، إنّه النّاجي؛ بقية ذكرنا». لمّا وجدتك على الطّريق أيقنت أنّني هالك مع جماعتي، وأنك النّاجي؛ بقية ذكّرنا على الأرض.

ثمّ بكى. ألمني بكاء الشّيخ. عاد إلى رباطة جأشه. سألني:

- هل تفعل يا ولدي؟

- أفعَل يا عمّي الشّيخ، أفعَل.

أوما لي فحملتُ المصحف الكريم. طلب منّي أن أقسم عشر مرّاتٍ بما وعدت حتّى يطمئن قلبه. لمّا انتهيتُ كان العواد قد أسلم الرّوح. مات الرّجل ينظر إلى النّافذة وهو يحلم باسمه باقيا بعده.

وكما فعل آل العوّاد فعلتُ. خرجتُ من الغرفة، مكان الدفة بنيتُ جدارا من الطّوب. كانت رائحة الموت قد فاحت ومعظم غرف دار العوّاد أصبحت قبورا.

هكذا صرت من حمّاد إلى النّاجي، ومن أكنّاو إلى العوّاد.

اكتشفتُ في أيام وحدتي الأولى أنّ الأشياء تكبر مع الألام. فاسُ من نوافذ البيت كبيرة جدًا؛ متاهة من الدروب والأزقة والحارات ومنازل لا تحصيها عين. في داخل الدار تتناسل الممرات والأبواب والقبور؛ تنهض مدينة أخرى.

صبرتُ ما قدر الله من أيام في بيت آل العواد. لما أثقلت عليّ الوحدة وكاد الصمت يذهب بعقلي خرجتُ إلى الدروب أقصد بيتنا. ما كنتُ أحسب أنّ إبراهيم يحيى بعد الذي فعل. رفعتُ وجهي إلى السماء، كان لونُها كنيبا؛ أصفر وعكرا، أقرب إلى لون القيح. خضتُ في الطرقات. ماتت فاس التي عهدتُ. هرب الكثير من الناس إلى الجبال وأقفلت البقية الباقية الأبواب والنوافذ على نفسها تنتظر آجالها.

دفعتُ دفعةً باب دارنا ودخلتُ فهاجمتني رائحة العفونة. في البهو تابعتُ أخي عبد الصمد ينطُ كقرٍ زائغ النظراتِ ومن عنقه المذبوح يسيل دم سابغ.

«الذي مات مغدورا يعود إلى الدنيا في الهيئة التي رحل عليها»، قالت أمي. ما كانت تحسب أنّ المغدور أبناؤها وأنّ الغادر زوجها الذي أحببتُ.

... ..

صقّ الضابط وعلى وجهه ابتسامته الباردة ثم سحب قدميه من على المكتب:

- هذا هو يا ناجي، هذا هو، أحسنت صنعا بما حكيت، أحسنت.

رفع القط، وضعه على المكتب، مسد فراءه الكث فماء ينظر إلى صدر الناجي بعينين نزقتين. أعطاه شريحة سلمون:

- عزيزي، لعلك تنتظر بدل اليوم شهرا أو يزيد.

غَيْثَة

- 7 -

أَلَقْتُ غَيْثَةَ الْعَلْفِ لِلْمَعَزَاتِ الثَّلَاثِ ثُمَّ تَطَلَّعْتُ إِلَى نَافِذَةِ بَيْتِ الْجِيرَانِ. ضَاقَتْ مِنْ شِكَاوِي أُمُّ الْغَيْثِ الَّتِي مَا تَفْتَأُ تَذَكِّرُهَا أَنَّ بَيْوتَ الْمُذْنِ لَا تَلِيْقُ لِتَرْبِيَةِ الْمَاعِزِ وَالذَّجَاجِ. «رِيحَةُ الْمَاعِزِ تَخْنُقُ حُبَيْبَتِي. أَوْهَ عَلَى نَقِيْقِ الذَّجَاجِ، فَطِيْعٌ..»، تَرَدَّدَ بِلَا كَلَلٍ مُتَأَفِّفَةً وَهِيَ الَّتِي تَرَبَّتْ فِي بَادِيَةِ «صَفْرُو» وَرَعَتِ الْقَطْعَانَ فِي الشَّعَابِ سِنَوَاتٍ طَفُولَتَهَا قَبْلَ أَنْ تُصَيِّرَ زَوْجَةَ فِي بَيْتِ مُحَمَّدِ الْعِيَّاطِ، تَاجِرِ الْأَثْوَابِ الْمَعْرُوفِ. قَالَتْ لَهَا فِي آخِرِ لِقَاءِ جَمْعٍ بَيْنَهُمَا فِي حَمَّامِ الْعَنْبِرِ هَمْسًا:

- رِيحَةُ الْمَعَزَاتِ تَكْسِرُ هَمَّةَ الرِّجَالِ، اللَّهُ يَعْفُو عَنِّي وَعَنْكَ.

- كَيْفَ يَا أُمَّ الْغَيْثِ؟

دَفَعْتُ جَارِثُهَا سَطَلَ الْمَاءِ عَنْهَا قَلِيلًا، مَدَّتْ رِجْلًا وَتَرَكْتَ أُخْرَى تَسْرَحُ فِي الْأَرْضِ الزَّلْقَةِ، ثُمَّ شَرَعْتُ فِي تَسْرِيْحِ شَعْرِهَا الْأَسْوَدِ الطَّوِيلِ. وَسَطَ الْبُخَارِ رَأَتْهَا غَيْثَةُ أَكْثَرَ وَدَاعَةَ وَجَمَالًا. لَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَكْرَهُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ. تَغْضَبُ سَرِيْعًا لِكِنَّهَا تَعُودُ لِنَسْأَلِ عَنْهَا وَعَنْ حَالِ أَبْنَائِهَا. وَحَدَّهَا فِي فَاسٍ كُلَّهَا تُشْعِرُهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْأَمَانِ فِي غِيَابِ النَّاجِي.

وَاصَلْتُ أُمَّ الْغَيْثِ بِصَوْتِ أَعْلَى:

- الرِّيحَةُ الزَّيْنَةُ تَجْعَلُ عَزِيمَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الرِّجَالِ ضَعِيفَةً، وَالْعِيَّاطُ، يَا عَيْنِي، تَاجِرٌ كَبِيرٌ، هَمَّةٌ وَشَأْنٌ، يَعْشَقُ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ وَالْعَطْرَ الْفَاحِرَ. حَرَامٌ يَا غَيْثَةُ، الْبُخُورُ وَبَخَّرْتُ، أَعْوَادُ النَّدِّ وَمَا خَلِيْتُ وَمِسْكَ اللَّيْلِ وَزَرَعْتُ.

صَمَنْتُ، أَلَقْتُ الْمَشْطَ وَحَمَلْتُ الطَّسْتِ، أَفْرَغْتُ الْمَاءَ عَلَى جِسْمِهَا وَتَرَكْتُ جِلْدَهَا يَتَشَبَّعُ بِالْدَّفْعِ. تَنْهَدْتُ:

- تَعْرِفِينَ يَا غَيْثَةُ قِصَّتِي أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِكِ، أَنَا إِلَى الْيَوْمِ بِلَا عِيَالٍ، أَنْتَظَرْتُ سِنِينَ طَوِيلَةً وَلَا زَلْتُ أَرْجُو اللَّهَ وَأُمَّيْ نَفْسِي بَوْلِدِ يَفْرَحَنِي وَيَسْعِدُ زَوْجِي.

ردّت غِيثَةٌ تدفع الحرج عن نفسها:

- الكرفس حبيبتني، اطبخي الكرفس لزوجك ويفعل الله خيرا.

- سي محمد لا يطيق الكرفس.

سحبت غِيثَةٌ طفلها الصّغير من ذراعه فألمته. بكى. لم تواسه كما هي عاداتها. تحدّثت إلى جارتها:

- أبيع المعزات! يرضيك يا أمّ الغيث! وحليب الصّبيان!

ابتلعت غِيثَةٌ غيظها ثمّ عادت إلى هدوئها. عدّت الحكاية تلقيفا. لن تبيع المعزات ولن تُفرغ قِنّ الدّجاج. ما كان ذلك واردا بالنسبة لها. «تهذين»، قالت في نفسها وتركت لأمّ الغيث أن تتحدّث كما يطيب لها، فالمعزات، في تقديرها، أهمّ من رغبات السّرير وشطط النّساء، أمّا نقيق الدّجاج وصياح الديك الذي «يزعجك فيعود عليّ بالبيض ويملاً قدري باللّحم. يغيبُ النّاجي فأسدُّ به رمق الأولاد ويكفيني مذلة السّؤال ويعفيني من الخروج إلى المتاجر والأسواق».

- بيعي المعزات واربطي زوجك إلى جنبك، يكفيه نظّ بين المدن والدّواوير.

- زوجي ليس بهيمة حتى يُربطَ يا أمّ الغيث.

- نحن المربوطات في البيوت بهائم يا غِيثَةٌ؟ الرّباط ليس عيبا، الرّباط صون وأصل، تتدقّنين برجولته ويتدقّأ بحنانك، بدل الرّيح والشّيح والغربة. لا تهنيت به ولا عشت في عزّ.

ثمّ ضربت ولدها الصّغير على قفاه. كان ساهيا يحملق في أجساد النساء التي تبدو وسط البخار كخيالات. جرّته من أذنه وأعادته إلى مكانه. قالت بغضب:

- صح، صدقتُ أمّ الغيث، لازم أربطك وأربط أبوك معك.

في بهو الحّمّام عانقتها أمّ الغيث، ضمّتها إلى صدرها بحرارة. قالت لها:

- والله ما أحببتُ جارةً بقدر حُبّي لك.

عانقتها غِيثَةٌ بدورها، تنسّمت فيها رائحة أمّها التي ما رأتها لسنين. لاحت لها أسوار «أسفي» البعيدة، المنكوبة، وذكريات طفولة وبهاء.

- وما أحببتُ أكثر منك في فاس يا أمّ الغيث؛ أنتِ الأنيسُ والسند.

نظّقتُ غيئةَ البهو كاملاً، لمت العُشبَ المبلولَ والفضلات وبقايا علف أمس، حشرتها في شوال كبير، ثم حملتها إلى الباب. سيأخذها صبيةُ الحيّ، إلى المطرح، في طريقهم إلى قضاء حاجات آبائهم. أحرقت أعواداً طيبة الرائحة وأشعلت البخور. رغم لسان جارتها السليط تحفظ لها عطفها ونقاء سريرتها. لن تنسى غيئةَ وقوف أمّ الغيث إلى جانبها يوم أصيب صغيرها بالحمى. سهرت معها الليلَ كلّهُ ثمّ عادت إليها في مساء الغد بخليط من الأعشاب النّاجعة. «انقعي الأعشاب في الماء المغليّ وناوليه جرعة في الصباح، وجرعة في العشيّ، ولا ترمي زبل الأعشاب، ضعها على جبهته ولقي رأسهُ بمنديل».

تعافى صغيرها من الحمى. خرج سالماً. كانت الأعشاب بوقع السحر. شفيّ فحملت في صدرها الجميل؛ «أمّ الغيث تلين معي كلما اشتدّ عليّ الرّمن».

تعالى بكاء طفلها من غرفة النوم فتذكّرت أنّها لم تحلب المعزات بعد. جلبت الطست. «جاية يا أحمد، جاية، اصبر شوية يا ابني». تطلّعت إلى السّماء بينما أصابعها تشدّ على ضرع المعزة الذي يفيض حليباً. «هل تأخذك منّي أخرى يا ناجي إذا بلغت السّاحل؟ تغريك شقرة النّصرانيات فتنسى صبيةَ أسفي التي أحبّتك»، فكّرت. حكّت لها أمّ الغيث أنّ البرتغاليات فاتنات، يتقنّ الإغواء، ويفضّلن العربيّ والبربريّ على بني جلدتهنّ». قالت لها:

- رجالهم مثل الحليب المغشوش؛ لا طعم ولا دسم.

- كيف بلا طعم يا أمّ الغيث؟

ضحكت، غمزت.

- الرّجل منهم أشبه بالمرأة، لا تنبث اللّحية في وجهه إلا بالكاد. دمهم بارد، يشبه الأرض التي جاؤوا منها، وهمّتهم خابية، أمّا رجالنا فنيران، يحرثون الأرض ويقلبون.

«النّاجي وفيّ ولن يلتفت إلى غيري لا في الحلال ولا في الحرام»، قالت في نفسها. عندما انتبهت للطست كان الحليب قد فاض.

«الحليب إذا فاض بشّر بالخير يا غيئة، الخير كلّهُ عند ربّ العالمين»، فكّرت. مع اليد التي امتدّت إلى أنية الحليب جاء قرع على دقّة الباب. صرخت: «عاد النّاجي». توقّف أحمد عن البكاء، تسلّل

من تحت الفراش بخفة سنجاب. انتصب في عتبة باب الغرفة وتابع أمّه تهوول. الأخران طارا من الغرف الداخلية إلى البهو. عودة النّاجي تعني رجوع المياه إلى الغدير.

دخل البشير فاس فجرا قادما من آسفي. أوقفه الحرس. السلطان المريني الجالس على كرسيّ الحكم يخشى على عنقه من الأشراف. السّعديون يدكّون الأرض خلفه ويهلّلون لنصّر كاسح. أخلى لهم مراكش عقب موقعة «درن»، وسامح في دم ابنه الذي قُتِلَ على يدهم، وها هم يزحفون على مملكة فاس ليسودوا المغرب كلّه. سأله الجند من يكون ومن أين يأتي ولأيّ سبب غادر فاس ولم يعود إليها. أدرك من كثرة الاستفسار أنّ المدينة تنتظر أيّاما سوداء. تتناوب الأوبئة وأهواء السّياسيين على هذه الأرض فتحيل وفرتها إلى شحّ ويُسرها عُسرًا.

سمحوا له بالدّخول.

رأى الألوية ترفرف على الأسوار وجنود السلطان في كامل كسوتهم وفرق القبائل الموالية من العرب والبربر متأهبة للقتال. كانت الخيول مسرجة والفرسان محزّمين وفرق المشاة بين قعود ووقوف. هرب من الحرب على أطراف المحيط وجاء إليها وسط البر. إمّا أن يموت بنيران النّصارى الطامحين لتأمين طريق البحر إلى بلاد التوابل أو يلقى بسيف المسلمين المتناحرين حول الحكم.

بلغ إلى سور بيت النّاجي. شقّ عليه أن يحمل الخبر. لبت ساعة كاملة. رأى أخته تفتح الباب وتضع الشّوال على العتبة. تأسّف.

«هيا يا بشير، لن تبقى إلى جانب السّور النّهار كلّه».

حسم أمره بعد تردّد وخطب الباب.

«إنّه النّاجي»، فكّرت غيثة. ضجّ عالمها. سحبت يدها وتركت الطّست تحت ضرع المعزة وهولت إلى الباب. للمرّة الأولى فكّرت أنّها تحتاج إلى النّاجي، ليس فقط كزوج يعيل الأطفال وينشر الدّفء والإحساس بالأمان، بل كرجل يحرث تربتها ويعيد إليها خصوبتها. الأرض بلا ماء تجفّ وتنتشّق، والمرأة بلا حب تتبيّس وتبور.

أمّ الغيث كانت أوّل من شاهد العائد وحيدا. حخّمت أنّ النّاجي لن يعود أبداً. ما ترك البشير النّاجي يوما. كانا دائما جنبا إلى جنب. «لقد مات»، حسمت الأمر ثمّ انقلبت لتبكي حظّ جارتها النّعس.

دفعت غيثة دفة الباب. بدت أكثر شحوبا وهزالا ممّا تركها. عانقها. أحبّ أخته كثيرا. ما كان ليهدبها أجمل من النَّاجي. وها هو يعود وحيدا. رائحتهُ تذكّرُها بوالدها. طبّط على ظهرها. «لعله يواسيني»، انقبض قلبها فتراجعت إلى الخلف.

- فين النَّاجي؟

جاهد ليخفي اضطرابه. أخفق. من خلفها رأى أطفالها الثلاث متراتبين. كان أصغرهم حافيا وبلا سروال. نظروا إليه مرتابين؛ يعرف أنّهم ينتظرون الرّد: «أين النَّاجي؟». مسح العرق عن جبينه ثمّ تجاوزها، انحنى على الأولاد فتعلّقوا به. احتضن الثلاثة ثمّ رفعهم.

- لكلّ واحد منكم طلب ألبيّه له.

تحدّث بكر الأكبر سنّاً. كان عمره ثماني سنوات، أبيض البشرة كأبيه، وفي عينيه زرقة غامقة وحرزٌ مقيمٌ.

- سيف يا خالي.

- ولم السيف؟ أنت طفل يا عمري.

- أذافع به عن أمّي وإخوتي. لمّا تغيّبون يجافيني التّوم. أقف في البهو وعيني على الباب.

- وأنت يا محمد؟

- أبي يا خالي، أريد أبي.

اجتاحته الرّغبة في البكاء، كابر. أعادهم إلى الأرض ثلاثتهم. احمرّت عيناه. لم تغلق غيثة الباب، ظلّت في انتظار النَّاجي. لا يمكنه أن يموت. وعدّها، منذ سافر أوّل مرّة، أن يعود بعد كلّ سفر سالما. قال لها إنّهُ عَصِمَ من الموت يوم نجا من سكين والده ويوم خرج ناجيا من الطّاعون الذي ضرب بيت آل العوّاد. «لن أموت ما لم تهزمني الشّيخوخة في آخر العمر يا نوّارة عيني». كان يعني ما يقول، فالنّاجي، كما تؤمّن، لا يكذب أبدا.

- أغلقي الباب يا غيثة.

استدار ليخطو. أوقفته.

- فين النَّاجي يا خاي؟ علاش رجعت وحدك؟

حمل الصَّغِير بين ذراعيه. كان الولد عبوسا. فيه شبه كبير بجده. طبع قبلة على جبينه. وضعه على الأرض، ثم طلب من بكر أن يأخذ أخويه إلى الدَّاخل.

صرخت غِيثَة فتسمر أبنائها في مكانهم. أم الغيث، على خلاف عاداتها، تركت دفة النَّافذة مغلقة. كانت، إلى جانب الدفة تبكي بصوت خفيض.

ضربت غِيثَة على فخديها تولول:

- مات.. مات النَّاجي، قتلوه.

زاد وجهها شحوبا. خشي عليها أن تسقط. أمسكها:

- كلا يا غِيثَة. لم يمت. سقط أسيرا في يد البرتغاليين.

أقعدتها المفاجأة.

- اصبري يا غِيثَة، اصبري..

جالت في ذهنها أفكار كثيرة وطافت خيالات. اهتزت الأرض وتداعت البناءات من حولها، لكنّها لم تسقط. ضاق صدرها عليها وتقطعت أنفاسها. تمدّت لو كانت أمّها إلى جانبها. كانت لتضع رأسها في حجرها وتبكي. حَجْرُ أمّها وحده ينسيها الدّنيا. تماسكت. دفعت دقة الباب، بلا كلمات، عادت لتحلب المعزة. أدرك رسالتها: «وكيف تأتي وتتركه أسيرا؟». جلس إلى جانبها. كانت تبكي. بكى بدوره. لم ينبّهما إلى الطّست المملوء. استمرت تحلب وظلّ الحليب يفيض، كذلك أحزائها.. عجز عن مواساتها. خانته الكلمات فقصد إحدى الغرف. نام في جلبابه مكدودا ومهزوما. قبيل الفجر أيقظته غِيثَة. وضعت له صينية الإفطار وناولته الغلاي ليغسل وجهه. نهض وتوضأ في البهو. مع الرّزقة التي لاحت في السّماء ارتفع الأذان. نفس الصّوت، نفس الكلمات، واللّون الدّاكن نفسه يطبق سابغا على العالم وعلى صدرها. كأنّ أحزانها ثابتة لا تتحرّك. جلس أمامها. مهما كبرت تظلّ غِيثَة الطّفلة التي تلعب تحت شجرة الزّيتون التي إلى جانب الباب في بيت العائلة في أسفي. يتذكّر العرائس المصنوعة من عيدان الزيتون والقصب وشرائط الثّوب. يتأسّف، تمنّاها سعيدة دائما. ملأت كأسه بالشّاي. نادته:

- بشير.

نبرئها جاقّة. «غِيثَةٌ تحترق»، فكّر. رفع رأسه، نظر إليها باستغراب. لم تكن أختُه من تتحدّث إليه.
جاء صوتُها يابسا يصف احتراق عالمها. تألّم.

- نعم يا أختي.

- إمّا أن ترحل إلى الحصن لتعود به أو تبقى مع الأولاد فأذهب أنا إليه.

النَّاجِي

- 8 -

نام النَّاجِي مرتاحاً بعد أسبوعٍ شاقٍّ وعسيرٍ. كان حارسُ السِّجْنِ قد جاءه بفراشٍ نظيفٍ وبطَّانيتين دافئتين وكيس طعامٍ. أَخْبَرَهُ أَنَّ الضَّابِطَ راضٍ عنه. عندما انحسَر في الفراش وتدفأ نسي أنه أسير لدى البرتغاليين. لم يسمع صدى المفتاح يدور في القفل. حُيِّلَ إليه أَنَّ البابَ تُرِكَ مفتوحاً. أغمض عينيه فأطْلَتْ غَيْبَةً بعينيها الزَّرْقَاوِينَ، أَحَسَّ بها عارية تتمدَّد إلى جانبه وشَمَّ رائحة حليب صدرها الذي يُعَطِّرُ فراشها بعد كلِّ وَضْعٍ. انتفض قضيبه وتصلَّب ثمَّ لَانَ مع الدَّفء الذي سرى في عروقه. سحب الغطاء على وجهه، حجب الجدران العالية وغطَّ في نوم عميق. حلم بفاس واللَّغَط والدُّرُوب الضيقة، بأَمِّ الغَيْثِ تنادي على زوجته باكراً لتذكِّرها بموعد الحَمَّام، وبمساءات فاس الرَّائِقَةِ.

ناجي لم يشرب شاي المساء ولا اهتمَّ بأطفاله الثلاثة، دعا غَيْبَةَ إلى الفراش وتعرَّى. دون كلمات تعرت بدورها. عطشاناً إلى حليبها مص ثدييها. ضحكت:

- وحليب الصَّبِيِّ يا ناجي؟

- أنا الصَّبِيِّ، أنا الصَّبِيِّ بين يديك يا غَيْبَةَ.

تأخذه حلاوة اللذة فيقذف. تسأله:

- لم طَوَّلْتَ الغياب سي النَّاجِي؟

وخزه الرَّد فاستيقظ، شمَّ رائحة الرِّطُوبَةِ وعفن حجرة السِّجْنِ. تذكَّر الأسر وهَمَّام وبيدرو وكتيبة الإعدام. أعاد البطانية على وجهه، أراد أن يلحق بطيف زوجته كي يستعيدها، فشل فانكمش على نفسه. شعر بفخذه مبلِّلين. لم يتضايق، تمنَّاها أن تزوره كلَّ ليلة حتَّى تخفَّف عنه وحدة السِّجْنِ وقسوة العربة وترافقه إلى حين وقوفه أمام كتيبة الإعدام.

هل أخطأ بقرار السَّفَر من فاس؟ «كنتُ مجبراً»، يكرَّر في نفسه كلِّما طرح السَّوَال. بدا العمر أقصر من تبذيره بين ساحات فاس وضواحيها مقابل القليل الذي لا يكفي لشيء. تشتت يد المخزن على التجار، تفرض في كلِّ مرَّة ضرائب تختار لها أسماء لم يعرفوها من قبل فيخنق التجار

بدورهم عامّة النَّاسِ. تشتعل الأسعار فيساوي مدّ الشّعير عناء يوم. في الجوائح يبيع أمثاله أنفسهم وأبناءهم لقاء صحن من التّين أو حفنة زيتون. لا يريد أن يرى أبناءه يموتون جوعا. أقنع غيثة بالسّفَر فوافقت مكرهة. أعدت له كنزات صوف وجوارب ومداسا للأراضي الوعرة. فجرا ملأت أكياسا كثيرة بالقديد والخليع والفقّاس.

- احفظيها لك وللأولاد يا غيثة.

- أنت أولى منّا بها يا ناجي.

تنحّج البشير. كان قد ركب فرسه. التفتت إليه.

- لا تغفل عينك عن النّاجي يا بشير.

- ناجي ليس صبيّا يا غيثة. مع ذلك سأحرص عليه معرّة فيه ومحبة لك.

كانت خائفة على زوجها من السّفَر الطّويل وأحوال البلاد ومخاطر الطّريق، لكنّها لم تبك. ستفعل فور إغلاق دفة الباب. أضاف النّاجي يهدئ مخاوفها:

- سأعود، أعدك.

- لا أمان للطّريق يا ناجي.

ردّت. لوهلة أوشك أن يتراجع عن قرار السّفَر، فكّر أنّ الأيّام التي يعيشها بعيدا عن غيثة هباء. صوت البشير أربكه:

- هيّا يا ناجي حتّى ندرك مداخل مكناسة قبل أن تدر كنا شمس النّهار.

أوصاها على نفسها والأولاد. كان صغيّرُها بين يديها. تسمرت في مكانها. لم تجب. تابعت زوجها يغيب في الدّرب الطّويل. ما كانت تحسب أنّ الحياة قاسية إلى هذا الحدّ. أغلقت الباب. واستها أمّ الغيث كثيرا. خفّت عنها بما استطاعت. قالت لها تمازحها:

- تمنّيتُ يا عيني أن يسافر العياط شهرا أو شهرين أو حتّى ثلاثة.

صمتت غيثة تحدّق في وجه جارتها التي غمزتها:

- على الأقل أرتاح شوية، كلّ ليل خبط ولبط ووجع بطن. خلّينا نرتاح من قرف الرّجال.

ابتسمت أخيرا هي التي تعرف شغف جارتها بالسّرير.

في باب فاس تذكّر النّاجي أنّه لم يُلقَ نظرة وداع على طفليه النّائمين ولا قَبِلَ أحمد الذي كان بين ذراعَي زوجته. اشتاق إلى أولاده سريعا وشكّ في قدرته على تحمّل الفراق. عضّه الحنين سريعا فتألّم. قرده المحبوب، مثل صبيّ، تشبّث به من خلف. أشعره بشيء من الدّفء. كان البرد قاسيا، والليل أحلك في طريق بلا آخر. ألقيا السّلام على حرس باب الفتوح لكنّهم لم يردّوها عليهما. وجوه الحرس قاسية مثل حجر الطريق، تزرع في النّفس المزيد من الكآبة والأسى. على مسافة ميل من أسوار فاس صرخ النّاجي:

- توقّف يا بشير.

استدار النّاجي إلى الخلف. مثله فعل القرد.

- ما بك يا ناجي؟

- كاني سمعت غيّنة تنادي.

ضحك رفيقه. على خلاف النّاجي كان البشيرُ مرتاحا للخروج من فاس. يحبّ هذا الرّجل السّفرة والمغامرة والنّساء. «أرض واحدة لا تكفي وامرأة واحدة لا تشفي». قال يستدير بفرسه نحو صاحبه:

- ما حسبتُ قلبك هسّا يا ناجي. غيّنة في بيتها ترقد بين أطفالك.

«لينسينك جموح البدويات غيّنة»، قال البشير في شبه همس. ردّ النّاجي وقد وقعت الكلمات في أذنه:

- والله لا تنسيني كلّ نساء الدّنيا غيّنة يا بشير.

صباح الغد، باعت غيّنة دملج الدّهب، وعادت تجرّ ثلاث معزات. فرح أطفالها. كان دخول المعزات إلى البيت عيدا. خفّفت عنها فرحة الأطفال الإحساسَ بالعبء. في اليوم الخامس باعت العقد؛ آخر ما تملك. بنّت قنّا وملأته بالدّجاج. عمّرت المعزاتُ والدّجاجُ حياتها. ليلا تنسج الكنزات التي يبيعهها محمد العيّاط بأسعار جيّدة ويعود لها بربح وفير.

ثُمَّ تَفَاجَأَتْ غَيْثَةَ الَّتِي عَاشَتْ بِالْقَلِيلِ، مَعَ زَوْجِهَا، بِالْخَيْرِ يَكْفِي حَاجَاتِ الْأَوْلَادِ وَيَزِيدُ. كَثُرَ الْحَلِيبُ فَمَلَأَتِ الْقَوَارِيرَ وَوَضَعَتْهَا فِي عَتَبَةِ الْبَيْتِ. «لَا أَحَدٌ يَسْرِقُ مِنْ رِزْقِ رَجُلٍ غَابَ عَنِ بَيْتِهِ»، أَمِنْتَ. يَأْخُذُونَ الْحَلِيبَ كُلَّ يَوْمٍ وَيَتْرَكُونَ الْوَاجِبَ وَافٍ. فِي الْمَسَاءِ تَجِدُ الْقَوَارِيرَ الْفَارِغَةَ نَظِيفَةً فَتَعِيدُ مَلَأَهَا صَبَاحًا.

ثُمَّ وَضَعْتَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ سَلَّةَ الْبَيْضِ إِلَى جَانِبِ قَوَارِيرِ الْحَلِيبِ فَأَخَذُوا بِيَضِّهَا وَحَلِيبِهَا مِنْهَا دُونَ أَنْ يَنْقُصَ شَيْءٌ.

بَدَأَ أَنْ نَظَامَ حَيَاةَ جَدِيدٍ تَشَكَّلَ بِغِيَابِ النَّاجِي عَنِ الْبَيْتِ. زَرَعْتَ شَرِيطًا مِنَ الْأَزْهَارِ يَصِلُ الْمَدْخَلَ بِالْجِدَارِ الْخَلْفِيِّ لِلْفَنَاءِ وَاشْتَرَتِ طَنْفَسَةَ تَرْكِيَّةً وَمَلَاءَةَ فَارَسِيَّةً الصَّنْعَ، لَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَعْمَلْهُمَا. قَرَّرْتَ أَنْ تَفْرَشَهُمَا يَوْمَ يَعُودُ زَوْجُهَا سَالِمًا إِلَيْهَا.

رَبِحْتَ الْكَثِيرَ. لَا شَيْءَ يَعْمرُ مَكَانَ النَّاجِي. الْفَجْوَةُ كَبِيرَةٌ، تَدْخُلُ الرِّيحُ عِبْرَهَا فَتُخْلِجُ كُلَّ شَيْءٍ. النَّاجِيُ وَحْدَهُ يَهْبِهُمَا الْإِحْسَاسُ بِالْأَمَانِ وَيَشْعَلُ أَنْوَتَهَا.

«بَكَرَ صَارَ رَجُلًا يَعْتمِدُ عَلَيْهِ»، تَقُولُ فِي نَفْسِهَا وَهِيَ تَنْسُجُ الْكَنْزَاتِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. تَتَمَلَّى قِسْمَاتِ وَجْهِ الْأَوْلَادِ. فِي وَجْهِ كُلِّ وَاحِدٍ تَرَى النَّاجِيَّ. كَانُوا فِي الْوَاقِعِ أَشْبَهَ بِأُمَّهُمْ مِنْ أَبِيهِمْ يَنْطِقُونَ بِجَمَالِ صَنْهَاجَةِ الْجَبَلِ الَّذِي وَرَثَتْهُ عَنْ أُمِّهَا؛ بِيَضَاءِ كَالجَبْنِ بَعِيُونَ وَاسِعَةٌ وَصَافِيَةٌ. بَكَرَ الْأَكْثَرَ شَبَهَا بِأَبِيهِ كَانَ الْأَعَزَّ.

انْقَضَى شَهْرٌ كَامِلٌ. تَغَيَّرَتْ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ وَبَاتَتْ أُمُّ الْغَيْثِ أَحَدًا لِسَانًا. أَزَعَجَتْهَا الْمَعْرَازَاتُ وَقَنَّ الدَّجَاجُ. مَعَ ذَلِكَ تَقَدَّرَ جَارَتُهَا وَتَجَلَّهَا. أُمُّ الْغَيْثِ تَعْطِيهَا بَقِيَّةَ إِحْسَاسِ بِالْأَمَانِ.

صَلَّتْ فِي الْجَامِعِ. نَذَرَتْ الْمَعْرَازَاتِ الثَّلَاثَ لِلْفُقَرَاءِ إِنْ حَنَّ اللَّهُ عَلَيْهَا وَأَرْجَعُ لَهَا زَوْجَهَا سَالِمًا. وَوَعَدَتْ أَنْ تَهَبَ طَلِبَةَ الْعِلْمِ الدَّجَاجَ كُلَّهُ بِالْبَيْضِ. تَرِيدُ زَوْجَهَا فَقَطْ، أَبَ الْأَوْلَادِ لَا غَيْرَ. الْبَقِيَّةُ لَيْسَتْ مَهْمَةً. اللَّهُ وَحْدَهُ يَرْزُقُ الْعِبَادَ.

- اشْتَقْتِ لَزَوْجِكَ؟

سَأَلْتُهَا أُمُّ الْغَيْثِ. حَمَلَتْ وَصَلَةَ الْخَبْزِ وَقَدْ طَرَقَ صَبِيَّ الْفَرَّانِ الْبَابَ وَهَرُولَ. وَضَعْتَ الْخَبْزَ عَلَى طَاوِلَةٍ صَغِيرَةٍ وَلَفَّتَهُ فِي مَنْدِيلٍ أبيض. لَمْ تَجِبْ. لَمَعَتْ عَيْنَاهَا وَعَانَقَتْ أُمُّ الْغَيْثِ.

- لَا يَا غَيْثَةَ، لَا يَا بِنْتِي، حَرَامٌ عَلَيْكَ، شَوِيَّةٌ صَبِرَ وَغَدَا يَفْرَجُهَا رَبُّ الْعِبَادِ.

بكت بصوت عالٍ. طبطبت على ظهرها.

- لا قنوط من رحمة الله، يرجع إلى داره وتفرحين به. إنّما شويّة صبر الله يرضى عليك.

سمعتها محمد العيّاظ من نافذة الشّرفة تبكي. حزن لحزنها فخرج إلى السّوق، اشترى كسوة جديدة للأولاد والكثير من الحلوى.

أراد أن يملأ الفراغ. ما كانت في حاجة لغير النّاجي .

دخل يجرّ البغل بنفسه إلى الفناء. نادى على الأطفال كما يفعل أب عاد بعد غياب، وزّع عليهم الملابس والحلوى ثمّ أنزل مؤونة تكفي أيّاماً.

- تعالي يا بنتي، تعالي يا غيثة، ما نسيتك.

جاءت تجرّ قدميها. أخرج من جيبه دملج الذهب الذي باعت كي تشتري المعزات. قال يتحاشى النّظر إلى عينيها:

- لمّا يعود النّاجي بخير، إن شاء العلي، يدفع ثمنها.

خرج العيّاظ يجرّ البغل، تبعته أمّ الغيث بعد ساعة زمن، سقط اللّيل، تراكم فوق أسطح البيوت وتكوّر ثقيلًا، وتكدّس الصّمّت في الأفاق وفي صدرها. نام الأطفال. ملأت الهدايا عالمهم الصّغير صخبًا فتوسّدوا مخدّاتهم يمسون بعطايا رجل وعدهم بهدايا رجل كريم. ناموا مكدودين. انطفأ ضوء الفانوس في غرفة جارتها التي ترقد إلى جانب زوجها. هي لم تستطع. جفاها النّوم. فكّرت في زوجها. تطلّعت إلى القمر. السّماء صافية، ساكنة، لكنّ قلبها غائم ومضطرب..

وحيدة في البهو، بين مهجع المعزات التي نامت منحشرة في بعضها البعض وقرن الدّجاج السّاكن، تسمّرت إلى أن أطلّ الفجر. قضت ساعات اللّيل تسبّح لله وتدعو لزوجها بالنّجاة. وزّعت نذورا كثيرة. المزيد من النذور. هلّل المؤذن فأطلّت أمّ الغيث من نافذتها.

- نامي يا حبيتي، نامي الله يرضى عليك.

ألقت رضيعها حلمة ثديها واستأنفت بكاءها الخافت. رأت البشير على فرسه يندفع بين الشّعاب وزوجها مربوط اليدين ينتظر من يفكّ قيده ويعيده إلى بيته. طفلها نظر إلى وجهها، قطّب، كاد يبكي. ابتسمت فارتخى وجهه وأغمض.

تثق في أخيها:

- سيعود به، أو يهلك دونه.

قالت تحدّث ابنها النَّائم. وكان موت أخيها خسارة مقبولة لقاء بصيص الأمل في نجاة زوجها. التفتت إلى نافذة جارتها. وضعت أم الغيث وجهها على كفّها تدعوها للنّوم. لم ترغب في رفع صوتها كي لا توظ الصّغير.

- أنام يا خيتي. أنام يا أم الغيث، لا تحملي همًّا.

لم تقفل أم الغيث نافذة بيتها، ظلت تنظر إلى غيثة إلى أن نامت تستند على الجدار وحلمة ثديها في فم طفلها. تألمت. مع آذان صلاة الفجر تضرّعت لله أن يفكّ كُرْبَةَ جارتها ويعيد إليها زوجها.

النّاجي

- 9 -

- القَطُّ جميلة يا ناجي، أليس كذلك؟ أنظر إلى هذا القَطِّ، عيناها لامعتان، ذكيتان، يملأهما الشَّغف بالحياة والرَّغبة في التَّزواج.

قال بيدرو ثمَّ مَسَدَ شعر القَطِّ الكَث الذي ماء وحرك ذيله الطَّويل بنزق. كان القَطُّ في نفس المكان، على الطَّرَف الأيسر، الفارغ، من المكتب. تابع:

- سأناديك منذ اليوم ب-: «الفاسي». تعرف لم؟ حكايته عن فاس راقنتني. رأيتُ في فاس راع كبير، يسمَحُ للخراف أن تسرح وتسمن، لا لشيء، إلا ليتمتَّع بموتٍ جماعيٍّ وعاصف. قطيعٌ يخلف قطيعاً وفاس كراعي موت تقف فوق قَمَّة الجبل لتحصد الموتى بعد الموتى.

أخذ نفساً عميقاً. ارتخى على الكرسيِّ الذي مال به إلى الخلف قليلاً. واصل:

- وهذا القَطُّ الذي أمامك، قَطُّ من مكناسة، هديَّة من تاجرٍ مكناسيِّ. وأهل مكناسة يكرهون أهل فاس منذ زمن لا يعلمه غير الشَّيطان. توافقتي الرّأي؟ سيدد قلبك الذِّ في عروقه تجري العداوة نفسها. أنظر إلى عينيهِ، إلى الرَّغبة في الافتراس. عيناها لا تفارقان صدرك.

عاد ليستوي في جلسته، فكَّر في التَّدخين. مع الغليون تحلو الكلمات وينشرخُ الصِّدر. مدَّ يده ليدخِّن. استدرك ينظر إلى عينيِّ النّاجي:

- لكنني أعدك، إذا بلغت نهاية الحكاية سالماً، أن أشقَّ صدره أمام عينيكَ وأضع قلبه بين يديكَ. سيكون هديتي إليك، كما هو الحال مع زهرة أقطفها من حديقة بيتي لامرأة تخطت لعبة السرير بنجاح باهر.

.....

رأيتُ أخي عبد الصِّمد ينطُّ كما عهدتُهُ حيًّا. اندهشتُ. لم يلتفتْ نحوي، تجاهلني. بدُّحولي إلى البهو نزل عبر الدَّرَج إلى القبو بقدمين حافيين. كان مثل فأر يلوذ إلى جحر. تقدَّمتُ فنتاهي إليَّ صوتٌ

بكائه المُتقطّع. سمعتُ عدنان يواسيه. لعلّ عدنان كان الأسعد بالموت، تخلّص من المرض الذي أقعده، ومن الجوع، دفعة واحدة. كانوا هناك، في القبو، حيث ذبحهم أبي. حفيظ وأيوب وعيسى وموحى كانوا يتحدّثون إلى بعضهم البعض. نبراتهم واضحة. اقتربتُ من باب البهو، أطللتُ. كان البهو قطعة من ظلام. رفعتُ صوتي:

- إخوتي.

خدمت أصواتهم دفعة واحدة. كنتُ أعرف أنّ أحدا لن يردّ. لقد ماتوا. هذه أرواحهم التي تسكن البيت وتسكنني، أو لعلّها تخيّلاتي وهواجسي.

رأيتُ الفانوس إلى جانب قبر أمي. كان الحصيّرُ لصقَ الشّاهدِ وبرّاد الشّاي في الصّينية والكأس المزخرف مقلوبا. لم يمت أبي ولا هرب كما توقّعتُ. حسبتهُ يلوذ بعيدا إلى بلاد ما وراء الجبل الكبير، ربّما يبلغ السّوس، ولعله يجتازها إلى الصّحراء الكبرى. ما استفاق الأب الرّاقد في داخله ولا ندم. ظلّ في البيت. شرب الشاي في البهو كما اعتاد. لم يكن على الحصيّر وسادة. اتكأ على قبر أمي ليكون أقرب إليها.

تسلّلتُ إلى المجاز وانتقلتُ بين الغرف. صعدتُ السّلم أخطو بحذر إلى الطّابق العلويّ. لم يكن أبي في البيت. شعرتُ بالرّاحة. خرج إلى شوارع فاس ولربّما قصد الشّعاب التي خارج الأسوار.

اعتاد أبي في زمن الجوع والعدوى، أن يذيع في الخلاوات. يبحث، في ضفاف الأودية ويطون الخطّارات، على جذور الأعشاب، يحرق الأرض التي لم يسبقه إليها غيره، ويعود إلينا. كُنّا نسمع هدير الرّحى تطحن بين فكّيها الصّخريين الجذور اليابسة وتحيلها إلى طحين. تتوقّف الجعجعة على صوت أمي:

- هذه تسم البدن وتقتل الرّجل البالغ.

يُجيبها بنفسٍ منقطّع:

- الجوع وحده ما يقتل يا نعيمة. الجوع هو العدو فاتركيني.

وكان صمت أمي جارحا، مثل كلامها. قسى قلبها منذ مسّنا الجوع. مع الأيام يبس عودها وغارت عينها وبرزت أسنانها. الجوع يغيّر كلّ شيء سيدي، يعجن وجه المدينة ويعيد رسم وجوه النّاس؛ يخرج من القلوب أسوأ ما فيها فيصير الرّجل المسالم وحشا والمرأة الطيّبة شيطانا.

هل جرّبتم الجوع في بلاد البرتغال؟ هل لحقكم الطّاعون سيدي؟ سمعنا أنّ الوباء ضرب بلاد النّصارى كما ضرب بلاد المسلمين، وقال الكثير منّا إنّه دخل إلينا من بلدانكم وتسأل عبّر الموائى إلى بلادنا. أبى كان يلقي باللائمة على اليهود الذين جاؤوا هاربين من بلاد الإسبان. أوّل من مات بالطّاعون كان في خيامهم التي حطّت على أبواب فاس، ثمّ دفعت الرّيح الهواء الفاسد إلى أهالي المدينة. أحرقت خيام اليهود ومات منهم خلق كبير، لكنّ الوباء استمرّ يحرق قلوب الرّجال والنّساء في مشارق الأرض ومغاربها.

لا أحد يبقى كما كان بعد الجائحة حضرة الضّابط. لما يرحل الطّاعون يحاول النّاس جاهدين أن ينسوه، ينزلون إلى الحقول ويعمّرون المحلات والأسواق ويجهّزون القوافل ويسيرونها نحو سجلماسة وبوداغوست وبلاد السّودان ويستقدمون المزيد من العبيد كي يبنوا منازل وقناطر ويرفعون أسوارا أعلى. يقاربون أحلامهم الأولى بحياة زاهية فيعود إليهم الوباء، تأتي طلائعه ريحا حارة يعقبها الصّمت الأوّل. يتسلّل الخوف ببطء فيبدأ الشكّ، يشرع النّاس في الدّخار الحنطة والزيت والتّمار المحقّفة، تمتلئ المساجد أكثر فأكثر، ثمّ تأتي أولى الأخبار عن رجال سقطوا هنا وهناك. تغلق أبواب المدن في وجه الأعراب وتدفع المزاليح في الأبواب فيكفّ النّاس عن زيارة النّاس. وبلا حول ولا قوّة يستسلم الخلق. يموتون فرادى وجماعات، تقفر الشّعاب وتخلو القرى وتخرب المدن ويرتفع صوت الموت الأسود وحيدا وقد صمتت المادّين وانحنت الأعناق. حينها يتأكّد للنّاس أجمعين أنّ الطّاعون ذو بأس شديد؛ لا مفرّ منه إلا إليه.

أتذكّر موسم القحط الأوّل، الرّيح التي عصفت، وذلك الغبار الدّقيق الذي يتسرّب إلى كلّ شيء فيعلق في الصّدر والذاكرة. في الدروب والسّاحات تشرع الكلاب في مدّ ألسنتها وتحني الدّواب أعناقها التي تبدو أكثر طولا. تنفق البهائم أولا ثمّ تشرع الأمراض في طرق الأبواب. لن يتلفظ أحد بكلمة ليصف الجثامين الأولى. مع المُنقلب الجوّي الرّهيب يضرب الطّاعون في الأمصار ويبطش في الخلق فتخلو البيوت وتعمر المقابر.

«لا تبكوا»، تقول الأمّهات للأبناء، «حتّى لا ينتبه الطّاعون إلينا فيقرع بابنا». لكنّ الطّاعون لا يابّه بوصايا الأمّهات ولا يهتمّ لخوف الأطفال. سيقرّع الباب تلو الباب، ينتقي ما طاب له، يوقر ما شاء، ويقفر إلى بيوت أخرى.

يذهب أبى بحثا عن الجذور فأصعد إلى السّطح. أجلس تحت الشّمس إلى المغيب. كلا سيدي، لا تغرب الشّمس في زمن الوباء، بل تغرب المدن. أرى فاس من سطح بيتنا موسومة بالخيانة والعار في هروبها المحموم من غمّ إلى غمّ.

قتل جوّنا أمّي فذبنا أبى انتقاما لها منّا.

تُثَقِّلُ عَلَيْهِ، تَحْمَلُهُ مَا لَا يَحْتَمِلُ. يَدَافِعُ عَنِ نَفْسِهِ:

- مَا فَعَلْتُ إِلَّا الْخَيْرَ يَا نَعِيمَةَ.

- وَهَلْ لَقَيْتَ الْخَيْرَ مِمَّنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِمْ يَا إِبْرَاهِيمَ؟

- كُلَّ الْخَيْرِ عِنْدَ رَبِّ الْعِبَادِ.

تَعِيدُهُ إِلَى الصَّوَابِ فَيُصِيبُهُ السَّعَارُ. تَقُولُ لَهُ:

- أَعْطَيْتَ حَنْطَنَاتِنَا لِلْغَرِيبِ وَتَطْعَمْنَا السَّمَّ.

تَذْبَحُهُ، يَهِيِجُ فَيُخْرِجُ وَلَا يَعُودُ حَتَّى الْفَجْرِ. يَرْجِعُ مِنْهَا وَبَائِسًا، يَقْعُدُ فِي عَتَبَةِ الْبَيْتِ، يَنَامُ وَظَهْرُهُ إِلَى الْجِدَارِ. تَرَقُّ أُمِّي لِحَالِهِ فَتَدْعُوهُ إِلَى الدَّخُولِ.

- أَسْتَحِقُّ يَا نَعِيمَةَ. أَنَا مِنْ أَطْعَمَ الْبَعِيدَ وَجَوَّعَ الْقَرِيبَ، أَنَا الْمَذْنُوبُ أَنَا..

تَسْكَبُهُ إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ، يَجْرُ قَدَمِيهِ، نَرَاهُ كَطِفْلِ وَقَدْ فَجَّ هَيْبَةَ الْأَبِ، يَحْنِي رَأْسَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَتَأْخُذُهُ مَذْلُولًا إِلَى غُرْفَتِهَا.

الذُّلُّ لَا يَدْفَعُ الْجُوعَ عَنِ الْعِبَادِ، بَلْ يَسْتَدْعِي الْمَزِيدَ مِنَ الْأَلَامِ حَضْرَةَ الضَّابِطِ، وَيَجْعَلُ اللَّيْلَ أَحْلَكَ وَأَطْوَلَ.

يَأْتِينَا صَوْتُهَا:

- نَمْ يَا إِبْرَاهِيمَ، ارْتَحِ.

- كَيْفَ أَنَامُ وَأَوْلَادِي جِيَاعٌ؟

أَحْسَنُ أَبِي لِلْجَمِيعِ، لَمَّا انْتَبَهَ مَتَأَخَّرًا أَنْ مَوْوَنْتَهُ مِنَ الْحَنْطَةِ وَالْفَوَاكِهِ الْمَجْفُفَةِ وَزَيْتِ الزَّيْتُونِ تَوَشَّكَ عَلَى النَّفَادِ دُونَ أَنْ يَنْتَهِيَ فَصَلَ الْقَحْطَ الطَّوِيلَ، كَانَ قَدْ وَقَعَ فِي الْفَحْخِ. أَدَارُوا لَهُ ظَهْرَهُمْ. غَدَرُوا بِهِ فَجُعْنَا أَكْثَرَ مِمَّا جَاعَ أَوْلَادَهُمْ.

بَدَلَ أَنْ تَلِينُ السَّمَاءَ زَادَتْ قَسْوَةً. خَلَّتِ الْبُؤَادِي مِنَ النَّاسِ حَتَّى قِيلَ إِنَّ أَرْضَ الْمَغَارِبِ أَرْضٌ بَلَا أَهْلًا، أَكَلَ مُحَابِيِسُ السَّجُونِ بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَانْتَهَكَ الْأَحْيَاءَ حَرَمَةَ الْمَوْتَى فَنَبَشُوا الْقُبُورَ. أَبِي أَكَلَهُ

النَّدْمُ ولسانُ أمِّي التي لزمّت الفراش. سقطت، لكنّ لسانها استمرّ واقفا؛ يصليّ أبي كلّما دفعنا
الجوعُ أكثر إلى عتبات الهلاك.

وماتت أمِّي سيدي، ماتت نعيمة فتغيّر العالم إلى الأبد.

ثمّ نزلتُ إلى الغرفة التي تطلّ على البهو. مع رائحة أمِّي زال الإحساسُ بالخوف. شعرتُ برُوجها
تحلّق حولي وتناهي إليّ صوتُها الشّجيّ. سال ضوءُ القمر وتدقّق عبر النّافذة كالحليب على
الفراش. نمتُ. كان نومًا عميقًا أشبه بليالي الصّيف ذات الحصاد الوفير. حلمتُ بإخوتي يلعبون في
الدّرب مع أبناء الجيران، بأُمِّي تحرك طنجرة الحريرة فوق الكانون وبالقطة تتبع أبي في طريق
عودته إلى البيت. رأيتُ العربة تأتي بالحنطة لتملأ القبو. نسيثُ جوعنا والقحط، كأنّه لم يكن.

نهضت بعد ساعات على وقع جلبة في البهو. من النّافذة رأيتُ أبي يقفُ وتحت قدميه طفلٌ يخورُ
كخروفٍ. في السّماء كانت الرّيح تطاردُ السّحب كتحالب تتعقّب قطيعا من النّعاج، وكان ضوء
القمر ساطعا يشعّ بين الفجوات الهاربة فيكشف كلّ شيء. رأيتُ الدّم يسيلُ بين صخور البهو في
طريقه ليملاً ما تبقى من فراغات.

قمرٌ أعمى سيدي، قمرٌ يرى ولا يبصر.

أغلقتُ فمي كي لا أصرخ. تركّل الصّبيّ ثمّ استسلم للموت. انحنى إبراهيم ليفصل الرّأس عن بقية
الجسد فأغمضتُ عينيّ، فسبحان الله الذي يجعل الطيّب الكريم ظالما، مذموم السّيرة، قبيح الذّكر
والصّفات، والطّاعي لطيفا محبوبا، بيده الأمر كلّهُ، إليه المصير وهو على كلّ شيء قديرٌ.

البشير

- 10 -

تَرَكَ البَشِيرُ الفَرَسَ فِي عَهْدَةِ السَّنَائِسِ وَاسْتَدَارَ. كَانَ مَهْمُومًا وَمَكْتَنَبًا. «الْعُودَةُ إِلَى الْحَصَنِ سَفَرٌ عَسِيرٌ وَلَا طَائِلٌ؛ زَرْعٌ وَلَا حِصَادٌ»، فَكَّرَ. كَيْفَ لَهُ أَنْ يُفَاوِضَ عَلَى تَحْرِيرِ أُسَيْرٍ دُونَ أَنْ يَمْلِكَ الْمَالَ وَالنَّفُوزَ؟ لَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ الْبِرْتِغَالِيُّونَ وَلَعَلَّهُمْ يَأْخُذُونَهُ أُسِيرًا أَوْ يَرْمُونَهُ بِالرَّصَاصِ كَمَا فَعَلُوا مَعَ غَيْرِهِ. مُكْرَهَا عَلَى السَّفَرِ سَيَمْتِطِي صَهْوَةً فَرَسِهِ وَيَقْصِدُ السَّاحِلَ الْبَعِيدَ.

اسْتَلَمَ السَّنَائِسُ الْفَرَسَ، مَسَدَ عُنُقِهَا الطَّوِيلِ. يَعْرِفُ مِنْ حَيَاةِ الْبَادِيَةِ الَّتِي عَاشَ بَيْنَ قَبِيلَتَيْ الْحَيَايِنَةِ وَالْبِرَانِسِ الْخِيُولِ الْأَصِيلَةَ. كَانَ ابْنُ الشَّعَابِ وَلُقِّبَ فِي شَبَابِهِ بِمَرُوضِ الْخِيُولِ. سَأَلَ الْبَدَوِيَّ الرَّجُلَ الْمَشْغُولَ الْبَالِ عِنْدَمَا اسْتَدَارَ يَهُمُّ بِالْإِنْصِرَافِ:

- سَيِّدِي، أَنْظَفُ الْفَرَسَ أَمْ أَتْرَكُهَا؟

- أَتْرَكُهَا.

- وَالسَّرَجُ؟

- مِثْلَ جِرَاءِ تَلْهَثُونَ خَلْفَ الْبَقَايَا.

وَاصِلَ الْبَشِيرُ خَطَاهُ يَنْحَدِرُ مَعَ الشَّارِعِ. يَبْغِضُ تَوْحُشَ الْبَدْوِ، كَانُوا مِنْ غَدْرٍ بِأَهْلِ آسْفِي. بَاعُوا الْمَدِينَةَ وَوَالُوا الْغَزَاةَ. اسْتَمَرَ يَنْحَدِرُ مَعَ الشَّارِعِ الطَّوِيلِ. كَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ وَالدُّورُ قَدْ اِمْتَصَّتْ ظِلَالَهَا. فِي الْأَفْقِ ظَهَرَتْ الْجِبَالُ أَشَدَّ وُضُوحًا تَزْدَانُ بَزُرْقَةَ الصَّيْفِ وَمَزَاجَ الرَّبِيعِ.

«مِثْلَ جِرَاءِ»، رَدَّدَ السَّنَائِسُ بِجَفْدٍ. جَرَّ الْفَرَسَ إِلَى الْإِسْطَبِلِ. كَانَتْ الْفَرَسِ السَّابِعَ وَالْعَشْرِينَ. رَمَى لَهَا حَزْمَةَ تَبْنٍ. تَذَكَّرَ أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَأْذَنَ لَهُ بِإِطْعَامِهَا. هَرُولٌ إِلَى الْبَابِ لَمْ يَدْرِكْهُ. كَانَ قَدْ اخْتَفَى. تَأَسَّفَ، لَعَلَّهُ يَخْسِرُ ثَمَنَ حَزْمَةِ التَّبْنِ. أَمَالَ الشَّائِشِيَّةَ فَغَطَّتْ نِصْفَ وَجْهِهِ وَاسْتَلْقَى عَلَى طَرَفِ بَابِ الْإِسْطَبِلِ يَنْتَظِرُ دَوَابَّ أُخْرَى. سَيَحْلُمُ، كَكَلِّ مَرَّةً، بِعَيْشَةِ الْبَادِيَةِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا مَطْرُودًا؛ بَيْتٌ كَبِيرٌ تَدْخُلُهُ الشَّمْسُ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ وَأَرْبَعُ زَوَاجَاتٍ تَفْرَحْنَ لَهُ صَبِيانًا وَصَبَايَا، وَقَطِيعٌ أَوْلُهُ رَأْسَ الْجَبَلِ الَّذِي يُطِلُّ عَلَى الْبَيْتِ وَآخِرَهُ الْوَادِي.

«فاس وُجِدَتْ منذ الأزل»، فكّر البشير في صباه. «ومنها تناسلت المُدُن ونشأ العمران في بقية الأرض. مثل حواء، فاس هي الأم».

- بل أسسها المولى إدريس الأصغر لتكون عاصمة حكمه وسلطانه.

قال له أحد فقهاء جامع القرويين يقدّم له حقائق عن تاريخ المدينة. ردّ الصّبي الغاضب يشكك في ما حُكي له:

- ولم تُقَبَّ بالأصغر وقد أسس مدينة عظيمة كفاس؟ أليست الألقاب من جنس الصّفات؟

ضحك الفقيه وضجّ الطّلبة من حوله. حاول أن يشرّح له ببسر:

- مات أبوه في سنّ الشّباب مسموما على يد رجل من أعدائه الذين في المشرق فترك ابنه جنينا في رحم زوجته كنزة الأوربيّة. جعلوا للمولود نفس الاسم تيمّنا فكان لزاما أن يميّزوا بين الابن وأبيه، لُقّب الأب بعد موته بالأكبر والإبن بالأصغر.

- وفي أيّ عمُرٍ مات الابن سيدي؟

- بلغ الستين أو يزيد.

نهض الصّبيّ، أجاب بابتسامة ساخرة:

- وكيف يكون الأصغر وقد عمّر أكثر من أبيه وبنى الدّولة التي لم يفلح والده في بنائها. الصّواب أن يطلق عليه إدريس الثاني، لكنني لا أهتم بهذا ولا بذاك، ذلك أنّ فاس أقدم منهما معا وأسبق من مولدهما.

- لكلّ مدينة مؤسس يا بنيّ.

- إلا فاس، مثل حواء، لا أب لها ولا أمّ.

قام الفقيه عبد الله بن شقرون من مجلسه على خلاف عادته التي يحرص عليها، قبل رأس الصّبيّ، ثم شيعه بالعبرة التي لن ينسى:

- أنت وفيّ لفاس، لكنّها مدينة عاق؛ لا تردّ الوفاء بالوفاء.

رفض الرواية جملة. في البيت قال لأبيه إنّ فاس ما تصنع النَّاسَ، فتجعلهم على شاكلتها، وإلا لم لا يتكلّم أبناؤها كسائر ساكنة أهل المغرب وإفريقية. المدن ما تعجن النَّاسَ وتخبزهم ليكونوا منها وعلى شاكلتها.

لن يغادر البشيرُ المدينة إلا إذا زار السّاحات وتلمّس حجارة الشّوارع وشمّ رائحة أبواب الخشب ورطوبة الدّروب وتملّى وجوه الصّبايا. سيزورُ أحياء الدقاقين والنجارين والدباغين وفاس الجديد ويصعد إلى قمّة جبل «زلاغ» ليتأمّل المدينة من فوق. فاس على خلاف كلّ المدن، تحتويه فيصير جزءاً من طوبها. تطلّع إلى السّماء؛ «ثمّة شيء مختلف في سماء فاس، كأنّ تاريخها مكتوب في الأفاق، ما إن تمدّ نظرك حتّى تراه محفورا، تغيب السّحبُ ويبقى الأثر نقشا معلقا لا يغيب. ولها صوت راسخ لا يسمعه غير الرّاسخين في العشق».

«لم أنساك عشق فاس مدينة مولدك؟»، قال في نفسه، وكان الجواب هو نفسه، منذ أرسله والده إلى فاس صبيّاً ليدرس العلم في جامعة القرويين. «لأنّ فاس هي الأصل»، إنّها الجملة ذاتها التي آمن بها ورواها لكلّ النَّاس.

كانت مدينة الفرح حتى الجنون والحزن حتى الهذيان؛ مدينة بكلّ مدن الدّنيا. تأسر من يدخلها فترهنه لذاكرتها.

استهوته مدن كثيرة، أحبّ في مكناسة الزّيتون ماءها الحلو ورمّانها، وفي مرّاكش قصورها، وفي أسفي فخّارها البديع وبحرّها، وفي تادلة شجاعة أهلها، وفي تارودانت طيبة أهل سوس ونخوتهم.. وهام بأخرى بلغته أخبارها على السّن الرحالة وصفحات الكتب كغرناطة وتلمسان والإسكندرية وبغداد ودمشق والقدس. يطير، يحلق بعيداً، وكطائر مربوط إلى عشّ يعود إلى فاس.

مالت الشّمس إلى الجبل وسالت الظّلال كميّاه تندفقُ إلى السّهّل. شعر بالحنين والوحشة، بصدرة خاوية وذنه مشوّشا. غسل وجهه في مياه «السّقاية» وتوضّأ بلا نية في الصّلاة، عندما رفع رأسه ووجهه يقطر ماء تذكّر صديقا قديما.

زار أحمد السّبتي في بيت أسرته فألفاه، على غير ما اعتاد، مكدر المزاج. حوّل صينية الشّاي حكى له أحمد عن جيش الأشراف الذي يتربّص بالمريني ليقطع رأسه. المريني لا يعني للبشير شيئا؛ حاكم من بين آخرين. ارتشف الشّاي. قال لصاحبه:

- كلّ السلاطين يشبهون بعضهم بعضاً يا أحمد. الدّرعي كغيره، تدفع الرّيحُ سلطانا وتأتي بغيره، وهم على هذا الحال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- ولا يعني لي يا بشير. تعرفني، لا صلة لي بأصحاب البلاط ولا أهوى مجالسهم.

- ولم تهتمّ لما قد يحلّ بالمريني؟ سلطان يأكل سلطانا كالنار تلتهم نفسها.

- ستحرق النيران الجميع يا بشير. لا بدّ أن ينكّل جيش الأشراف بفاس وبأهلها وقد رفضت الناس الدّخول تحت طاعة محمد الشّيح.

- العامّة على هوى الخاصّة يا صاحبي، ما إن يطلّ محمد الشّيح السّعدي عليهم حتّى ينحنوا له صاغرين فيصيروا رعاياه وخدامه الأوفياء وحملّة لوائه. السّعدي يريد الحكم لا رقاب أهل فاس فلا تجزع ودعك في حالك. تجارة والدك تكفيك العمر كلّه.

- لا والله يا بشير، بل عاند أهل فاس ومكناسة وما تساهل علماءها. كتب محمد السّعدي إلى سيدي حرزوز بمكناسة يهدّده فأجاب بالرّفض وقال إنه لا ينكث ببيعة المريني ما دام حيّا في الوجود، أمّا سيدي عبد الواحد الونشريسي فجاءه كتاب محمد الشّيح يقول له فيه: «إن دخلتُها طوعا ملأتها عدلا وإن دخلتها كرها ملأتها قتلا»، فردّ عليه شعرا:

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا

ولا خصك المولى بفضل ولا أولى

ليست المرّة الأولى يا أحمد؛ عام يأتي فيه الطّاعون و عام يتقاتل فيه السّلاطين. اتركنا من سيرة الحكّام فلا أمان لهم ولا خير فيهم.

نهض أحمد، رمى الجلباب على كتف، سار البشير يتبعه. في الشّارع كانت المحلات مقفلة وحركة النّاس قليلة. المارّون القلائل مضوا مسرعين. استغرب البشير كيف لم ينتبه لما حلّ بفاس في غيابه. اكتشف دفعة واحدة وحشة المدينة والجفاء الطّاعي ومقدار الخوف الذي في عيون النّاس. انعدمت رائحة الأطعمة التي تفوح من مطابخ نساء فاس الحدقات وغابت الإشراقة التي تطبع الوجوه.

مدينة تستعدّ للحرب.

- بلغ القمح أوقية ثقيلة غربية، وفي المحلة أربعة دراهم للمدّ الواحد. غلت الأقوات وتمّت الدّخائر وشحّ الهري. جاعت الخلق، لكنّها، على نصيحة العلماء، أبقت على ولائها للبلاط ولم تنمرد.

فكر البشير أنّ غيئة محظوظة بمعزاتها وبيض قنّ الدّجاج وعطف

أمّ الغيث التي تملأ فراغ الأهل والأحباب. لولا جيرانها لكان حالها أصعب. التفت إلى صاحبه:

- جاعوا لكنّ الفوضى لم تعمّ. هذه نعمة يا أحمد.

- يُغِيرُ رجال الأشراف ليلاً على المحلّة فيسرفُونَ وينهبون، يضربون الأعناق التي لحقت سيوفهم ثمّ يعودون مدبرين إلى مخابئهم.. ويخرج رجال المريني من الأبواب خلسة فيقتلون الأشراف حيث تقفهم، لكنّهم لا يعودون إلى فاس. سمعت أنّ النّاجين من سيوف السّعديين وبنادقهم يقصدون أبا حسّون في جبال الرّيف إعداداً لمعركة أكبر من معركة فاس.

- لا شيء يعادل سقوط فاس يا صاحبي. إذا ضاعت العاصمة من بين يديّ المريني ذهبت ريح المرينيين بلا رجعة.

- ضاع حكم بني مرين منذ سقطت مرّاكش في يد السّعديين وأصبحت لهم في أرض المغرب شوكة وعصبية يستندون عليها.

هشّ البشير على الهوام. سأل صاحبه:

- متى يدخلون فاس؟

- لا يسرّ الله لهم فتحها ولا مكّنهم من رقاب أهلها يا بشير، فلا خير في دخولهم ولا منفعة ترجى من ورائهم.

« نذهب إلى الرّحبة ونأنس بنساء الفندق»، فكّر البشير. مرّ وقت طويل لم يضاجع فيه امرأة. سيسعد أكثر إذا حالفه الحظّ ولقي سارة. أحبّ هذه المرأة وإن كانت تكبره بعقد كامل، تحسّن الغناء والفراش فتعيد الخصب إلى الأرض اليباب.

في الدّرب المفضي إلى جامع القرويين اقترح عليه صاحبه أن يحضر حلقة من حلقات الفقيه عبد الواحد الونشريسي. قال له:

- لا بدّ أنّك اشتقت لدروسه وحكمه، وجزالة لغته.

- ومن يزايد في ذلك يا أحمد، ليس في إفريقيا كلّها من هو في فطنته وعلمه.

انخرط في صفّ الطلبة الدّاخلين إلى حلقة الدّرس. رغم الحصار والجوع لم يكفّ الطلبة عن دروس عبد الواحد الونشريسي. كان الرّجل جالساً في منبره تحيطه الهالة نفسها ووقار العظمة

والعلم ونور الصادق الأمين.

حضرا الدرس كاملا ثم صارا إلى فندق «لالة عشيثة» وتناولوا عشاءهما هناك. دار بينهما كلام كثير فهم منه البشير أن أحمد لا يوالي المريني بل يكره محمد الشيخ لأنه لم يُوف بعهد له. خانه بعدما كان صاحب أفضل عليه في طرد البرتغاليين من «سانطاكروز» في ناحية السوس. قال له يلوك لقمة الخبز في فمه:

- مدّه بالعدّة والخيل والألوية والطبول فانقلب عليه بها يطرده من مراكش ثم تبعه إلى فاس يطمع في حكم البلاد كاملة بعدما توافقا على التقسيم وتعاهدا على الأمان.

ليلا كان له ما يريد، جلس إلى سارة فأكرمته. حكى لها عن مشاق سفره الأخير فسقته الخمرتين. فجرا اغتسل، توضأ، وصلى. أعدت له سارة الفطور. بدا لها ككل الرجال الذين عرفت؛ يشرب ويصلي، يتصدق وينكح ما طاب له من النساء، يكرم الضيف ويسرق، ويقتل إذا تهدده الخطر. عبّر نافذة الغرفة، من إحدى غرف فندق «لالة عشيثة»، بينما كان البشير يتلو الآيات بصوت رخيم، وقفت سارة تتطلع لأولى خيوط الشمس تسقي هامات الجبال.

«الآن يدخل الموالون لمحمد الشيخ إلى فاس»، قالت في نفسها. أقفلت النافذة وأخذت كأس شاي من الطاولة. أردفت بصوت مسموع:

- وتتدفق الدماء في الدروب تدفق الماء في المجاري.

سحبت رشفة وأعدت الكأس إلى الطاولة ثم تمددت على بطنها. استعادت في بضعة لحظات الطفلة التي كانت تحمل دلاء الماء من البئر لتسقي شتلاتها في مدخل البيت. عشقت الزهور وتربية الحمام وما كانت تحسب أن عربة الحياة تتوقف بها يوما في غرفة من غرف فندق لالة عشيثة الخلفية الرخيصة. شعرت بالبشير يُعري ظهرها. التفتت إليه دون أن تحرك جذعها:

- صليت؟

لم يجب. أولج قضيبيه فيها. لن تتأوه. فقدت الإحساس منذ سنين بعيدة. كل الرجال الذين يحفرون فرجها ويوسعون دبرها يرحلون ولا يخلّفون في ذاكرتها شيئا يذكر. أغمضت عينيها، تابعت الطفلة وهي تسقي الشتلات وتركت له أن يصعد وينزل إلى أن يرضى.

بيدرو

- 11 -

كُلَّ بيوت الحصن تتشابه، إلا بيت واحد. بيت بيدرو على خلاف كُلِّ البيوت. ولعلّه يشبه صاحبه الذي لا يشبه كُلَّ الرّجال.

انتهى الضّابط من ريّ أشجار النّخيل الباسقة وتشذيب الأزهار التي انتقاها بعناية وحسّ لتزيين حديقة البيت الهاجع على طرف المحيط. سعيدٌ بما حقّق. تأمّل الفراغات القليلة الباقية يفكّر في توليفة جديدة من النبات لتلائم المنظر العامّ. يريد لأيّ لمسةٍ أن تجعل الحديقة أبهى. ما جاء الرّجل من البرتغال إلى سواحل إفريقيا عبثاً. سيصنع الحياة التي يريد مراعيها أدقّ التفاصيل التي حلّم بها في بؤس ضواحي لشبونة. تأسرُهُ الألوان الحمراء الزّاهية كالدم وهي تخوضُ بين الأصفر التّبنّي والأخضر الغامق، تستدعي في تجانسها وتنافرها معاني الحياة؛ صراع القويّ والضعيف، الغنيّ والفقير، والموت والحياة.

لا يسمح بيدرو لأيّ أحد بدخول بيته.

عدى صوفي.

صوفي مثل زهرة نادرة تضيف معانٍ كثيرة للبيت، تُلَوّن الصّباح بالأبيض واللّيل بالأحمر، حارقة على السّرير، وهادئة على مائدة الطّعام؛ تواتي اللّذة والألم.

يشرب بيدرو الشّاي كلّ صباح تحت شجرة اللّيمون التي تطلُّ على بيوت الحصن شرقاً. مساءً يجلس بين النّخيل في الجهة الغربيّة للبيت، حيث يقصر الجدار، وتتجلّى فتنة المحيط. مثل زهرة عبّاد الشمس يولي حيث الشمس. ليلاً يتدفّق هدير الموج فيغسله من الداخل. يتجدّد مع وقع الموج المتلاطم فينبعث من جديد.

لن يشعل القناديل. يأتي صوت صوفي في الرّمن المحدّد. تطلُّ عليه من النّافذة العالية بصدرها نصف العاري. تناديه:

- بيدرو، اصعد لتقصّ عليّ حكايات أسراك.

عندما يولي شطر المحيط يشعر بالتفرد، كأنه البيت الوحيد الذي يقابل البحر، كأنه الرجل الوحيد الذي تجاسر على شواطئ إفريقيا ليؤمن طريق التوابل والتبّر والعبيد للبرتغاليين.

يستدير نحوها. يغمره إحساس بالسعادة. يتأمل وجهها الجميل.

- صوفي.

- نعم يا بيدرو.

- أنا أعشقتك.

تضحك.

- أعرف حضرة الضابط.

- ولعلي أقتلك يوماً.

تمدّ بصرها في مياه المحيط، أروبا تقبع خلف البحر والظلام، كذلك ماضيها. لم تأت لتموت على يد رجل مهووس. يدفع الريح شعرها الكثيف، تعقسه بحركات رشيقة فيبرز نهداها العامران أكثر. يضيف:

- أنت جميلة بحق.

- أنا كذلك.

- ولعلّ الجمال يواتي الموت أكثر ممّا يناسب الحياة.

تضحك. ضحكات الرائقة تصير إلى فرح في صدره. تجيب:

- لدى ضابط يعشق الدّم.

- تخافين منّي؟

تلتصق بحاقّة النَّافذة وتميل بنصفها إلى الحديقة. تغيب الضحكة عنها ويحضر الوجه الساخر،
المستفزّ لامرأة انتصرت على نفسها منذ سنوات.

- هل أخاف فارسا مزيفًا؟ تمزح يا بيدرو.

يكرّر مستعذبا وجهها الجميل.

- فارسٌ مزيف.

تستعيد الوجه الضاحك:

- دون كيشوت.

كره بيدرو دون كيشوت وسيرة سيرفانطس. طالما وجد في بطله صورة عنه. كلاهما يبغض
العرب ويعيشُ فروسية مزيفة. يحمل معه الإحساس نفسه وهو راجع إلى البيت وقد أجاز عبور
الكثير من الرجال إلى كتيبة الإعدام.

تواصل لعبتها:

- لا يُصنَع المجدُّ على حساب الأسرى حضرة الضابط، بل في ساحات الحرب. اترك الكرسيّ
والمكتب، ترجّل من برجك، واقصد السّاحات التي خلف الأسوار.

عشقها رغم لسانها اللاذع. لم يجد أجمل منها. صوفي جسورة. لا تنهيب الرّأس المقطوع الذي
يزيّن به حفلات الحبّ. وَجْهُ المرأة المشدوه، الذي لا زال محتفظًا بالدّهشة والرّعب، أثار إعجابها.
مدّت يدها، يوم رأته في غرفة النّوم، تداعب الشّعْر الطّويل المخضّب بالبياض. علّقت:

- امرأة جميلة رغم الألم المحفور والرّعب وقسوة الموت.

ردّ عليها:

- كلا يا صوفي، ليس الموت قاسيا كما تتخيّلين. الموت مرن وعذب، يجعل
الرّجال والنّساء أسطوريين وخالدين؛ أقرب إلى آلهة.

اعترفت:

- جميل، ومدّهِش.

انحنّت تدقق في ملامح الوجه، ثمّ عادت لتنتظر إليه.

- بينكما شبه كبير يا بيدرو. شبه لا تخطئه العين.

استأنست صوفي بضابط كتيبة الإعدام بعدما جرّبت مئات الرّجال. تجرّأت على دخول بيوت الأعراب في المداشر التي في الجبال. منحّتهم جسدها تحت أشجار الزّيتون وفي الشّعاب وتحت أسقف البيوت المهجورة والإسطبلات. نجت من السّبي ذات مرّة فكفّت. انقلبت للبحث داخل الحصن عن المزيد من المغامرات التي تهيل بها المزيد من التّراب على ذكرى صوفي، القرويّة السّاذجة، ابنة ماريّا المسيحيّة الطّيبة والحالمة بزواج كاتوليكيّ يباركه الرّب. كان بيدرو الرّجل الذي بحثت عنه طويلا. ضاجعها في لقائهما الأوّل نهارا. بلغتها كلماته وسط الرّيح وصدى انكسار الموج على الشّطّ وصخب النّوارس. لامس لذّته القصوى فصرخ: «إلى الجحيم».

- فارس مزيف، لكنّه قادرٌ على القتل. ما أبهى أعناق الحسنات جميلتي.

قال في لعبة التّحدّي. صققت كما تفعل مشجّعةٌ من على أدراج مسرح.

- ممتاز، أحسنت.

أشعل الفوانيس المعلّقة على جذوع النّخيل فلاحت تشكيلات الرّهور النّاعسة بانتظار زفرات الفجر الأولى. غاب السّعف الغارق في الظّلام فبدت الأشجار رجالا واقفين مقطوعي الرّؤوس. ولج إلى البيت، مضى عبر الفناء. الجدران مزينة بلوحات كبيرة تعرض فرسانا بيضا يصرعون أفارقة ببشرة داكنة. صعد السّلم. السجاد الفارسي الأحمر يمنح البيت المزيد من الألق. ينتهي السّلم بين أصيصين ضخمين من فخّار صنّاع أسفي.

- أهلا.

قالت صوفي تفق بين الأصيصين تمسك بكأس نبيذ. أطراف تنورتها الحمراء تتدلّى على السجاد فتبدو جزءا أصيلا من البيت.

- أهلا صوفي.

أخذ جرعة من كأسها، قبلها فسحبته إلى غرفة النّوم. شربا من نبيذ مغربي صنّعه يهوديات بارعات. في الكأس الثالث راودته أحلام قديمة؛ أن يكون قرصانا عظيما يجوب المحيطات وينشر

الرّعب والموت في أساطيل التّرك.

نهض القرصانُ وقد مالَ رأسُ صوفي إلى الخلف وبرز عنقها الطّويل ونهداها العامران، نزع ملابسه، رماها على السجاد، وسحب حبيبته إلى الفراش، قاوم الرّغبة الجارفة بالمقدار الذي يجعل من الحُبّ أمدح وأشهى. عرّاه فشعّ جسدها الحليبيّ. ركّبها فلاحت اللّداتُ من بعيد كغيوم تزحف في سماء لا تحدّها حدود.

- صوفي، سأقتلك يوماً.

- افعل الآن فارسي المزيف.

تابع الغيوم تزحفُ كجيش غاز يدنو بثبات. رفع رأسه، نظر إلى رأس والدته المقطوع فغمره جنون الشّهوة، استعداد سريعاً تلك اللّيالي البعيدة التي أرغمَ فيها على متابعة أمّه تتأوّه من فرط اللدّة في سرير نومها.

نظر إلى عينيّ أمه المنطفنتين، هاج كثور ثمّ فاض. انطرح إلى جانب حبيبته يلهث:

- إلى الجحيم يا أمّي.

- إلى الجحيم.

ردّت صوفي وقد نالت مبتغاها.

غَيْثَة

- 12 -

قرعتُ أمَّ الغَيْثِ البابَ، دفعتِ الدَّفْعَةَ التي أطلقتِ صريرا مكتوما، ودخلتِ تحملُ فُفَّةً نفيضُ
بالمؤونة. كانتِ غَيْثَةٌ قد استيقظتِ للتَّوَّ. نامتِ بعد الظَّهيرة ترتاحُ من أعباءِ اليومِ التي لا تنتهي. لم
يكن بابُ البيتِ مغلقا. أهملته مواربا في غمرة أشغالِ الطَّهي والتَّنظيفِ.

- أحوالِ فاس لا تُفرِّحُ يا خيتي، كيف تتركين بابك مواربا؟ شوية حيطة يا بنتي. ما عاد الوقت كما
كان ولا فاس التي عرفنا. زد على هذا، أولادك صغار يا عيني إذا خرج الواحد منهم من الباب
طار؛ ضاع بين الدُّروبِ.

شعرتُ غَيْثَةَ بالبرد، انحدرتِ الشَّمسُ بأثقالها ومالتِ الظَّلَالُ تمضي إلى الدَّكنة في جلالِ مساء
وقور. لفتتِ صدرها المكشوفَ بمنديلٍ تدلَّى على كتفها. كان نهداها البيضاوان مكتنزين بالحليب.
نظرتِ إليها أمَّ الغَيْثِ بأسى. تمنَّت لو كان لها أن تحمل جنينا في بطنها وتعيش تجربة الحمل
والنَّفاسِ والرِّضاعة. بدا شقاء الأولاد نعيما.

حرَّكتِ غَيْثَةَ رأسها الذي لا زال ثملا بخمرة القيلولة ثم أجابت بحروف ثقيلة:

- صرْتُ أنسى كثيرا.

- وتنسين الباب في وقت الفوضى يا بنتي؟

«كأن هذه الأسوار القصيرة تحمينا يا أم الغَيْثِ وقد سقطت من قبلها أسوار فاس بشموخها وجندها
ومدافعها؟ تهذين»، قالت في نفسها.

- أنسى نفسي يا أم الغَيْثِ.

- ردي بالك واقفلي بابك.

وضعتِ الجارَةَ القفَّة. كان وجهها محتقنا وبألها مشوشا. جاءت على خلاف عاداتها ترتدي القفطان
بلا حزام. فردتا الشَّبشب كانتا مختلفتين وشعرها مكشوف. نظرت غَيْثَةَ نحو القفَّة وقد تحرَّرت لسائها

قليلًا وخفّ من سطوة النَّعاسِ.

- لم يكن لها داع يا أمّ الغيث، الخير موجود والحمد لله.

- خذيها والزمي بيتك.

- خير يا أمّ الغيث؟

اقتربت منها، تحدثت إليها بصوت خفيض كي لا تصل كلماتها للأولاد.

- والى شيوخ القبائل الأشراف يا بنتي، تنصّلوا لبيعة المريني وانقلبوا عليه.

أخضت غيثة رأسها. كلّ هذا لا يعنيها.

- إذا سقط المريني أمنت فاس من القلاقل يا أمّ الغيث.

- لكنّه لم يسقط، ولا يريد التّخّي عن مملكته. لعلّ النّار تكبر فتأكل..

قاطعتها:

- الله الحافظ.

- لا تخرجي، اقلّي الباب على نفسك وأولادك يا حبيبتي.

- حاضر يا أمّ الغيث، يفعل الله الخير.

ثمّ عادت السيدة إلى بيتها. أفلت غيثة الباب خلفها وإستدارت. كان أبناءها واقفين يحدهم الفضول لاكتشاف فقة أمّ الغيث.

- عودوا إلى غرفتكم.

صرخت في وجوه أطفالها. ظلّوا متسمّرين في أماكنهم لحظات ثمّ استداروا تباعا، ببطء، نحو باب غرفتهم. بدوا محبطين في نهاية يوم رتيب. أشفقت على أطفالها وعلى نفسها. فاضت أحزانها دفعةً واحدة. مدّت يدها إلى شوال القمح، أخذت حفنة. في زاوية من زوايا القنّ، على سطل الماء

المقلوب، بينما كانت الدجاجات تتدافع لتلتقط الحبات، جلست تبكي غياب زوجها واشتياقها لأمها وخوفها من الآتي. رفعت رأسها. رأت أولادها الثلاثة واقفين أمامها يبكون في صمت. نهضت، دفعت السطل ففزعت الدجاجات. أمسكت واحدة من جناحيها. سألت أبناءها تكابر أوجاعها:

- ما رأيكم في «رفيسة» بالحلبة والبيض ولحم الدجاج؟

رفعوا وجوههم يتطلعون إليها. حاولوا بدورهم أن يبتسموا. أقلت باب القن وأسرجت الفانوس المعلق على الجدار.

ضوء الفانوس بارد، يتواطأ مع الصمت الذي جثم على صدر فاس وصار إلى وعيد. تحركت الريح ومالت الظلال كأشباح على الجدران،

رفعت صوتها:

- آتني بالسكين يا بكر.

التفتت، رأت أحمد ينبش في قفة أم الغيث. «لولاك لكانت حياتي أصعب»، فكرت. تناولت السكين من يد ابنها وسارت إلى المجرى، تثبتت الدجاجة تحت قدمها وتحسست عنقها. لا يهملها شرط الذكورة، ستذبحها وتطهوها كما فعلت من قبل مرّات. تحبّطت الدجاجة في دمها تضرب بجناحيها على الأرض ثم استكانت ببطء. مسحت غيثة دموعها بكمّها. لا تريد أن تبقى إلى آخر العمر حبيسة الأسوار بجناحين ناقصين.

«الطيور التي لا تفلح في التحليق يطالها السكين»، قالت في نفسها. رفعت الدجاجة من طرفيها فتدلّى رأسها يقطر. المعزات التي شمّت رائحة الدّم لبدت في أمكنتها. راح بكر يُعدُّ الكانون؛ تثبت الحجر ووضع الحطب وجّهز الفتيل، بينما قعد أخوه محمد على عتبة الغرفة يترقبُ وجبة «الرفيسة» بالحلبة والبيض ولحم الدجاج.

أكلوا أكثر ممّا اعتادوا. كان لاجتماعهم حول طاولة الطّعام الصّغيرة في صمت ليل فاس الثقيل معنى الصّمود.

- أبي يحبّ الرفيسة.

قال بكر.

- يحبّها يا بنيّ.

احتبس صوتُها. لم تبك. لا تريد أن تُبكي أبناءها مرّة أخرى. لكنّ الغصّة وقفت في حلقها. أكل أحمد ونام. الحليب الذي تجمع في ثدييها ألمها. مالت تسند ظهرها إلى الجدار. شعرت به يهتز. كان كلّ شيء من حولها يتحرّك. قاومت الإحساس بالغثيان. قالت تواسي نفسها:

- سيعود يا بكر، صدّقني، سيعود وننتشارك الطّاوله والطّعام والفرحة يا بنيّ.

معركة فاس

- 13 -

على مسافة أميال من أسوار فاس كان محمد الشَّيخ السَّعدي يجلس في كرسيه قلقاً. كاد يتخلى عن فاس وقد عاند أهلها ورفض علامتها الأبرز وشيخها الأجلَّ عبد الواحد الونشريسي أن ينكث بيعة المريني التي في عنقه. تسلَّل إليه الفتور عقب شهور الحصار الطويلة والقتال الذي لم يفض إلى نصر. صمد أهل فاس أطول ممَّا حسب. لم يتمردوا كما خطط وابتغى. بدا الرُّجوع إلى القواعد أسلم من البقاء على تخوم أسوار فاس بلا طائل.

- لنعد إلى مراكش.

ساد الصمت. ما كان يسيرا أن تذهب كلَّ الجهود أدراج الرِّيح. خسروا آلاف الرِّجال ومالا طائلاً. العودة هزيمة. لعلَّ المريني ينقلب عليهم فيطاردهم بعدما طاردوه. تجرَّأ القائد بوجمادة العمري ودعا محمد الشَّيخ وسط خدامه وأهل ديوانه إلى الثبات حتَّى يتحقَّق المراد الذي جاؤوا لأجله. قال له يعدُّه بالنصر:

- امنحني المال الكافي يا مولاي أضمن لكم دخول فاس.

يُقدِّر محمد الشَّيخ تمام التَّقدير أهميَّة فاس. لن تكتمل سلطنته على بلاد المغرب ما لم يكسر شوكة المرينيين ويحوز الحاضرة الأهمَّ ويضمن بيعة علماء جامع القرويين. بدت فاسُ أشهى، نجما منيرا يلمع في ظلمات البرِّ. ساءه ما خطب به العلامةُ عليَّ حرزوز أهل مكناسة. استعاد الكلمات التي رماه بها: «والله ما شرف ولا ساد ولا تبع طريق الرِّشاد»، وتطاوَل الونشريسي على مقامه. تطلَّع إلى الآتي. في ذهنه تراقصت أحلام مُلكٍ يُعيدُ أمجاد دولة المرابطين ويصلح كبة الموحِّدين وينسي هوان المرينيين ويدفع سطوة التُّرك ويقهرهم مثلما لم يفعل أحد من سلاطين العرب والمسلمين.

- أعطيك ما تطلب وأزيد.

أوعز العمريُّ إلى سيَّاب فاس أن يأتوا بالونشريسي أسيرًا أو يقتلوه إذا عاند. لن يعود في فاس صوت يُرفَع بعده ولا هامة تطول. قبضوا دراهمهم وأمروا خدمهم من عسس باب الفتوح أن

يفتحوا الباب للجيش السّدي قبل بزوغ الشّمس.

ليلاً تحرّكت الأهالي التي والت سلطان مرّاكش الطّامح إلى حكم فاس فنزل أهل زرهون إلى وادي الزّيتون وهدموا السّور الذي تخرج منه القواديس إلى الواد، وقصد أهل صفرو والبهايل السّور ناحيتهم وهدموا جزءاً من باب الحمراء، بينما هدم أهل يازغة سور سيدي الحاج أبي درهم.

تكالبوا على فاس من كلّ الجهات.

مثل سيّدة مصونة أخذت المدينة تتعرّى. في صدور الرّجال فارت لذّة من نوع خاص. كانت الأسوار لزمان طويل رمزا للسلطنة والجبروت والقهر. كانوا بذلك ينتقمون بحسّ غريزي من إحساس راسخ بالعجز. غرّزوا معاولهم في كائن حيّ. من القواديس سالت دماء فاس وتدققت عبر وادي الزّيتون تسقي الحقول والبساتين.

فاس هذا الصّباح أكثر حزناً، لدغتها الخيانة وجار عليها حماتها الأقدمون. دخل جيش السّديين، قوامه أهل السّوس والجرّاة وأهل مرّاكش، وطلعوا ينصرون محمّد السّدي ويهلّلون باسمه وسط البلاد.

سمعت غيثة وقع خطو رجال الحيّ وهم يركضون في الدّرب فزعين. كانت في القنّ ترمي الحبوب للدّجاج. انقبض قلبها. خافت على أبنائها من بطش الفاتحين وعلى نفسها من الصّعاليك فهرولت إلى غرفة الأولاد. كانوا نائمين. فكّرت أن تحبّتهم في المصريّة وتضع فوقهم البطانيات.

«كلا، اهدئي يا غيثة، هذان جيشان يتقاتلان. لا دخل لامرأة مهجورة وأبنائها في حرب بين سلطانيين، اقеди بين أولادك، أنظري إلى السّماء، وتوسلي».

قعدت بين أطفالها تُردّد اللّطيف، تصلّي وتتلو القرآن:

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربّنا ولا تُحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واعر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

هدأ القرآن من روعها فهجعت بين أولادها. ارتعبت أمّ الغيث هي الأخرى. عبّت لسانها ولم تفتح النّافذة لتطلّ على جارتها. أقسمت على زوجها أن يلزم البيت إلى أن تضع الحرب أوزارها. أذعن. خاف على سلعته التي في السّوق. خوفه على رقبته كان أعظم.

لا أحد من التجار تجرأ على الخروج. تركوا محلاتهم عرضة للنهب. من بوسعه الوقوف في وجه الغازي إذا عجز السلطان المريني نفسه أن يفعل. المصلون الذين تأخروا عقب صلاة الفجر وقد أخذهم الكلام إلى شؤون البلاد والعباد، رفعوا أطراف جلابيبهم وأطلقوا سيقانهم للريح. هرعوا إلى نسائهم ليحكوا لهنّ فصولاً جديدة من حكايات فاس. سيخنلقون ما لم يروا، يقول الواحد منهم لزوجته: «ولقيتُ الجنديّ ينحر الرّجل واقفا ثمّ يقطع رأسه ويرمي به الحشود، والصّبيان تطحنهم سنابك الخيل، والبارودُ يحرق الوجوه فلا يعود يظهر منها شيء».

مع الصّمت الذي سكن الدّروبَ والبيوتَ ارتفع اللّغط في السّاحات. خرج المريني مغبونا من فاس الجديد وهبط إلى القصبّة، التفتّ حوله أهل الطّالعة والمناصرين من كلّ صوب ثمّ أحاطوا بالجيش السّعدي ونكّلوا به.

غلبوا الغزاة. قتلوهم في وسط المدينة؛ ذبحوهم ذبح البعير.

تابع البشيرُ من فندق لالة عشيخة الاقتتال. رأى الفارسَ من فرسان المريني يرتمي بفرسه فوق جند جيش السّعديين فيشقّ صقّهم شقّاً، والواحدَ من المشاة ينحشر وسطهم ويُعملُ فيهم سيفه طعنا وتقطيعا. كانوا غاضبين، حانقين من شهور الحصار، راغبين في الانتقام. أعدت سارة شايا جديدا للبشير. اختلطت رائحة الدّم برائحة النّعناع. تقيّاً البشير. ضحكت سارة:

- معركة صغيرة يا بشير.

عاد إلى الأريكة. كانت المرأة صلبة كصارٍ لا تهزّها ريح. مدّت إليه كأس الشّاي. الشّاي أحمر كالدم. رفع يده يردها.

- لا أريد شايا يا سارة.

نظرت إليه. كانت هادئة، ساكنة، وغير معنيّة بما يجري. أضافت:

- معركة فاس لم تقع بعد.

عند الظّهيرة كانت الجثث قد ملأت السّاحات وتجمّعت الدّماء في برك صغيرة، وملتكدة، ثمّ مال لوئها إلى السّواد.

قاتل أحمد السّبتي بشراسة دفاعا عن المريني، قتل العشرات. في لحظة، معقّرا في دماء قتلاه، تحوّل إلى وحش. ركض إلى باب الفتوح يعترض الفارين من الموت. لم تنفع التّوسّلات. ذبحهم مع رجال أهل الطّالعة، ثمّ مضى برفقة الأنصار إلى دروب أخرى. في طريقه نحو باب بوجيدة أدرك

مقاتلا من أهل مراكش. كان الرجل جريحا. رفع سيفه، ما كان ليتركه. باغته الرجل من حيث لا يحتسب:

- أدرك شيخ القرويين.

تجمّد، لاح له وجه الونشريسي المشرق، استعاد في لمح البصر دروس القرويين في اللّغة والشعر والفقه والرّوح المرحّة للرجل الورع. «أوغاد»، زار. أعاد السّيف إلى غمده واستدار يسابق الرّيح نحو القرويين.

لن ينجو الرّجل المراكشي، سيقطع أصحابه رأسه خارج الأسوار بعدما والوا المريني خوفا من مناصريه. ذبحوه في الوقت الذي آمن بنجاته. رأى أصحابه من سيّاب فاس فأسرع نحوهم يحتمي بهم. سحبوه، بلا كلمات، طرحوه على الأرض. استسلم لقدره. مثل شاة نحروه.

النّاجي

- 14 -

«كان يضحك، ولعله يبكي في قهقات.

كان ضحكا مريرا ومعذبًا.

هو ذا سيدي؛ كان بكاء يتستّر في ضحكات.

مسح أبي دموعه بكُمّ يده اليسرى. باليد الأخرى رفع رأس الصّبي أعلى ما استطاع، ابتسم وصار يتأمّل العينين المفتوحتين على الموت. «حبيبي»، قال يقابل الوجه بنظرات بلهاء. سار إلى برميل، غطس الرّأس، غسله جيّدًا، وثبّته على منداف الفانوس النّاتئ من الجدار.

- سترى الآن أطرافك تتحوّل إلى قطع وظهرك إلى قديد، وتقتسم معي شواء الكبد والقلب على السيخ.

ملعون زماننا هذا.

جزأ جسد الصّبيّ إلى أطراف صغيرة ثمّ رتبها فوق شوال فرشه على الأرض. كومة اللّحم كانت صغيرة، بضعة أرتال لا تساوي كلّ الخوف والحزن اللذين يمكن لطفل أرغم على مواجهة الموت باكرا أن يحملهما. خلّف كومة اللّحم وضع فردتي الصّندل والسّروال القصير الملطّخ بالدم.

سال الدّم في خيوط دقيقة وتجمّع في عتبة الباب.

كأيام الأعياد ملأ المجرم بالفحم، ثمّ تركها تزهري. بالملح والماء فرك قطعة لحم ووضعها شرائح صغيرة في السيخ. انقلب إلى المطبخ. سيعدّ الشّاي كما كان يفعل. «الشّاي يزيل دسم اللّحوم يا نعيمة، يُسهّل الهضم ويريح الأمعاء»، يقول لأمي التي تبادلته عشق الصّينية والبرّاد والنّعناع. ألفا أن يرتشفا كأسيهما ونحن نلعب في البهو تحت الشّمس. يطيب له أن ينظر إلينا وحببته إلى جانبه. كان مزهوا بأولاده الذّكور وأمّ البنين وتجارته الرّابحة. ليلا يأخذ معه البرّاد إلى غرفة النّوم. كان يشرب الشّاي آناء اللّيل وآناء النّهار.

انحسرتُ بين البطانيات وبكيتُ في صمت. بموت أمي تغير العالم جملة، صار خاويًا، قاسيا، وغير محتمل.

موتُ الأم موجه وقاس سيدي، نبقى أطفالا ما بقيتُ حيّة ونصير شيوخا إذا ما داهمها الموت بغتة.

تحت البطانيات شممتُ رائحة اللحم يُقلى. تقيأتُ. أكل إبراهيم حتى الامتلاء. تجشأ وغنى. كان نفس الصوت الذي غمر طفولتي بالأحلام. لم يكتف هذا الرجل بسرقة صورة أبي. أخذ الصوت وطول القامة وعشق الشاي.

قبل عام من سنة القحط التي أعقبها الوباء سقطت قطة في البئر التي في بهو بيتنا. ركضتُ أخبرُ أبي الذي لف حبلا على وسطه ثم نزل. كانت البئر عميقة. لم يتمكن أبي من بلوغ الماء. صرختُ أمي تنهأ. رفض. أمرنا أن نرخي الدلو. امتنعت أمي.

- حبلُ الدلو بالٍ ومشبع بالماء.

- ارخوا الدلو.

رفضتُ أمي أن ترخي الدلو فحرر جسده من الحبل. استعان بالحجارة الناتئة وواصل النزول. أقسمتُ أمي أن تذهب إلى بيت أبيها إذا عاند. كان قد اتخذ قراره. قضى ساعتين كاملتين قبل أن يتمكن من الصعود وعلى صدره القطة تغرس مخالبها في كنزة الصوف.

لم تذهب أمي إلى بيت والدها. كانت فخورة بزوجٍ يرق للقطط والكلاب في عالم يُذبح فيه الرجال كالبهائم ويرمون للكلاب.

- ستدخلك الجنة يا إبراهيم.

سعيدا بما فعل ردّ عليها:

- القطة أوفى من البشر يا نعيمة.

ترك القطة تسرح على الأرض. سارت قليلا، توقفت، نفضت الماء العالق عليها، ثم استدارت تعود إليه. من يومها والقطة تلازمه، تتبعه إلى المحل الذي في السوق وتلازمه عندما يعود وتنام في فرشته.

- هذه ضرّة يا إبراهيم.

تقول أمي مباحة.

يحمل القطّة، يداعبها، ثمّ يردّ:

- والله لا أرى بعدك امرأة يا نعيمة. كفيتني كلّ النّساء وملأت دنياي فما عاد فيها متّسع لغيرك.

اخنفت القطّة كما ضاعت قبلها بشهور مئات القطط والكلاب التي أكلها النّاس نهاية العام الأوّل للجوع.

أبي قال إنّ القطط والكلاب أولى ضحايا القحط. ما اعتقد ساعتها أنّنا سنكون ضحايا القحط اللاحقين.

اخنفت القطّة التي تتبع أبي إلى السّوق وتلازمه كظله في البيت. ذكرها كثيرا لأمي، ولنا. حدّثنا عن قسوة الإنسان. كان رافضا لكلّ شيء.

- طال الجوع يا إبراهيم. مضى الشّتاء الثاني وأقبل الرّبيع ولا مطر؛ صيف طويل.

- لعنة القطّة يا نعيمة.

- لعلك تهذي؟

تبتسم على مضض. يتابع:

- المحنة أشدّ ممّا حسبنا يا نعيمة.

- أنت الذي..

يقاطعها:

- أنا يا نعيمة، أنا الذي أطعمت النّاس فجاع أولادي، أنا يا نعيمة، أنا الذي فتحت خزائني للبعيد فردّني القريب، أنا يا نعيمة، أنا الذي..

- أنت يا إبراهيم، أنت..

تراجعت رائحة اللحم المشوي وتراجعت دندنات إبراهيم. أكل قطعة اللحم، شرب الشاي، ومثلما كان أبي يفعل استلقى على ظهره ونظر إلى السماء.

«السماء تلعب بالسحب كما تلعب القطط بكبات الصوف»، قال لأمي أيام الخير. ضحكت، وضعت رأسها على كتفه. ردّت عليه: «الكلّ يلعب يا إبراهيم؛ الشيطان والملاك والله». استغفر الله. لكنّه لم يحتجّ. تركها تواصل كلامها.

- اللّعب عشقٌ والعشق سلامٌ يا إبراهيم.

كان هانئا، مستأنسا بحياته راضيا، كلّ الرضا، إلى أن داهمنا الجوع؛ إلى أن ماتت أمي..

بكيثُ كثيرا، أكثر ممّا فعلت يوم ماتت أمي، ويوم ذبح أبي إختي. دفعت البطانيات، وقفتُ أطل من النافذة مرّة أخرى. رأيتُه يحمل اللحم في القفّة ويخرج من البيت إلى الرّفاق. أدركتُ أنّه خرج إلى ساحات فاس ليقايض لحم الطّفّل بأطفال آخرين.

في البهو انزلقت قدمي على الدّم الذي تخنّرت. سقطتُ في عتبة البيت على ظهري. في السماء كانت النّجوم جميلة، برّاقة، وناصعة، وكان القمر يتلّهّى بالسّحب.

تلطّخت ملابسي بالدّم. لم أشعر بالألم. كان الإحساسُ بالخوف جارفا. نهضتُ. في الطّرف الآخر من البهو رأيتُ أخي عبد الصّمد يقفز بعنقه المذبوح وعلى وجهه ابتسامته البلهاء.

النَّاجِي

- 15 -

«غبتُ أياماً كثيرة في بيت العوَاد. كانت أياماً صعبة، قاسية، وعسيرة، أشرفتُ فيها على حنفي. بدت الطريقُ إلى الموتِ سالكة لا ينقصها غير ختم القدر.

في زمن المحلِّ والحروب لا اعتبار لرضيع أو طفل. يولد النَّاس كباراً قادرين على المواجهة، مؤهلين للموت.

أوصدتُ باب البيت عليّ وأغلقتُ النَّوافذ كلّها. فكّرتُ أن أرفع بيني وبين الموت جداراً، فلا أخرج إليه ولا يدخل إليّ.

لكن الموت لا يدخل عبر النَّوافذ سيّدي. الموتُ يوجد داخلنا، نحمله معنا أينما حللنا.

عشتُ بما ترك آل العوَاد وراءهم، أكُلُّ القمح المهرُوس، المُغلي في الماء، بقليل من الملح. مثل البهائم أبتلع ما يبقيني حيّاً وأنكمش في زاوية الغرفة التي دخلتها المرّة الأولى محمولاً ومحموماً. مرضتُ، تقيّأتُ سوائل صفراء وحارّة وتبرّزتُ ماء لزجا بلون الرّعفران. مزّق الألم مصاريني، أقعدني الوهن، وعادوتني الحمى. «أصابتني العدوى»، حسمتُ أمري وأعددتُ نفسي للقاء وجه ربّي. فكّرتُ في فتح الباب، خشيتُ أن أموت ولا يدفنني أحد.

غبتُ عن الدّنيا، ابتعدتُ الأصوات ولفّ الصمّتُ الأشياء والأفكار وتسلّل إلى أعماقي. الأذان الذي استمرّ يكابد طيلة الأيام الأولى من عودتي انطفاً أخيراً. هلك الإمام بلا شكّ وما وجد المنبرُ من يرفع صوته ويصدح بالتكبير.

زارتني أمّي كثيراً. كنتُ أراها في كلّ اللّيالي. في كلّ مرة تحدّثتني عن زوجها، تقول إنّ والدي مسحور، أنّ الشّياطين تلبّسته وسخّرته ليكون منها. «أبوك طيّب وإن ذبح أولادي. أبوك رحيم لو لا أن غدره الزّمن. أبوك طيّب..». تذهب فيأتي وجه الصّبي المذبوح. يصرخ في وجهي:

- أبوك قتلني.

- ذاك ليس أبي.

- بلى، إنّه والدك.

- أبي مات مع أمي.

- ومن يكون هذا الذي ذبحني؟

- رجل آخر يشبهه.

على خلاف المصير الذي لاقاه آل العوّاد نجوت. لم يكن مرضي من عدوى الموت الأسود. توقّف القياء وتبدّدت الحمى وخفّ الألم. أمي تراجعت عن دفاعها المستميت. لم تعد تبرّر خطايا إبراهيم. وجه الصّبي كان أكثر إلحاحا. استمرّ يلاحقني.

ثمّ غامت السّماء، زحفت فوق المدينة مُزَنٌ مثقلة وكثيرة تدفعها رياح الشّمال التي لم تهبّ منذ زمن. حلمتُ بالمطر يغسل الأزقة والشّوارع وأسطح البيوت، وبأغصان الشّجر تتخفّف من أثقال مواسم بلا حصاد. اشتقتُ للمياه تجري في واد الجواهر والضّفاف تغرق بحقول القزير والنّعناع والضّفادع تتعنى بحياة البرية. هل تعود الدّواب لتسلك الدّروب وجعجة الطّواحين لتعلو وتصمّ الأذان والحمّالون للرّعيق: «حيّد بلاك، حيّد بلاك»؟

فرحتُ.

كان المطرُ قد سقط آخر مرة في مستهل الخريف الذي سبق عام الجوع. أتذكّر أنّنا تقافزنا كضفادع. كان للرياح الباردة رائحة الثّوت وطعم اللّوز. الوجوه التي في الدّروب استبشرت بموسم جيّد؛ عام يحرث فيه الفلاحون ويحصدون. وزّع باعةً وحوانيت التّقسيط الحلوى على الأطفال، رموها بسخاء، وتساهل تجار الجملة في تصفية مستحقّات الدّيون. كانوا كأنّما يرشون السّماء طمعا في خيرات الأرض. فتحتِ النّسوة النّوافذ دون تحقّظ وأطلّت الصّبايا برؤوس عارية من الشّرفات. ظهرن أكثر بياضا وجمالا وفتنة. يعرفن أنّ سقوط المطر يجلب الخير، وأن الخير يجلب الكثير من العرسان ويفتح بيوتا جديدة.

كان مطرا كاذبا، وخادعا، أعقبه القحط والهواء الأصفر والموت الأسود.

تفرّقت الغيوم. مضت تدفعها الرّيح بعيدا عنا فصارت السّماء كما كانت؛ جافية وحاقدة. سماء تتوعّد بالمزيد من القحط والموت.

لا بدّ أنّ الله اتخذ قراره الأخير؛ أن يسحق أهل هذه الأرض ولا يبقى منهم أحدًا.

النّصارى يزحفون على بلاد المسلمين بعدما زحف المسلمون من قبل على بلاد النّصارى. قال أبي لأُمّي إنّ السّماء باتت نصرانية، كأنّ الله، على حين غرّة، مال إلى يسوع على حساب محمد. ضحكت أُمّي رغم القهر. قالت له إنّ يسوع نبيّ الله ومحمد نبيّ الله. اتكأ على الوسادة، غاب، ثمّ عاد يسألها:

- ولم يتقاتل المسلمون والنّصارى؟

ردّت أُمّي:

- لأنّهم يريدون بالله ما لا يريد الله.

- نعيمة؟

- نعم يا إبراهيم.

- وماذا يريد الله؟

- ما لا يريد الذين يتقاتلون باسم الله.

غاب دقائق ثمّ تكلم بصوت خفيض. قال لها:

- أنتِ على صواب. ما وجدتك يوماً على خطأ.

- النّساء أعدل من الرّجال يا إبراهيم.

لم يعلّق. سألها:

- لم قست علينا السّماء كما تقسو قلوب النّصارى على المسلمين؟

أكلت أكثر ممّا سبق، وأضفت القليل من الفول والذّرة. مضغت حبّات من التّين المجفّف وتناولت ملعقتين من الرّيب. الغيوم التي لاحت بعد أيّام أخرى أعطتني أملاً جديداً. عدت لأفتح النّوافذ، دخلت الرّيح والشّمس وأطلت مباني فاس مثل رؤوس تنحني وقد هدّها الجوع. الدّور التي في الجوار كانت خاوية، تركت نهبا للخراب.

تحزن البيوت لأهلها سيدي، وتبكي. يصمت العالم فيرتفع أنيؤها. ليلا تتحدّث إلى بعضها البعض.
أقسم إنني سمعتها تتحدّث عن أهلها الذين قضوا، والذين هاجروا المدينة خوفا من العدوى فأدركهم
الموت في الجبال.

الذين قصدوا الصّحاري أهلكهم العطش ودفنتهم الرّمال.

عقب أيام من حوار أبي مع أمي. عاد أبي مسرورا. تحلّقنا حولهُ في البهو. حسبناه يحمل لنا طعاما
وفيرا. نهرنا ثمّ طلب أمي التي جاءت تجرّ قدميها. قال لها إنّ أحد التجار القادمين من الشّمال
أخبره إنّ الطّاعون ضرب إسبانيا قبل أن يضرب بلادنا وأنّ السّماء نفسها التي تعصر المسلمين
هنا تعصر النّصارى هناك. وبّخته فخرج كطفل مكسور الخاطر. ظنّ أنّ الخبر يفرحها. ما كانت
معنيّة بالنّصارى ولا بالمسلمين، أرادت خبزا لأبنائها حتى لا يهلكوا.

نظّفت البيت كما كانت تفعل أمي ونفضت البطّانيات وتركتها تحت الشّمس. مع المساء صنعتُ شايا
على طريقة العواد؛ ارتشفت كأسي على كرسيّه في البهو وتحت الفانوس الكبير.

لم أصدّق. عاد صوتُ المؤذن، ارتفع الأذان رخيما بعد غياب وانساب بمزوّنة في ظلام فاس
الكثيف، ذاع ببسر. بلغني صافيا ولذيذا. فكّرتُ في زيارة المسجد. ربّما يكون المصلّون قد عادوا
لرصّ الصّفوف خلف الإمام. في بيت العواد جلابيب بيضاء كثيرة، وجميلة، لأبنائه الذين أكلهم
الموت واحدا بعد آخر.

نمتُ. جاء النّومُ ثقيلًا بعدما جفاني ليال طويلة. تمدّدتُ في الغرفة الأجمل، أسدلت الحُجبَ على
السّرير وأغمضتُ. حلمتُ بفاس كما كانت قبل القحط، بأمي ترقص لأبي، بالقطّة تتبعه إلى المحلّ
الذي في السّوق، وبالغيوم كخراف سميّة تنزاحم في السّماء فينزل من صوفها الغيث. استفتتُ فجرا
على يد ترّجّني. فتحت عينيّ فهاجمني وجه الصّبيّ المذبوح.

- لا يمكنك أن تنعم بالحياة وقد قهرني الموت.

عبد الواحد الونشريسي

- 16 -

ركض الشاب عبْرَ دُرُوبِ فاس ليلحق أباه في جامع القرويين. ترك أمه في شرفة البيت ينهشها القلق. جرى يتبعه صوتها المتوجّس:

- اجر، الحقّ أباك قبل أن تلحقه الكلاب.

بيدين خاويتين اعتادتنا على الرّيشة والمحبرة اندفع مع الرّيح. تعثّر وسقط مرّاتٍ. سال الدّم. خوفه على أبيه غطّى الإحساس بالألم. جامع القرويين بعيد، بعيد جدًّا، على خلاف كلّ السّنوات التي مرّت، موحش ومخيف.

«لسنا من هنا يا أبي. كان علينا أن نرجع إلى أرض المغرب الأوسط؛ إلى بلاد أجدادنا»، قال في نفسه. الغروب ثقيل، بقايا الشّمس لطخت أسطح البيوت وباحات الدّروب، وصبغت ذاكرته بلون مريض وسابغ.

دخل الجامع يلهث. لمح والده في مكانه يلفّ جسده ببرنسه الأبيض والفاخر. الطّلبة رغم أحوال فاس والقلقل والخصومات يلزمون أماكنهم التي اعتادوا عليها. لن يعود أبناء القرى البعيدة إلى بيوتهم. فاس موطنهم الجديد، والأبدي.

ألقي السّلام. ارتفع صوت والده هادئًا ومطمئنًا:

- و عليك السّلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

هرع الشاب إلى والده. بدا الصّمّت أثقل تطبعه قداسة النّهائيات البائسة. شمّ بعض الطّلبة بأنوف خبيرة روّضتها شعاب البوادي رائحة الدّم وتناهى إلى آخرين نبأ التّامر فأسرّوه في صدورهم مخافة الانتقام. قال الولد بصوت مسموع:

- أبتي، أبلغنا رجال من حرس أبواب فاس أن السياب يعدّون لك فهيا نرحل قبل أن يدركوك.

ضجّ الطلبة ثمّ لزموا الصّمت مع يد الفقيه التي دعتهم إلى الهدوء. ظلّ الونشريسي في مكانه. قلب صفحات الكتاب الذي بين يديه. بدا مشغولاً بإعداد الدّرس أكثر من انشغاله بحال ابنه وما قد يلحقه من السياب.

«هذا الرّجل لا يخاف الموت»، ردّد الطلبة همسا. كانوا معجبين بفقيههم، مأخوذين بثبات معلّمهم، وعلى قناعة أنّ أيّاً منهم لن يمدّ يده ليدافع عنه.

سأل الرّجل ابنه الذي ألحّ عليه طلباً للهروب:

- في أيّ باب نحن اليوم؟

ردّ الإبن وقد أدرك مغزى السّؤال:

- في باب القضاء والقدر يا أبتي.

- وهل يهرب امرئ من قدره؟

- إنّما نسعى لحفظ النّفس التي أئمننا عليها ربّ العباد.

تطلّع الونشريسي إلى ابنه بهدوء:

- لا أريد أن أراك مرتعباً ولعلّه لقائنا الأخير.

مع صمت الإبن. أضاف الأب:

- ستبتعد عني مقدار ما يجعلك تغيب وسط الجمع، لا تتدخّل. اجلس بين الطلبة، اقرأ القرآن. عندما يهرب الطلبة امض بينهم ولا تلتفت إلى الخلف. في بقائك حيّ نجاة لي وانتصاراً على أعدائي.

تراجع الشّاب بعد تردّد. فكّر في الكلمات التي سينقل بها خبر مقتل والده إلى أمّه وكيف يواجه العالم إذا بقي متفرّجاً على مصرع أبيه. أعطاه والده مسبّحة وعصاه التي ما فارقت يده يوماً ثمّ استأنف الدّرس كبقية الأيام. حدّث طلبته عن الإيمان ومحبة الله والقدر.

- إنّ في الخوف من المخلوق، كان سلطاناً، أو طاغية، أو رجلاً من سفلة النّاس، خيانة للخالق ومعصية. المخلوق لا يملك في شؤون الخلق إلا ما قدر الله، فلا تجزعوا، ولا تحزنوا، ولا تنحنوا

لغيره جلّ وعلا، لكلّ أجل كتاب، وبعد كلّ كتاب حساب، فلا تملؤوا صفحاتكم بالبغض والمعصية، وموتوا، على محبة الله، طاهرين صادقين مخلصين وأوفياء.

دخل الرّجال يشهرون سيوفهم، نادوا عليه أن يأتي إليهم. ما التفت. ألحوا. ظلّ في مكانه فجاؤوا إليه. الطلبة الذين خافوا من الوقوف على دمه هربوا. آخرون تجمّدت ركبهم فتسمّروا في أماكنهم. جرّوا الفقيه. في باب الجامع امتدّت يده لتمسك الحلق فقطعوها. صعقهم دمه النّازف. ككلاب خائفة أعملوا سيوفهم في جسده طعنا وتمزيقا.

هربوا.

في طريقهم إلى باب بوجلود سمعوا رجلا يصرخ.

- والله ما أترككم تهربون بدمه.

عندما استداروا وجدوا وحشا خلفهم. مسّهم الذّعر. ندموا ساعة لا ينفع ندم. جاء إليهم من ساحات المعارك تغطيه دماء قتلاه. فتك بهم. قال رجال من فاس إنّه لم يترك منهم أحداً إلا ومثّل به. استفرد بالرّجل الأخير. استجدها ألا يفعل.

- ارحمني ليغفر لك الله.

قطع لسانه.

لم يشفه دم السياب ولا شفعت كلّ الدّماء التي سألت على يديه. دماؤهم رخيصة ودم معلّمه غال. وكيف يقبل بالمدنس لقاء النّفيس الطّاهر. تحرّك يطلب المزيد. ما هدأ، سار يبحث عن جند السّعديين. ما وجد أحداً إلا وأرداه. في «باب فتوح» وهو يعترض الفارين من ساحات الدّبح سقط من على فرسه

مغشياً عليه. أخذوه إلى البيت. طالت أيّام الحمّى. استفاق على وجه البشير. تذكّر معلّمه فبكى. نهض من فراشه يكابر المرض. أراد سيفه ليخرج للقتال. أعادوه.

- تغيّرت فاس أكثر ممّا تحسب.

- فاس لا تكفّ.

- وانتهت الحرب منذ أسابيع.

- اندحرت الكلاب عن فاس؟

مدّ إليه صاحبه الماء.

- خسر المرينيون الحرب يا أحمد فلا تتعب نفسك.

أغمض عينيه واسترخى. استسلم للحمى أسابيع أخرى بينما مضت فاس، مثل سفينة ضائعة في المحيط، تترقّب برّا ما يكاد يبين حتى يتبدّد.

بيدرو

- 17 -

استفاق بيدرو فَرَعًا بين أحضان عشيقته التي صرخت من شدة دويّ الانفجارات المُنتالية. دفع عنه الفراش وأسرع إلى الشرفة التي تطلّ على الشّارع الطّويل. بذهول تابع النّيران تستعِرُ في البنايات. أدهشته القذائفُ الأخرى التي سقطت فوق بيوت مجاورة.

- مدافع الشّرفاء تفعل ما لم يفعل غيرها.

قال يأكله الغضب. تخيلهم بيرانسهم البيضاء مثل قردة تتقاذف حول مدافع غربية الصّنع، جنباء لأنهم يباغتون الحصن ليلا والنّاس نيام.

- مستهل حرب جديدة ومختلفة.

فكّر بصوت مسموع.

- الحروب تتبدّل. معها تتغيّر حياتنا يا بيدرو.

ارتفع صراخ الأطفال وعويل النّساء. سريعا تكاثرت الأيادي التي اندفعت آتية من الأحياء المجاورة لتخمد النّيران. كثرت الدّلاء وسالت المياه بالرّماد. تعرفُ ساكنة الحصن أنّ وجودها في هذا المكان مغامرة تحفّها المخاطر من كلّ صوب. لن يتأتّى للفرد أن يعيش إلا إذا التحم بالآخرين. سفينة الحجارة والطّوب هذه تحتاج إلى سواعد أبنائها كافّة، للبنادق والمدافع وكتيبة الإعدام، كي تصمد في وجه الموج العاتي.

سيركب البعض السفن التي تقصد لشبونة خوفا من بطش السّعديين، يصلون إلى البرّ الأوروبيّ فيتحولّون، من جديد، إلى أناس بسطاء وعاديين. أفريقيا تمنحهم التّفرد، الإحساس بالمغامرة، وتعزّز داخلهم الرّغبة في الانتقام من عدوّ أدلّ أمّتهم قرونا طويلة.

مقابل المستوطنين الفارّين من الحصن نفذ أفواج أخرى من البرتغاليين والأوروبيين الطّامحين للنّزاع، تبلغهم أخبار العبيد والسّبايا والأراضي الخصيبة فيركبون البحر. تُقرع لهم أجراسُ الكنائس

فيصيرون، وهم على متن السفن، إلى سفراء الربّ. يضعون أقدامهم في البرّ الإفريقيّ فيغدون جزءاً من ذاكرة الحصن. مع باب الميناء الكبير تمتصّهم سيرة المرأة الفاتنة التي تأخذ الألباب.

يسقط الظلام فوق الحصن فيختبئ الأطفال في الزوايا الأبعد عن النوافذ والشرفات، يولون بظهورهم للبرّ، وينحشر الرجال في أحضان النساء، يتلمّسون فيهنّ وطناً يحجبه المحيط وتستدعيه الذاكرة. يجعلهم الليل أكثر عزلة واغتراباً، يحيطهم بالخوف ويبذر في صدورهم المزيد من القلق والشكّ. سيحلمون بالحمم تتساقط، وبأصحاب الجلابيب والبرانس والعمائم يجرونهم عبيداً إلى أسواق النخاسة من ساحات فاس إلى شنقيط. المغربيّ مثل غول ينهض من سباته ليقض المضجع ويحيي في الصدر مشهد الفارس المرابطيّ الذي لا يهزم. رغم المدافع المتطورة والأسوار العالية وخزائن البارود والرصاص والقذائف وبركات الربّ وصلوات الكنيسة تلازمهم الرّهبة من الجبال. خلفها يوجد أبداً احتمال لعدو يُعدّ العدة للنيل منهم.

وُلدَ البعض هنا؛ بين أسوار الحصن. لم ير أوروبا التي جاء والداه منها، وتربّى على البحر والنوارس والجبال وحمل السلاح وركب الخيل العربيّة والبربريّة وخاض المسالك الوعرة والأدغال والأحراش. برّ الشمال ذكرى تأتي بها حكايات الآباء والسفن التي تُفرغ المزيد من المستوطنين والمستزرّقين. آخرون ولدتهم مغربيّات اختطفن من بيوتهنّ في غارات البرتغاليين على البدو في الأراضي المفتوحة، فجاءت وجوههم شبيهة بأولئك الذين يقاتلون خلف الأسوار؛ عيان سوداوان، بشرة بلون القمح.

يشبهونهم لكنهم يرفضون الانتماء إليهم. إنهم أبناء المنتصرين، حفدة البرتغاليين الذين يحملون لواء أمة استعادت قدرتها على المبادرة والانتصار.

مرّت سنوات وأعقبتها عقود طويلة منذ رُفعت أسوار الحصن وُبُيّت الأبراج ومُدّت الشوارع وشُيّد الميناء. تقلّبت الأحوال، تارة تقوى شوكة البرتغاليين ويذهب نفوذهم بعيداً فيغزون أراضٍ جديدة ويعودون بالمزيد من الرجال والنساء والغلال، وحيناً يتراجعون، يأتي إليهم المقاتلون إلى مشارف الأسوار فيقتلون ويخربون. مع كلّ ملكٍ يتربّع على عرش الملك ترتفع ألوية الجهاد ويُطلّ شيخُ الطرد من جديد. السعديون المدعومون بأسطورة الديك، والنسب الشريف، وأهل السوس، وقبائل العرب، ضيقوا على الحصن. أغرقوا الكثير من السفن وأهلكوا فرقا عسكريّة بأكملها.

- صوفي؟

- نعم يا بيدرو.

- صار الأوباش أكثر جرأة. سَخَّروا مدافع أوروبا ضدنا وباتوا قادرين على إزعاجنا. بنتنا الطريدة ونحن الصياد.

قال لصاحبه. صوفي لا تحمل همًا. ليست معنية ببقاء الحصن ولا بهيبة ملك البرتغال. لا تمنع في العودة إلى البرّ الشمالي، ستقضي بضعة أشهرٍ بين لشبونة وبراغانزا وماديرا، ثمّ تتركب سفينة جديدة إلى تخوم هذا الكوكب المجنون. العالم الجديد يُعري، فكّرت منذ شهور في قارة أمريكا. سيكون الحبّ مع الهنود ممتعا تحت الشلالات العملاقة وبين أشجار السافانا.

- دكّوا حصن فونتي يا بيدرو، قتلوا من فيه وسبوا النّساء واستولوا على السّلاح. لعلّ الدّور قادم على الحصن. نحن هدفهم الجديد.

ردّت عليه. راوده شعور بائس. الزّرقاة الفاتحة التي تغلّف سماء هشّة، أزفة، أشعرته بالضعف. لا يمكنه أن يتخيّل حياة في مكان آخر. هذا الحصن النّابت في خاصرة المحيط، وعلى أطراف أفريقيا، موطنه. هناك؛ في البرّ الآخر، يوجد الماضي، شبح زوج أمّه، والدّروب الباردة التي تقود إلى مكان واحد؛ إلى الغرفة التي شهدت على اغتصابه المتكرّر.

نام أمس عاريا. انتبه لعضوه الذي تدلّى ذابلا. صوفي العارية هي الأخرى استمرّت متمسّرة في النّافذة. هواء آخر اللّيل يثير فيها إحساسا متفرّدا. برّد إفريقيا حادّ، لكنّه لذيذ. ملأت صدرها بالهواء. رغم رائحة الدخان والبارود والكبريت واللّعط كان بوسعها أن تستطيب رياح الفجر.

بهدهوء قالت:

- بيدرو، انظر إلى السّماء.

رفع رأسه، رأى أولى أسراب الطّيور تهاجر نحو الغرب. فهم قصدها، أشاح عنها. فكّر أنّ الطّيور تهاجر إلى الغرب والشرق منذ بدء الخليقة.

تابعت:

- مثل الطّيور وجب علينا أن نرحل يا بيدرو.

«هذه المرأة تستفزّني»، قال في نفسه. أخفض رأسه، تناسلت ألسن النيران وكثر الهرج. ردت المدافع التي على الأسوار. تقصد الأراضي المفتوحة. أضافت:

- في يوم ما سيكون علينا أن نرحل عن هذه الأرض. أرض الأفارقة لن تكون وطننا للأوروبيين مهما طال الزمن.

- تهذين.

- ألم تتنكر أوريا للعرب هم الذين عمروها قرونا وبنوا عليها مدائن ودولا؟ كل أرض تحن إلى رائحة أبنائها.

- الأرض على حال أصحابها يا صوفي، تعترف بالأقوى. الحق في يد المنتصر. لا تتفوهي بالحماقات. سيكون لنا أن نملك المزيد من الحصون ونحكم شعوب هذه الأرض. نحن أولى بالسواحل منهم لأننا نمتلك القوة التي لا يمتلكون.

ارتدى ملابسه والتحق بالرجال الذين هرعوا لإخماد النيران. واصلت مدفعية الحصن قذف اللهب. صوب الجنود في كل الاتجاهات، دكت القذائف الجبال دكا. مثل أشباح تبدد المهاجمون، ذابوا، امتصتهم الأودية والشعاب.

سينزل قائد الحصن مع خيرة الفرسان وأشد العبيد شراسة ويلحق خيالات لن يدركها ثم يعود بأسرى من البدويين صادفهم في السبل، يأتي بهم مسلسلين ويجوب بهم شوارع الحصن ودروبه مهللا لنصر وهمي ثم يبعث بهم إلى كتيبة الإعدام حيث ينتهي بهم المطاف مضرجين بالدم على حواف الحصن. يأكل البارود أجساد الأسرى ويفسد معالم وجوههم فيحتار ذووهم في التعرف عليهم. الأسوأ حظا نقلهم السفن عبدا إلى البرتغال ليموتوا قهرا وبردا وجوعا في حقول تذيب سواعدهم وتاكل أعمارهم.

القرايين ضريبة البقاء على الأرض. «بلا دم لا تنهض ممالك ولا يثبت سلطان»، يسلم هذا ويؤمن ذلك. الكل يدفع تقريبا واحتسابا، لا يهم ممن تحديدا، إلى أرباب في السموات، أو شياطين في أغوار النفس، أو إلى المجهول الذي يسكن كل حبة رمل وكل نفس يصعد وينزل. تدفعهم جميعا رغبة متأصلة طلبا لوجود أكثر رسوخا وتجذرا وعظمة.

دم الضحية لا يذهب سدى. لا شيء يضيع. كل قطرة دم لها مكانها في اللوحة الأعظم ودورها البارز في رسم عالم يتبدل باستمرار. سيسجل الإخباريون على هوامش أخبار الملوك والدول وأحوال الخلق أن الجميع مؤمن بما يجري، مسلم بنواميس الحياة، قد يعجب المنهزم بالمنتصر ويشفق المنتصر على المنهزم، لكن أيّا منهما لن يتوقف عن صناعة الموت.

حمل بيدرو الدلاء ورمى الماء على النار. لا يعرف من أين تأتي، يمسكها من أيدي تتبدل ويفرغها مع وجوه لم يسبق له أن رآها. خبت النيران. أخرجوا جرحى ومحروقين وقتلى. فرعت أجراس

الكنائس على أرواح المفقودين ونودي، ككلّ مرّة، إلى ردّ الدين.

أشرفتِ الشَّمْسُ بوداعة على مياه البحر الساكنة وتربة السّهول الخصيبة والجبال العالية، نزلتِ الزّوارق ابتغاء صيد وفير، وحمل الفلاحون معاولهم يقصدون الحقول، وفتح التجار المحلات يعرضون سلعا جُلب معظمها من البرتغال شمالا والهند شرقا على ساكنة الحصن وأهالي القبائل التي تملك تصريحا بالدّخول. ستعني العجريّات وترقص الغواني ويبيع البدويّون الدّجاج والبيض في الأسواق وأبواب البيوت للسيدات الشّقراوات، وتمارس نساء شغوفات الحبّ مع بدويّين جامحين.

عاد بيدرو بحروق طفيفة وإحباط كبير. فتح الباب. لم يكن للحديقة الوقع الطيّب نفسه الذي اعتاد عليه. وصول القذائف إلى مشارف الجدار الغربيّ للحصن يعني أنّ المدافع كانت على مشارف السور الشّرقيّ. «سقطت هيبة الحصن بلا شكّ وصار علينا أن نواجه اندفاع الطّامعين في حكم هذه البلاد»، فكّر. دلف عبر المجاز إلى السّلم. رائحة البحر تغمر كلّ شيء. وجد صوفي في الغرفة تتزيّن أمام المرآة. كان مزاجها رائقا. على الطاولة رأى فنجان القهوة وحبوب لوز محمّص. لم تلتفت إليه. ظهرها عار وجميل لكنّ رغبته خابية. سألت تسرّح شعرها الطّويل:

- أطفأتم حرائق السّعديين؟

جلس على الأريكة خلفها. فكّر أن صوفي غير معنية بما يجري حولها. أراح ظهره على المسند. تخيلها عارية تباع في سوق النّخاسة بمراكش وحولها الأعراب يتفحصون جسدها. نفض رأسه. أجابها ببرود:

- أطفأنا حرائق السّعديين.

- لن يكون بوسعكم أن تطفؤوها مستقبلا يا بيدرو.

وخزته. قرّر أن يردّ:

- سنقتطع المزيد من الأراضي ونبني موانئ جديدة على السّاحل.

استدارت. كلّما عارضت أفكاره زادت جمالا. «جمال أفعى»، قدر. يعشق عنادها ولسانها السّليط. انتصبت. خطّت نحوه. وجّهها ساخر. قابلت المحيط. أشارت إلى سفينة تمخر المياه:

- إمّا أن تركب البحر أو تُدْفَن هنا يا بيدرو.

- سأموت هنا يا صوفي، إنما ليس على يد المغاربة، تقتلني الشيخوخة بعد عُمرٍ طويل.

انتبه لقطّ يخرج من تحت السرير. أسرع إلى المطبخ، عاد إليه بشرائح سلمون. داعب فراءه برفق.
تابع:

- أنظري إلى جمال هذا القطّ يا صوفي. فراؤه ناعم وعينه ساحرتان. سأطعمه بالمزيد من قلوب
المخربين..

وقفت صوفي في الشرفة. كانت مياه البحر تتلألأ تحت وهج الشمس. لفّت نفسها في قطعة ثوب من
حرير لكنّ جسدها استمرّ مكشوفاً. قالت تنظر إلى بعيد:

- لن يكون لك الوقت الكافي لتفعل يا بيدرو.

ليلا نزل الظلام، أهلك ممّا كان في الليالي السابقة، قاتما، كثيفاً، ومخيفاً. لا بدّ للأطفال أن ينتبذوا
الزوايا القصية وقد أغلقت أمهاتهم النوافذ حتّى تحجب عنهم أطراف الجبال الثقيلة، وللرجال أن
ينحسروا في أحضان زوجاتهم الجميلات متلمسين شيئاً من أمان، بينما تواصل السفن البرتغالية
حمل الهاربين من الحروب الجديدة إلى ضفاف البرّ الشمالي وجلب الطامعين في المغامرة والنّراء.

النَّاجِي

- 18 -

فتح الحارسُ البابَ، على خلاف ما اعتاد، قيّد يديَّ النَّاجِي، ثمّ قاده عبْرَ دهاليزٍ باردةٍ ومعمّنةٍ إلى ساحةِ السّجنِ. «سيطلقون النّار عليّ»، فكّر. يعرفُ أنّ الموتَ مُحدِقٌ، لكنّه لم يعتقد أنّ بيدرو يتخلّى عنه قبل منمّ الحكاية. لعبة شهرزاد مع الطّاغية باءت بالفشل. حَزَّ في قلبه أن يترك غيئةً وحدّها في عالمٍ موحشٍ يأكل فيه القويّ الضّعيف. لو سُمِحَ له بطلبٍ أخيرٍ لترجّى لقاءها. سيعانقها، يتنسّم رائحة الحليب في ملابسها، ثمّ يوصيها على أبنائه الثلاثة؛ أن لا يحملوا سلاحاً ولا يدعموا سلطاناً ويتّبِعوا طريق العلم ويتخذوا من التجارة سبيل رزق.

كوتِ الشّمسُ جلدُهُ. لم يخرج منذ سقط في أيدي البرتغاليين. أغمض عينيه اتّقاءً الوهج. دفعته يدٌ قاسية إلى الأمام، تعثّر، كاد يسقط، لكنّ الحزام البشري الذي اصطدم به ساعده على البقاء واقفاً. شمّ رائحة العرق والحموضة والبارود. فتح عينيه بمشقةٍ فظهرت وجوه واجمة لمحاربين أسروا حديثاً في غمرة المعارك. كانوا حاسري الرّؤوس، مكبلين، وحفاة. خليط من عرب وبربر وأفارقة داكني السّحنة. على مسافة أمتارٍ لاح له ضابط برتغاليّ على حصانٍ أدهم. من خلفه اصطفت عرباتٌ مشدودة إلى بغال. تحرّك الضّابط الأشقر المزهو برتبيته، استدار بحصانه نحو العربات فاستقام القائمون عليها. أعطاهم التّحية فردّوها كرجلٍ واحد. انقلب ينظر إلى الأسرى. رجلٌ أبيض، وسيم، لكنّه أجوف، بلا عاطفة. «يشبه التّاجر الغرناطيّ الذي أكره على ترك زوجته وأطفاله في غرناطة وجاء إلى فاس بلا روح»، فكّر النَّاجِي. تحدّث الضّابط إلى الأسرى بعربيّة سليمة التّركيب، غير أنّها أقرب إلى العجمي نطقاً:

- تنزلون إلى وسط المدينة وإلى الأسوار، على رأس كلّ خمسةٍ جعلنا جندياً وأعطينا الأوامر؛ كلّ رجلٍ يتلصّب أو يعصي أو يتمرد يُقتل في مكانه ويهمّل لتأكله الكلاب. الأوفياء والمخلصون للملك ينالون الصّفح ويصيرون عبيداً للمملكة.

ربطوا كلّ خمسةٍ رجالٍ بحبلٍ يشدّ بعضهم إلى بعض، فلا يتقدّم الواحد منهم إلا إذا سارت البقيّة. تكدّسوا مثل خراف في العربات التي خرجت عبر الباب الكبير إلى شوارع الحصن. لم ينتبه النَّاجِي إلى قوس الباب المزخرف والجميل، أخذه حنين جارِفٌ إلى فاس. في الطّرقات رمتهم المارة بالبيض الفاسد وحبّات الطّماطم والحجارة، وتراكم الأطفال خلفهم يصيحون: «وحوش، وحوش». كانوا أطفالاً مختلفين، لا هم برتغاليون بالكامل ولا مغاربة أصليون. كانوا أبناء الحصن، سلالة جديدة وُجدت مع الثّغر وستختفي بنهايته. أطلق جنديٌّ رصاصة في الهواء فتشتت

الصَّيْبِيَّةُ، سقط بعضهم فزعا وتعثر فوقه آخرون. تركت العربات المتهالكة الصَّيْبِيَّة ومضت في سبيلها. على خلاف الأطفال والرَّجال كانت النَّساء أَلْطَف. كنَّ جميلات، مُهْدَبَاتٍ. نظرَ بعضهنَّ إلى الأسرى بعطف وأخريات بأسى.

تراجعت كوكبة العربات. في كلِّ منعطف تنعرج واحدة أو اثنتين وتتخذ سبلا فرعية. عربة النَّاجي مضت أبعد، التفت عبر دروب ضيقة صعودا ونزولا. لم يحسب يوما أنَّ الحصن كبيرٌ إلى هذا الحدِّ. بدأ، مثل مدينة فاس؛ مناهة من الدُّروب والأزقة والشوارع. انزلقت العربة أخيرا عبر شارع «فيكتوريا» الواسع الذي يقسم ساحة «كلوريا» إلى نصفين. رأى رجالا ونساء يتهادون في مشيتهم. كانوا مستمتعين بالجوِّ الرائق. حياة لا يستوعبها. منذ فتح عينيه على الدُّنيا وهو يكافح. إذا مشى قصد مأربا، وإذا توقف كان توقف محارب يطلب راحة. تمنى في لحظة لو كان برتغالياً، مسيحياً، ومن ساكنة الحصن. متعة المشي إلى جانب الخليفة، وبين الأولاد، لذة لا تقدّر بثمن. استغفر، تدارك، وحمد الله على نعمة الإسلام.

توقفت العربة في بوابة الحصن الجنوبي. لاحظ النَّاجي أنَّ عدد الحراس أكثر ممَّا كان معتادا. فكَّر أنَّ يد السَّعديين أشدَّ من غيرها، تضرب فتوجع، على خلاف ما كانت عليه يد بني مرين؛ تجنح للمهادنة والسلم. تحدت أحد الحراس إلى الحوذي باللُّغة البرتغالية. ردَّ الحوذي بعبارات ساخرة. انفتح الباب واندفعت البغال تجرَّ حمولتها. فهم النَّاجي من الكلمات البرتغالية التي تعلم خلال الأسابيع التي قضى داخل الحصن أنَّ الحارس أمر الحوذي ألا يعود بالعدد نفسه من الرِّجال.

اجتازوا البوابة فتدققت رياح الحقول باردة، شهية. حنَّ النَّاجي للسَّير طليقا في الخلوات التي لا تحدّها حدود. لم يكن يوما حُرًّا. ظلَّ يحمل سجنه معه منذ فتح عينيه على الدُّنيا. كان سجين الذَّاكرة وسجين ضيق الحيلة وسجين أسوار فاس وسجين المخاوف. اليوم تجلَّى سجنه في الأسر. «لا يختلف أسر عن أسر»، فكَّر. يعي جيِّدا أنه صار بين سجينين لا أكثر؛ الذي يحمله داخله والذي يوجد خلف قضبانه.

تحاشى البدويون، أولئك الذين جاؤوا يقصدون الحصن بغية قضاء مآربهم؛ بيعا، شراء، أو للبياع في المواخير والحانات، أن ينظروا إلى الأسرى. إحساس بالخيانة والتواطؤ يطغى عليهم مع مرور العربة، لكنّه يزول بابتعادها.

تتابعت انعطافات العربة. من على الأسوار كانت قبعات الجنود تلوح على مسافات ثمَّ تغيب، أمَّا فوهات المدافع السوداء، والتي تلمع تحت وهج الشَّمس، فتظهر مصوِّبة نحو الأراضي المفتوحة في انتظار مقاتلين يخرجون، مثل عفاريت، في لمح البصر. ابتعدت العربة عن الأسوار تتحاشى الصَّخور المسننة حتى خال الأسرى أنَّهم يُرحلون ثمَّ عادت لتقترب. لم يكن البحر بعيدا، بلغ الهدير، لكنَّ الأسوار التي تستدير ببطء تحجب المياه. لو كان البحر أمامه لاستمتع بيومه كيفما كان الحال.

توقّفت العربية. أفرغت عشرين رجلا وأربعة جنود. في المكان كان عمّال آخرون، لكنّهم كانوا أحرارا. الأحرار يشتغلون لقاء الأجر. الأسرى يشتغلون اشتغال العبيد. أمر الجنود الرّجال أن ينزلوا بهدوء. ذكّروهم أنّ العصيان يعادل الموت.

- جاؤوا بنا لنرمّم ما هدمت سواعدنا.

قال أحد الأسرى، أضاف الذي إلى جانبه:

- أذبحُ ولا أفعل.

هدّاهم رجل أكبر سنّا:

- لا تثيروهم. دعونا نعمل، لعلّ الفرصة تسنح فنفرّ أو يحرّرنا المجاهدون.

وزّعوا عليهم الأدوار، بين مجموعة تحمل الحجارة من المقلع، وأخرى تكسرها في أحجام متقايسة، وأخرى تخلطها مع الطين حتى تتجانس. المجموعة الأخيرة اشتغلت على دكّ الحجارة كي تتراصف وتستوي في السور.

لم يكفّ الحرسُ عنهم، ألهبت السيّاط ظهورهم. ما يكاد يتوقّف الواحدُ منهم حتّى يكويه سوط أو تدميه حجارة. عند الظّهيرة، وقد غلت أدمغتهم تحت حرّ الشمس، سمحوا لهم بوقت راحة قصير. وزّعوا عليهم الماء وحبّات تين مجفّف. أكل النّاجي واسترخى. الحبل الذي يشدّه إلى الآخرين أزعه. كلّما غفا جرّه أحدُ الرّجال مخافة العقاب.

- قم يا ناجي، انهض، إذا نمت قتلوك.

يستغفر الله ويفتح عينيه. المجهود الكبير الذي بذل في حمل الحجارة أهلكه. يتلو القرآن، مع الهدير الذي يبلغ من جهة البحر يحلم بالهروب إلى فاس.

- من أيّ بلدة أنت؟

- من فاس.

- أهل فاس أحلى ناس.

- النَّاسِ حَجْرٍ وَطُوبٍ، فِي فَاسٍ، وَفِي غَيْرِهَا.

- تَنَاصَرَ مُحَمَّدُ الشَّيْخِ؟ أَهْلُ فَاسٍ يُوَالُونَ الْمُرِينِيَّ.

- لَا، لَا أُوَالِي الشَّيْخَ وَلَا أَنَا صِرَ الْمُرِينِيَّ.

- وَلَمْ حَمَلْتُ السَّلَاحَ؟ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟

- لَا، جِئْتُ أَطْلُبُ الثَّأْرَ؟

- قَتَلُوا أَهْلَكَ؟

- لَا، قَتَلُوا هَمَّامًا.

- مَنْ هُوَ هَمَّامٌ؟ أَخُوكَ؟

- كَلَا، قَرْدِي. أَنَا حَكَّاءٌ، كُنْتَ حَكَّاءٌ.

- قَرْدٌ؟

- نَعَمْ.

- أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ..

- لَمْ تَسْتَغْفِرِ اللَّهَ؟ خَيْرٌ؟

- أَعَزَّ اللَّهُ بَنِي آدَمَ وَتَدْفَعُ رَقَبَتَكَ فِدَاءً لِقَرْدٍ.

- هَمَّامٌ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ الرَّجَالِ الَّذِينَ عَرَفْتُ.

- أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ عَظِيمٍ.

قبل أن يستأنفوا أشغالهم طلب أسير من مجموعة النّاجي أن يفكّوا رباطه ليقضي حاجته. رفض الحرس. ألحّ في الطّلب. ردّ عليه أحد الجنود:

- اقض حاجتك حيث أنت.

احمّرت عينا الأسير. التفت إلى الأسرى، صرخ فيهم بوجه تلّبد:

- سيقتلوننا في الأخير، لنمت بلا مذلة.

اندفع نحو الفأس، شدّه الحبل الذي يربطه إلى الرّجال. حاول من جديد. لم يمهلوه. تهاوى والرّصاص يمزقه. ثار آخرون. كَثُرَ اللّغَطُ والتّدافع وتعدّدت فوهات البنادق وسال الدم بغزارة. على الأسوار كان جمهور من البرتغاليين يتفرّج. بدا المذبوحون ككائنات بلا روح ولا ذاكرة. رأوهم أقرب إلى الحيوان.

سقط عدد من الرّجال وكان على البقيّة أن تواصل دون كلمات؛ أن تلبّي الأوامر ولا ترفع صوتها. أمرهم الحراس بالتّحرك. رائحة الدم غمرت المكان. مزّق الرّصاص أجساد القتلى. رأى النّاجي رجلا ذبحته رصاصة لكنه استمر واقفا يسنده جذع شجرة. تخشّب حيث باغته الموت.

هدأ الرّصاص وتلاشى الدخان سريعا، ظهرت وجوه الجند باشة، رائقة. صرخ قائد الفرقة يعيد البندقية إلى كتفه:

- سيكون عليكم أن تؤدّوا عمل قتلاكم. إذا تهاونتم دفنّاكم أحياء.

صقّ المنفّرّجون من على الأسوار. سلاح الجند يشعر السّاكنة بالأمان. رفع النّاجي رأسه نظر إليهم. لم يشعر بالحقد. كان دخيلا في معركة لا تعنيه. رأى أطفالا فتذكّر أبناءه الثلاثة. تأسّف: «لعلّي أموت ولا أراكم».

صرخ الضّابط:

- هيا، إلى أشغالكم.

تحركت البقيّة التي أخطأها الرّصاص. من المجموعة الثالثة التي اشتغلت في خلط الحجارة بالطّين انسلّ رجل مزّق الرّصاص الحبل الذي يشده إلى أصحابه وهرب بين الأشجار، لاحقته البنادق لكنّها أفلتته. من بعيد سمعوا صوته. كان يعوي مثل ذئب.

عواؤه يعني و عدا بالرّجوع وقسما على الانتقام.

أرسلوا قذائف من على السّور نحو مصدر الصّوت، عبثا، استمرّ العواء إلى

غروب الشمس.

التحق الأسرى بإمكانتهم. ظلّ النّاجي في مكانه. شعر بأطنان تشدّه إلى الوراء. كانوا أربعة قتلى؛ ثلاث إلى اليمين وواحد إلى اليسار. جاء الأمر ثانية موجّها إليه وحده:

- تقدّم.

تابع أحد الجنود يوجّه فوهة البندقية إلى صدره، تذكر همّام الذي مات برصاصة في الصدر من جنديّ بليد وحاقد، وغيثة التي أحبّ بإخلاص، وأطفاله الثلاثة. اشتهى الإغماءة في غرفة الجلوس، وقت الظهر، ورائحة اللّبن الفاتر والشاي بالنّعناع. تداخلت أشياء بأشياء وامتزت ذكريات بأخرى.

صرخ الأسرى يحثونه على التّحرّك:

- تقدّم يا ناجي، اسحب القتلى.

من فوق السّور، بين المتفرّجين، رأى غيثة تدعوه ليتقدّم. أغمض عينيه، استجمع كلّ قوّته، وسار يجرّ القتلى الأربعة. عندما التفت إلى الخلف أمكنه أن يرى الدّم يفرش الأرض على امتداد الطّريق الذي قطع إلى مقلع الحجارة.

غَيْثَة

- 19 -

غضبت غَيْثَة وقد بلغها الخبر عن أخيها. قيل لها إنّه يلازم صاحبَه، طريح الفراش، في بيت والده، ولا يفارقه أبداً. بكت كطفلة. جفّت دموعُها، نام أطفالُها الثلاث، بقيت وحدها متسمّرة في عتبة الغرفة طيلة ساعات اللّيل. أقبل الصّباح، حلبت المعزات وأطعمت الدّجاج وأعدّت الخبز والمرق للأطفال. بانتصاف النّهار كانت قد حسمت أمرها. قرعت باب جارتها التي أخذتها في حضنها وسحبتهإلى غرفة الضّيوف.

بيت العيَّاط وديع، بارد، وتفوح منه رائحة المسك. كلّما وطأت العتبة راودها الإحساس بالاسترخاء. غضبها عاصف. طفا. ما عادت ترى غير النّاجي يمدُّ يده لمن يعتق رقبتَه من سيف جلاده. جلست على طرف الأريكة.

- لا تؤذي نفسك حبيبتي، للعباد ربّ يحميهم. استغفري الله وثقي فيه، ما عدنا رحمته وما انقطع الرّجاء فيه. يعود إليك بإذن الرّحمن وتفرحي بطلته ويفرح الأولاد. نحتفل بعودته كلّنا. دين عليّ حتّى أزفك عروسا من جديد يوم يأذن له الله بالفرج. لا تكثري على نفسك، وعلى الأولاد. شيء من الرّحمة الله يحسن عليك.

ما كانت تسمع غير صوتها. تحدّثت بصوت مبجوح:

- أريدك في طلب فلا تردّيه في وجهي.

اعتدلت أمّ الغيث. فكّرت في تلبية رجاء جارتها مهما كلفها من ثمن.

- على العين والرّأس يا بنتي، اطلبي. لا غالي يغلى على الغالي.

أخذت نفسا عميقا. بلا دموع، بصدر احترق، باغتت جارتها:

- أترك أولادي أمانة في عنقك إلى أن يشاء الله.

ارتبكت أم الغيث. أمسكت بيد جارتها. كانت باردة، ترتعش.

- خير يا بنتي الأولاد أولادك ولا هانوا عليك يوم.

تنهدت:

- خذني البشير، مال لصاحبه على حساب أخته.

- الطّريق للرجال يا غيثة.

- الصّباح أخرج إليه وأسير، ما باليد حيلة يا أم الغيث.

- لا والله ما ترمي نفسك للكلاب تنهش لحمك.

نظرت غيثة عبر النّافذة إلى السّماء. تبدّلت الحياة وصارت النّهارات ليالٍ منذ غاب النّاجي. ما ارتاحت لسفره. كانت تخاف عليه وهو في المدينة ولا ترتاح إلا وقد أغمض عينيه إلى جانبها. أحبّت فيه براءته وإخلاصه ورغبته في العيش بسلام. ما رفع صوته عليها يوماً، إذا غضب ترك البيت لبعض

الوقت. لما يرجع يجدها خلف دقّة الباب تنتظر عودته. أرخت المنديل كي تننّفس. ضاقت بها الحياة، قتلتها الوحده. لا أحد يملأ عالمها غير زوجها.

- إمّا تتعهدي بالأولاد أو أتركهم للجوع يا أم الغيث.

- إلى هذا الحدّ أحببت النّاجي يا بنتي؟ والله ما سمعت بامرأة تترك أولادها لأجل زوجها.

- أنا أفعل لأجل النّاجي.

- وتهون عليك كببتك؟

- ولا يهون النّاجي، ولا يهون.

بكت مجدّداً، أبكت معها أم الغيث. ما صبرت. ضمّتها إلى صدرها. لما خفّت صوتهما وضعت رأس ابنتها في حضنها، داعبت شعرها الأسود الطّويل. رأت شعرات مال سوادها إلى البياض. تأسّفت. غنّت لها مثلما تفعل أمّ تواسي ابنتها. أغمضت عينيها مثل طفل هدّه الجوع والقهر. لم تنم

ولا تستطيع أن تفعل. لكنّها سكنت. أمامها لاحت السّبيل التي تمتدّ إلى الحصن كطرق تؤول إلى جنان الرّحمن.

عصرا دخل العيّاط بيته، رأهما في غرفة الجلوس، ألقى السّلام وتابع خطواته نحو الشّرفة. كان يقرأ القرآن. صوته جميل. أجمل ممّا خمّنت غيّئة في ما سبق. فيه بحّة عميقة لحزن غائر. «هو جرح العقم». فكّرت.

- أمّ الغيث، يا أمّ الغيث.

نادى زوجته. في غرفة الشّرفة، على أريكته، سألتها عن أحوال جارتها. حكّت له عن رغبتها في السّفر إلى زوجها فنزل إليها بنفسه. قال يرفع صوته:

- والله ما تسافري ولا تخرجي فاس وفي عروقي قطرة دم.

توقّفت أمّ الغيث في باب الغرفة تتابع زوجها. كانت فخورة به. يكبر في عينيها مع توالي السّنوات. مسحت دموعها، فكّرت، للمرّة الأولى في حياتها، أن تأتي بضرة إلى بيتها. ستطلب من زوجها، إذا ما مات النّاجي، أن يعقد على غيّئة. لا بدّ أن يحميها الرّواج من شرور الدّنيا وأهوالها ويبقي أولادها من الضّياع.

عدّل العيّاط عمامته كما ألف أن يفعل كلّما أقبل على الفصل في أمر جلل. كان شعرها مكشوفاً. لم تهتمّ ولا انتبه هو إليه. يمسّها الأذى فتتحرك في صدره عاطفة الأبوة التي حرم منها. أخذ الوقت الكافي ليستأثر بانتباهها. تابع:

- تصبري أيّاما وأرسل رجلين، من خاصّة رجالي، محمّلين إلى حصن النّصارى، فيدفعان لسادته ما شأؤوا من مال ويعودا به سالما إن شاء الله.

كان رأسها إلى الأرض. رفعته وقد لاح لها الأمل. قال لها:

- ما مات النّاجي يا غيّئة، أنبأني تاجر صادق أمين أنّه رآه، على أطراف سور الحصن، يخدم في أعمال التّرميم. قتلوا الكثير من الرّجال لكنّه، بمشيئة الله، نجا من الرّصاص. عاد التّاجر أمس وجاء يخبرني. زوجك مبارك، لو لم يكن كذلك لما نجا من المذبحة. قتلوا الكثير من الرّجال. سلم من الرّصاص وركب العربة يعود مع النّاجين القلائل إلى السّجن.

- وماذا إذا قتلوه بعدها؟

- إذا لازمته عناية الله فلن يمسه مكرهه. أكثرى من الدعاء وأخرجني ما استطعت من اللطيف.

توقف قليلا، بدى مترددا. حسم أمره:

- ذبحت أمس عجلا وخروفين لله وأطعمت الفقراء وعابري السبيل. فعلتُ لأجل زوجك عسى الله يتقبلُ منا فيعفو عنه ويفكَّ أسرَه.

عندما استعادت رشدها وجدت نفسها تحتضن العيَّاط. لم يمانع، ضمَّها. ابتسمت أمّ الغيث. غيثة ابنتها التي لم تلدها.

غَيْثَة

- 20 -

بكت غَيْثَة إلى أن جفّت دُمُوعُها وصبرت إلى أن نفذ صبرُها. زادت على البُكاء والصبر وانتظرت أياماً أخرى فما جدّ جديد وما جاء خبر ولا لاحت بارقة أمل. كلّ مساء تزورها أم الغيث، تتحدّث إليها عن أحوال زوجها وأخبار السوق والجيران وترحل. يأتيها صبيّ العيَّاط بما تحتاج من مؤونة فلا تضطرّ للخروج. كسا أبناءها وأطعمهم كأنهم أبناءه ومن صلبه. في صدرها تعمق الإحساس بالفراغ. كلّما اعتنوا بها وبأبنائها زاد احتياجها إلى النَّاجي:

- اللقمة لا تحلو دونه، هل أكل وهو جوعان؟ أتغطّى وهو عريان.. أعيش بين أولادي وجيراني وهو غريب في بلاد النَّصارى لا يحنو عليه أحد ولا يأبه لمرضه حبيب.

- مع كلّ عبد رب العباد يا غَيْثَة، ما غاب إلا ليعود إليك. اصبري، يفرغ العيَّاط من شغل مُلح ويتدبّر حلا. وعدني يا خيتي والعيَّاط إذا وعد وفي ووفى. ما أخلف كلمة قطّعتها وما خان عهدا أطلقه. شيء من الصبر، شيء من الصبر يا غالية.

- نار في صدري، نار تكويني، نار لا تخليني أنام ولا أقعد. تعبت يا أم الغيث، تعبت.. وما عاد فيّ جهد. يرضيك يضيع وأنا قاعدة انتظر خبره؟ يرضيك يجوع ويتهان ولا أحد يسأل عليه؟

- لا والله ما نتركه، إحنا أهله وجيرانه وعشيرته. يرجع العيَّاط وأفاته في الموضوع ثاني وأردّ عليك. الله يسمّعنا الخير ويفرّجها يا بنتي.

تنهض، تضمّها إلى صدرها.

- لا تضيّقي على حالك، يفرّجها ربّ العالمين.

أغلقت الباب خلف جارتها. أَرْضعت طفلها حتى الامتلاء وتركته ينام. قبّلتها، تأملت ملامحه التي ارتخت. تخشى أن تموت فيعيد الزّمن حكاية النَّاجي مع أولادها. أطعمت ولديها الآخرين، أوصت بكَرّها أن ينادي على أم الغيث إذا سقط الظلام ولم تعد. صمت، لبد في مكانه. خاف أن ترحل، مثل أبيه، ولا تعود أبدا.

قبّلته، قبّلت أخاه.

- كبرتما، صرتما رجلين.

سحبت المعزات الثلاث. عندما بلغت الباب جاء صوت ابنها:

- أمّي، لا تروحي.

بدل أن تنهار غضبت، اشتعلت من داخلها. صرخت في وجهه:

- وأبوك، أتركه؟

جرّت المعزات وشفقت الباب. وهي تمضي في الدّرب بلغها بكاء طفلها خافتا. تردّدت لوهلة، فكّرت في الرجوع، لكنّها عادت لتواصل سيرها إلى السّوق.

- إمّا أن أعود به إليكم أو أهلك دونه.

دخلت السّوق تجرّ معزاتها. مع استقواء السّعديين وإخماد ثورات آخر القبائل التي والت المريني وأبا حسّون انتعشت التّجارة وتحركّ البيع والشّراء. جاء إليها رجل يساومها.

- كم تطالبين؟ معزات كسولة لا تتسلّق شجرا ولا تصعد جبلا.

- أربّيها في بيتي.

- عشرون درهم تكفي.

- بل ثلاثون.

- هذه للذبح سيّدي. أذبحها وأبيع لحمها لا غير.

انقبض قلبها. أحبّت المعزات ولا تتصوّر أنّها ستبيعها إلى من يذبحها. فكّرت أن تتخلّص منه فأصرّت على الثمن الذي طلبت.

- بل ثلاثون لا أنقص منها درهما.

ابتسم. فاجأها وهو يمدّ لها كيس الدراهم.

- أوافق، الله يسهّل عليّ و عليك.

أمسكت الكيس لكنّ اليد الأخرى ظلّت متشبّثة بحبل المعزات.

- المعزات يا امرأة.

- لا معزات للبيع يا رجل.

قال العيَّاط الذي لمحها من محله فجاء إليها مهرولا. أخذ منها الكيس ومدّه إلى البدويّ.

- خذ مالك وانصرف.

- المال لها، أمّا المعزات فلي؛ بيع وشراء.

أشاح عن الرّجل، نظر إلى غيثة معاتبا:

- بنتي يا غيثة، أنا في مرتبة والدك فلا تعودني إلى ما فعلت، يرضيك تحرقي قلبي عليك، يرضيك تحرقي قلب أمّ الغيث عليك.

تسمّرت في مكانها ووجهها إلى الأرض.

- أمّ الغيث ما خفّفت لا بنتا ولا ولدا، أنت العوض لي ولها؛ أنت الخلف الذي لم يرزقنا به الله، فلا تكسري بخاطري وتعندي.

- المعزات سيدي.

قال الرّجل الذي ألحّ في طلب ما اشترى. التفت العيَّاط إليه، لمح في وجهه خبثا. علّمته السّنوات من معاشرة النّاس ألا يترك بينه وبين أيّ رجل ضغينة تكبر. زاده بضعة دراهم ثمّ رمى له الكيس.

- إمّا تأخذ ما أعطيتك أو ترجع إلى بيتك بلا مال ولا معزات.

أهمله. نظر إلى المرأة المفجوعة بغياب زوجها.

- أذْفَعُ لأجل النَّاجي ما يطلبون من مال فلا تبتئسي.

تراجع البدويّ خطوات إلى الخلف وقد التمعت عينا التَّعَلب. أمسك العيَّاط عنها الحبل، أشار إلى أحد رجاله فجاء إليه:

- أخبر أهل بيتك يا شعيب بسفرك إلى حصن البرتغاليين.

انحنى شعيب بكياسة السيد لا الخادم.

- وجب سيدي.

- أتمم الصَّفقات مع باعة التَّقسيط واترك لي صفقة الجملة إلى ان أعود.

- إن شاء الله.

حرَّك البدويّ الكيس بين يديه، استوقف رجل العيَّاط:

- تأخذني معك إلى الحصن يا سيدي؟

توقف، نظر إليه فما أسرته النَّظرة. كان ذميم الخلقة، قصير القامة، سمين البدن، لا يبعث فيه شيء على أمان.

- لا آخذُ الأعرابَ في طريقي. اعذرني.

- معك حقّ، ما عاد الإنسانُ يثق في أحد.

سار العيَّاط يتقدّم غيثة. جرّ المعزات بنفسه ومضى إلى البيت. ما توقّف عن تلاوة القرآن والتسبيح لله. دفع الباب ودخل إلى بهو الدّار. أطلق المعزات التي ذهبت إلى المكان الذي ألقت أن تهجع فيه. كان أطفالها الثلاثة واقفين، خائفين. ما إن أطلقت حتى تقافزوا وهرعوا إليها فرحين.

- اسمعي يا غيثة، في الغد، قبل أن ينبلع الفجر، يكون رجالان من خيرة رجالي على مطيّتيهما محمّلان بما يكفي ويزيد ليعودا به معرّزا مكرّما فلا تعودني إلى ما قمت به اليوم. والله إن استدعى الأمر أن أبيع محلاتي التي في سوق فاس بأكملها لبعثها ولا تركته أسيرا.

ارتمت على يده تقبلها فسحبها.

- حاشى لله يا بنتي.

من النَّافذة أطلت أمّ الغيث وقد امتلأ قلبها حبًّا لغَيْثَةٍ وإجلالا لزوجها الذي ما فرط في حقّ الجيرة ولا تهاون في أداء واجب الشّهامة.

أحمد السبتي

- 21 -

استفاق أحمد من غيبوبة دامت ما شاء الله من أيام، فتح عينيه واستعاد إدراكه بنفسه وبمن حوله. كان العالم قد تبدل إلى الأبد. نشأت في غيابه حاضرة أخرى تدين بالولاء لحكامها الجدد. ارتفعت ألوية المنتصرين فوق قصور فاس الجديد ورفرفت أعلام الأشراف على مداخل المدينة ومخارجها. هرب محاربون إلى الجبال وتحصنوا في الكهوف والمغارات مخافة الانتقام وظلّ آخرون في بيوتهم يأملون في الصّفح من صاحب الأمر والنهي بعدما دانت له بلاد المغرب بأسرها. كُسرَت الهَمَمُ فسار الرّجل من أهل فاس ورأسه إلى الأرض واشتغل الصّانع وظهره مُنْحَنٍ. كَفّوا عن التّطّلع إلى الجبال، وامتنعوا عن النّظر في عيون بعضهم البعض، منذ بلغهم النّبأ عن مقتل المريني وخاصّته في مرّاكش غدرا. انزلقت النّاسُ إلى الحداد وكان عليها أن تُظهر الفرح، وتعبّر عن الولاء، وتنصر من أذلها كلّما ظهر أحد من رجال السّلطة في كسوة المخزن.

كتب المؤرّخون عن عنفوان المُلك ونشأة العمران وصعود الدّول وأفولها، وحكى الإخباريون عن جبروت غاب عهدا عن دار المخزن، وتداولت العوائل، في البيوت، خلف أبواب موصدة ونوافذ مغلقة، أخبار الوفاء بالعهد والخيانة والغدر وشهوة السّلطان.

فاس تبدل قشرتها، تغيّر لونها. بكلّ تاريخها التّليد وأمجاد القرون الطّويلة، تنحني لمحمد الشّيخ متنكّرة لمكارم المرينيين وأفضالهم عليها.

فتح أحمد عينيه. نزل المساء ثقيلًا، لفّت المدينة بالقنوط. على الأريكة التي إلى جانبه كان البشير منهمكا في قراءة مقدّمة ابن خلدون. انتبه لصوت صاحبه يطلبه. التفت. مذهلا ترك الكتاب يسقط. نادى على عيشة فجاءت تجري. تبددت الحمّى، كفت الجسد عن الارتعاش، والمريض عن الهذيان. عاد الرّجل من بعيد، بلا مقدّمات، استند إلى الوسادة، استوى في جلسته، وطلب كوب ماء. «هل تعود فاس كما عاد أحمد أم أنّ الرّيح إذا هبّت تلاشت إلى الأبد»، فكّر البشير. احتفلت عيشة على طريقته؛ زغردت ابتهاجا وفتحت النّوافذ كي تستقبل الدار الهواء وأياما جديدة.

- شنو هي الأخبار الحلوة يا عيشة؟

قالت جارتها مباركة تطلّ من الطّرف الآخر للدّرب الضيق.

- أحمد يا خيتي. أكرمنا الله بالشفاء.

- مبروك حبيبتي.

لا هواء. بالكاد يستطيع المرء أن يتنفس في جوّ ثابت وغروب بليد، حتّى السحبُ القليلةُ التي تُشيعُ آخرَ خيوطِ الشّمسِ بدت راسيةً في أمكنتها؛ قطعًا من صخرٍ.

أوقد العمّالُ المشاعِلَ وأسرجوا الفوانيس في البوّابات وشوارع فاس الجديد ودُرُوبِ فاس البالي فيما أوقلت العديد من القيصريات أبوابها أبكرَ ممّا عهدت. رجالُ القرى لم يزوروا الأسواق ولا فكّروا في اقتناء أحذية الجلد والبلاغي وفوانيس الرّيت والأثواب. ظلّوا في شعابهم يرقبون من بعيد هذا الكائن الأسطوريّ الذي لا يكفّ عن التحوّل؛ فاس التي تدلّ أبناءها. البسطاء، في بيوت مشبعة بالرطوبة والهواجس والخوف، تكّدسوا في الغرف كشوات قمح غير معيّنين بأمر السياسة والحكم. لسانُ حالهم يردّد حكمة الأولين التي ما خاب من اهتدى بها: «المُلْكُ نارٌ إذا ابتعدت عنه أكثر ممّا يلزم هلكت بردا وإذا اقتربت بلا حيلة احترقت». لا بُدّ لهم أن ينحنوا للسلطان الجديد، لكنّهم لن يقتربوا من حاشيته. سيتحدّث الرّجال الذين شاركوا في الحرب، همسا، في الحانات، عن خيبة الأمل دون أن يجرأوا على الإفصاح، عن غدرِ محمد الشّيخ للمريني وقد أعطاه الأمان، وعن مصرع أبي حسون بالمكيدة لا بالنزال.

تسقطُ الشّمسُ، كما سقط بنو مرين وبنو وطاس والموحدون والبرغواطيون والمرابطون الذين سادوا إفريقيا وحكموا الأندلس. من تخوم الأرض يأتي الغروب بطعم الانكسار ليذكّر المنتصرين الجُدّد أنّ كلّ شمسٍ مهمّا ملأت الأفاق مآلها الثّوري. يُطبّق اللّيلُ على الجميع، ويتكدّس الظلام طبقاتٍ فوق طبقاتٍ. في الأزقة والدروب تجري الرّيحُ بالخوف والرّيبة. الغد هو العول الذي يتهدّد النّاس، يأتي في هيئة طاعون ماحق أو قحط شديد، ويصير في زمن الخصب إلى حاكمٍ يتلهّى بالأرزاق والأعناق. يتفرّق رجال الحانات مهزومين. لن يسمح السُّكّر للكلمات أن تُحلق، يسبّون بعضهم بعضا ويلغون في أعراض الغائبين، ويجدّفون متنكّرين لنعم الخالق على الخلق، عندما يحضّر ذكّر السلطان تتجمّد الحروف على أطراف أسننتهم ويصبحون عقلاء. لا قبلَ لهم ببأس الحُكّامِ وعضبِ رجال المخزن. أوثق العلماء عهدَ البيعة. برّروا الولاء بحقن دماء المسلمين وجعلوا لها أدلة من القرآن والحديث وحرّروا حُطْبًا لتلقَى في المنابر عن أنساب سادة بلاد المغرب الجُدّد وحماة الأرض والعرض والدين. الجالسُ على العرش ذهب أبعد من مراكش وفاس، فكّر في مقارعة العثمانيين حول المغرب الأوسط ومناطقهم في مصر. تحدّث ساخرا إلى حاشيته يصف سلطان الأتراك بسلطان «الحوّاة». في خلوته، من على إحدى شرفات قصره، وضوء القمر يسيل فيغسل الجبال، حلم بمملكة تبتدئ من فاس وتنتهي في أحجار بني عثمان.

احتسى أحمد «الشُّوربة». لم تسعف الفرحة عيشة. عانقت زوجها وقد استعادت الكثير من ألق الفاسيات اللواتي يتقن الفرح كما الحزن.

تنفّس بهدوء، ترك رأسه يرتخي على الوسادة. سأل صاحبه:

- ماذا عن المريني يا بشير؟

- انتهت حرب المرينيين إلى ما قسم الله.

- خسروا الحرب.

- «قُلِ اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيءٍ قدير»، صدق الله العظيم.

- صدق الله العظيم.

تألّم. مال بجسده يمينا ويسارا. نارٌ تتقدّ من تحته ونارٌ تستعر في صدره. صمّت البشير ربا بالألم. تنهّد، تابع:

- كنتُ على يقين أنّ السّعديين ماضون إلى الحُكم. دحروا المريني من مراكش فخرج صاغرا، طاردوه في تادلة وقتلوا ابنه ولا تحرك ليثأر. فاس كانت الحسم؛ المعركة التي قطعت الشكّ لدى من كان يحلم ببقاء حكم بني مرين.

«الله العزة من قبل ومن بعد»، علقتُ عيشة التي جلست أمام ابنها تتملّى وجهه الحسن. لن تسع الدنيا بأكملها فرحتها. كان ولدها البكر، والوحيد، بين خمس بنات. ليّمت المريني، وأبو حسّون، وما تبقى من سلالتهم في الرّيف، ولينتصر البرتغاليون والعثمانيون والإسبان على السّعديين، لا أحد في مغارب الأرض ولا في مشارقها يشاركها فجيعتها إذا ما ضاع منها ابنها. أخذت منه صحن الشُّوربة وناولته كوب حليب ممزوج بالعسل:

- اشرب يا ابني، اشرب حتى تتعافى.

- أخذتُ كفاية.

- لا والله ما أتركك حتى تكمل.

جاهد لبيتسم في وجهها. مَدَّ يَدَهُ، قَبَّلَ يَدَهَا التي ارتعشت. حَنَّتْ إِلَى قُبْلَةٍ ولدها. كادت تبكي. لم تشأ أن تفسد فرحتها.

- الله يرضي عليك.

أشعلت حلِيمَةً؛ الأُمَّة التي جاؤوا بها إلى فاس من بلاد الموريتان، البُخُورَ في المجامر، وأوقدت أعواد نَدِّ كَثِيرَةً كما أمرتْ سَيِّدَتُهَا. ذهبَت رائحة البخور بعيدا وامتدَّت إلى بيوت الأزقة التي في الجوار. سيمتعض الجيران. ما كان مقبولا أن يُحتفلَ بفرح في أيام الحداد الصَّامت والسرِّي. يهمس الرَّجُلُ في أذن زوجته عن قَلَّةِ الحياء، والأخ لأخيه، لكنَّ أحداً لن يجراً على الاعتراض ولو تلميحا. الألسُنُ تتحدَّث والأخبارُ تنطير تطاير الغبار، ورجالُ المخزن لا يوقرون من زَلَّت قدمُهُ وخانه لسانه وهانت عليه رقبته. خرج أبو أحمد إلى السُّوق، في المساء نفسه، ذبح بقرة وخروفين وورَّع اللَّحْمَ على طلاب القرويين والفقراء.

- بقرة وخروفان كثير يا أبا أحمد.

قال له أحد أصحابه. ردَّ ينفى:

- بل قليل وقد قَرَّبَ البعيد. قليل بعد أن منَّ الله عليَّ بشفاء ولدي.

ستزور عيشة، على عادة أهل فاس والضواحي، ضريح مولاي إدريس الأكبر في زرهون، تيمُّناً وبركة، ستأخذ في يدها زرابي ثمينة وقماشاً رقيقاً من الملف والحريير والقطن وشموعاً ضخمة بألوان الطيف ومالا للقائمين والخدم والفقهاء والفقراء.

صباح الغد استيقظ أحمد، أخذ فطوره كما كان يفعل قبل المرض، ما رفعت عيشة عينيها عنه. أختُهُ الصَّغرى الباقية في بيت والدها بعد زواج أخواتها الثلاث أعدت له كِسْوَةَ الخُرُوج.

- اتركه يخرج يا عيشة.

- أخاف عليه، يا أبا أحمد.

- ممَّا يا عيشة؟

- من كرهه للأشراف.

- وهل ينفع أن نبقية كالتساء بين الجدران؟

- إلى أن يهدأ يا أبا أحمد.

- اتركه يخرج يا عيشة، اتركه فما هرب أحد من قدر ببقائه محصنا بين جدران.

خرج إلى أحياء فاس وحاتها يصحبهُ رفيقهُ. كان الجوّ قد تلطّف، تحرّكت الرّيحُ في الدّروب، واستأنفت السّحب جريانها تبغي الأفاق وتمايلت أعناق الشّجر تطرد الطّيور من أعشاشها. في الطّرفات سألت أقدام النّاس. شرع الحرفيون في طرّق صفائح النّحاس والحديد، يصنعون الأدرع والسّيوف للجيش السّعديّ ويُعدّون زينة مَحَلّة السّلطان المولى الشّريف أبو عبد الله محمد الشّيخ السعدي المؤيّد بالله، أمير المؤمنين، وحامي حمى المِلّة والدين. نفْسُ الأيادي التي برعت في تزيين مَحَلّة المريني تشغل لتحفظ هيبة محمد الشّيخ. لن يلوم الصنّاع أنفسهم، متلهم مثل خدم البلاط، فالأيامُ دُولٌ، والحياةُ سجال. الحاقدون على سادة العهد الجديد نظروا صوب الشّرق، حيث ترابطُ جيوشُ بني عثمان بمرابضها في المغرب الأوسط. «سيتحرّك الأتراك غربا ليدخلوا بلاد المغرب ويكسروا شوكة محمد الشّيخ. سيذقون عنقهُ ويقفون على مشارف بلاد النّصارى الذين أدلوا أهل غرناطة»، حلموا وقد فضّلوا حكم الغريب على إذلال القريب.

انخرطاً في درب جامعة القرويين. الرّائحة نفسُها، الجدران والأبواب والشّبابيك وعتبات البيوت والأرض المرصوفة بالحجارة الصّقيلة كما كانت. استمرّ كلّ شيء، لكنّ روح المكان تبدّلت. مات المعلّم وماتت معه أشياء كثيرة.

من الجهة الأخرى للدّرب تقدّمت كوكبة من رجال المخزن يسبقها عبيد سود باللبسة خدم البلاط. سار الخدم يصرخون في وجوه النّاس مقلّدين لهجة أهل فاس: «حيّد بلاك، حيّد بلاك»، حتّى يفسّحوا الطّريق لسادتهم:

حاذى عن الطّريق. بدا رجالُ السّعديين قساةً، غلاظاً، دعكتهم الحرّوبُ الكثيرةُ التي جاءت بهم من أطراف السّوس والصحراء إلى فاس فصاروا مثل صقور.

- لن تحبّ السّعديين يوماً يا أحمد.

- كيف أفعل وقد جار سيّدهم على إمامنا ومعلّمنا عبد الواحد وتناول على حرمة القرويين وسفك دمه فيها بلا موجب شرعيّ.

- غريمك في البلاط يا أحمد، تحيطه الأسوار العالية والحرس والجند.

- أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة.

- حياتنا لا تتسع لحروب السلاطين، بالكاد نجاري الأيام فلا تثرها عليك ينقلب الزمن فتسومك الدنيا وترتد عليك.

غسل أحمد يديه في صنوبر الساقية وشرب. كان الماء باردا وعذبا. في أيام الصبا كان ينزع ملابسه ويدخل تحت الصنوبر. في صيف فاس اللاهب يتجمع الأولاد في وقت راحة الآباء ولا ينفضون عن الماء إلا إذا عاد الكبار. يظل الصنوبر مفتوحا ليلا ونهارا. لن يتوقف طيلة مواسم إلا إذا أطل القحط وجفت بطون الجبال. تصمت صنابير السواقي التي في الدروب والشوارع، ثم تخفت بعدها حناجر الباعة وقرقعة النحاسين ولغط الأعراس. لما يطبق الصمت وتعلو أصوات مآذن الجوامع في ترديد اللطيف يكون موعد الموت قد أتى.

لم يحسب أحمد يوما أنه سيستحم بالدم بدل الماء.

انعطفا مبتعدين عن جامع القرويين. ليست لأحدهما الرغبة في استعادة ما جرى. في فندق لالة عشيخة سالا عن صاحبتيهما.

- رحلتا. صرفنا النساء إلى أن تنجلي لنا أهواء الأشراف ومواقفهم.

انقبض صدر البشير. أحمد مئى النفس بشهرزاد التي أحب. يعرف المستخدم مكانتها عنده. مد يده بابتسامة بليدة:

- أدلكما على مكانيهما؟

تنفس أحمد بارتياح:

- يلا، دُلنا عليهما نجازيك.

دخلت كوكبة من التراك، سلم المستخدم الرجال مفاتيح الغرف، سعد بعضهم يحمل أمتعة خفيفة وانقلب آخرون إلى شوارع فاس. التفت البشير إلى المستخدم:

- كيف ومولانا محمد الشيخ يكره الأتراك؟

- هذه جماعة تكره السلطان سليمان وجاءت لتدعم مولانا بعدما سمعت عن حماسه وعلو كعبه ورغبته في إذلال سيدهم وكسر هيئته.

- بضعة رجالٍ لن ينفعوا لا هذا ولن يضرّوا ذاك.

علّق أحمد.

- كلا، بل مائتا رجل من خيرة رجال التّرك في المغرب الأوسط، نزلوا في الفنادق إلى أن ينظر مولانا في أمرهم ويكرمهم بالسّكن الدائم والكسوة والرّواتب.

في بيت صغير من بيوت فاس البالي اكرت سارة وصاحبُها بيتًا صغيرًا بأجر زهيد. ضيق الأشراف السّعديون على الخّمّارات ونساء السّبيل فابتعدتا إلى حين يرجعون كما فعل الذين من قبلهم. يعرف الجميع من أخبار السابقين أنّ كلّ شيء سيعود كما كان. جلبابُ التّقوى قصير، تجلّه نزواتُ الحُكم أقصر من قميص. عادت شهرزاد إلى حياكة السّجاجيد وسارة إلى غزل الصّوف. تعملان أيّامًا ثمّ تحملان السّلع إلى تجار السّوق. يمنحُهما أصحاب المحلات أرباحا معقولة ويزيدهما تجار آخرون أحيانا دراهم فضلًا أو طمعا فيهما. «هؤلاء لا يشبعون، لهنّ زوجات وإيماء ويتشتمون الفروج أينما لاحت لهم امرأة تسير»، تقول سارة لصاحبها التي تردّ الأخرى: «ولنا في ما رزقهم الله نصيبٌ معلومٌ يا سارة». قبل يومين عرض عليها أحد الرّجال أن تلتحق بإيمانه في الحريم. خافت أن يكيّد لها إن هي رفضت فأخبرته أنّها جاءت إلى فندق لالة عشيشة هربا من زوج يضربها ولعلّها تعود إليه فيسامحها عن هجرها ويصفح لها خطاياها.

في السّوق، كما في الفندق، كانت أخبار المدينة والبلدان القريبة والبعيدة تصلُهما. يتحدّث الرّجال وهم سكارى، يعترفون بخطاياهم وجرائمهم. يتمادون أحيانا فيكشفون أسرارًا خطيرة عن البيوت وفي السياسة والتّجارة. أخذهما جنديان من التّرك وهما عائدتان إلى شقتهما. في إحدى بيوت فاس الجديد، سكر الرّجلان. جالسا على الفراش قال لها الجنديّ المُسمّى فريد أو غلو إنّه يكره الأشراف السّعديين. تعرّى. كان ضخم الجثة، كبير الرّأس، كثيف الشّعر، مقرون الحاجبين، في بياضه قبح. أضاف يعيد الكأس إلى الطّولة:.

- جئنا لنقدّ رأس محمد الشّيخ وسنفع.

ارتعبت. التمتعّ عيناه، تمدّد على السّرير ومال عليها كي ينكحها. تدلّى عضوه وارتخى. بالغ في الشّرب فانطرح إلى جانبها كشوال ممتلئ بالشّعير. لبست ملايسها. تكرّه شهرزاد الأتراك. كان أبوها من أتراك المغرب الأوسط وأمّها من بربر ميزاب. هربت بها والدتها إلى وجدة ومنها جاءت مع قافلة تجارة إلى مكناسة الرّيتون. ماتت الأمّ «يامنة» في جائحة الطّاعون التي ألمّت بإسبانيا والمغرب لترحل البنت إلى فاس مع نساء هاربات من الشّاوية. كُبرت في فندق «لالة عشيشة»

تغسل وتنظف، وقبل سنّ البلوغ دخل بها مالك الفندق ثم استباحها الخدم بعده. لما اعتادت على الرجال وخبرت شهواتهم تحوّلت إلى باغية.

فرحت شهرزاد عندما رأت أحمد يقف في الباب، احتضنته. كان الرجل الوحيد الذي اهتمّ بها. يسأل عن صحتّها ويطلب لها الهدايا ويوصي عليها. لم يكن زبونا. أحبّها بالفعل. كان يرتاح إليها فيطيلُ المكوث. بدورها عشقته. يوم يأتي إليها تقفل باب غرفتها ولا تستقبل أحدا غيره. يمدُّ لها المال فتردّه إليه.

- أحبتك يا سي أحمد، تكفيني طلتك.

- فيك الخير

لولا الأعراف وكلام الناس وخوفه من سخط والديه لاتخذها زوجة منذ زمن.

قضايا الليلة ساهرين حتّى الفجر. لما أقبلا على الخروج أخبرتهما عن حكاية الأتراك الذين جاؤوا ليدقوا عنق سلطان السعديين. سحبها أحمد إليه.

- لا تخبري أحدا .

حرّكت رأسها.

- لن أفعل يا سي أحمد.

استدار ليخرج ثم توقّف لحظات. عاد إليها، قال يهمس لها:

- لا تقبلي دعوة من رجل ولا تشاركي فراشك غيري.

استغربت. كانت المرّة الأولى التي يطلب منها أن تعتزل الرجال. أحنت رأسها.

- أفعل بطيب خاطر يا سي أحمد.

- لعليّ أغيب طويلا، لكنني سأرجع إليك. لن أتركك للكلاب يا شهرزاد. هذا وعد رجلٍ حرّ.

أمسكت بيده. كان خيط الأمل الرفيع الذي يشدّها إلى حياة أخرى ممكنة. فكّرت أن تغلق عليه الباب وتبقّيه إلى جانبها إلى الأبد. ضمّها إليه. همس في أذنها:

- لستِ كما يراك كلّ النَّاسِ أعرف أيّ امرأة تكونين.

حاولتُ أن تبتسمَ. ما استطاعت. فكّرت في أيّ الكلمات تشيّعُ بها إلى الدّرب. ثقل لسانُها. تركها واستدار يخطو. برد الفجر حادّ. ارتعشت. لم يلتفت إليها. ظلّت متمسّرة في مكانها.

- هل يعني حقًا ما يقول؟

سألت صاحبتهَا.

- كلام الفجر يجبه الغروب عزيزتي. هكذا هم كلّ الرّجال.

- سي أحمد ليس ككلّ الرّجال.

ضحكت سارة، أغلقت دقّة الباب.

- بل نحن اللّتان لسنا ككلّ النّساء.

أهملت حديث صاحبتهَا. «الأمل يكفي»، قالت في نفسها، ثمّ ذهبت إلى فراشها تحلم برجل واحد وبيت ينسيتها فندق «لالة عشيشة» وأطفال يملؤون حياتها بالشّغب والدّفء والحكايات.

شعيب

- 22 -

- اذهبا في أمان الله.

كان الحال ليلا حالكا. لم يستيقظ حمالو المدينة من محاشرهم بعد ولا حمل صببية التّجار مفاتيح الذّكاكين ومحلات الجُملة والتّقسيط ليرتّبوا البضاعة ويرشّوا العتبات بالماء ويعدّوا براريد الشّاي لسادتهم وأولي نعمتهم. لا تزال البيوت غارقة في الظّلام ومشاعل الدّروب والشّوارغ ترمي بنورها الخافت في مدينة تتهيّب البدايات. استدار شعيب يهّم بالتّحرك. امتدّت يد العيّاط إلى السّرج فتوقّف الحصانُ:

- انتبه لحالك يا شعيب.

ابتسم الشّاب الوسيم، رفع رأسه. في الأفاق أورقت الهالات الأولى مثل براعم بالكاد تنفتق. رأى طفله يحبو على الحصير وزوجته تفتح ذراعها لتحتضن الصّغير. تركه نائما وخرج. كلّما أقبل على سفر جديد توجّس. صار الخروج من فاس، منذ تزوّج وأنجب، حملا ثقيلًا عليه. الطّرق تغدر بأصحابها والقبائل بمشقة تؤمّن أرضها. من يُدرکه الصّعاليك وقطّاع السبيل تأكله السيوف بلا رحمة. أخفض رأسه. كانت يد العيّاط ترتجف.

- ليس سفري الأول سيدي، ألفنا الطّرق واعتدنا مخاطر التّرحال.

«ولعلّه الأخير»، قال رفيقه في نفسه. ارتخت يد العيّاط. لا يستطيع أن ينكت بوعد قطعه على نفسه. أدخل يده في جيبه، أخرج قطعة ماس كان قد أخذها من تاجر شاميّ قدّم له خدمات جلييلة. مسحها بعناية، مدّها إليه.

- هذه لك، تستحقّها يا شعيب.

أمسك شعيب قطعة الماس، قلبها بين أصابعه. كانت جميلة رغم النّور الخابي لمشاعل الإنارة التي تراجعت على أطراف اللّيل. يعرف ثمنها. تكفيه ليبدأ تجارة محترمة ويبنى لنفسه عالمه المستقلّ.

تخيّل نفسه تاجر جملة شهير يلبس برنسا ثمينا ويجلس على كرسيّ فاخر وسط المحلّ ليستقبل تجار التّقسيط. ابتسم. ردّها إليه:

- أخذها سيّدي عندما أعود.

- خذها يا شعيب. الطّريق أمان.

التفت العيّاط إلى يوسف. هجست خواطره. لم يطمئنّ يوما لهذا الرّجل. كاد يستبدله بأخر: «إنّ بعض الظنّ إثم»، قال في نفسه. استغفر الله. أمسك القطعة، مسحها كما يفعل كلّ مرّة.

- تجدها أمانة عندي يا شعيب أو أرسلها إلى أهل بيتك إذا أحببت.

تراجع العيّاط إلى الخلف ليفسح الطّريق. انطفا المشعلّ الذي إلى جواره فتمدّد الظلام. غابت ملامح الوجوه وانكسرت الظلال.

- لترافقك السّلامه يا بنيّ.

- تسلّم سيّدي.

تابعهما يغبّيان مع الدّرب الطّويل، تحت نور المشاعل المتباعدة، إلى أن انعطفا يمينا. دعا لهما بالنّجاة، وطلب من الله التّوفيق، وتمنّى صادقا أن يعودا بجاره سالما إلى بيته معافى في بدنه. خطا يجرّ قدميه. جسده ثقيل وبأله مشوّش. توقّف تحت نور متوهّج، نظر إلى قطعة الماس التي ما كان يعطيها هدية لولا معزة الرّجل إلى قلبه ووفائه الطّويل. هزه اللّون الأحمر الذي لطّخها. تفحص يديه بحثا عن جرح. لم يجد أثرا لدم. نفّض رأسه وقرأ المعوذتين يطرد الوسوس عنه. لفّها جيّدا في منديل من القطن ثم وضعها في جيبه. تلا دعاء السّفر كما لو كان الرّكاب على الحصان، الغادي إلى حصن البرتغاليين:

«سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى. وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى. اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا. وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ. وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَائِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ..».

مضى وحيدا في الاتّجاه الآخر يقصد جامع القرويين. ما فرّط يوما في صلاة الفجر ولا تخلف عن الصّفّ الأوّل. شرب من ماء صنبور السّاقية، توشّأ وسار يذكر الله. لن يندم على درهم أعطاه في سبيل الله. المال رزق، والرزاق يعطي بلا حساب، والحساب عند ربّ العباد، لا يضيع أجرا ولا

يفلت أمرا. في باب القرويين تساءل عن جدوى عناء السنين وأملاكه وأمواله. لا ولد يرث ولا أبناء إخوة يخلفون. تحسّر. جلس إلى صاره وتطلّع إلى القبّة: «لله الأمر من قبل ومن بعد». جامع القرويين يعطيه الإحساس بالسكينة. تزوّج وأعاد الكرة مرّات، ثمّ توقّف مكرها. أدرك أخيرا أنّ العيب فيه فحرّر نساءه اللواتي تزوجن غيره وولدن صبيانا وصبايا. أمّ الغيث، رفضت أن تتخلّى عنه، وها هي تقارب الأربعين بلا أمل في الإنجاب.

- أزوّجك يا أمّ الغيث غيري فتفرحين بأولادك.

- لا والله ما أتركك؛ الأولاد رزق، والرّزق يأتي متى أذن الله.

- لعلي عقيم.

- ولعل الله يهبك الذرية فترضى.

تحسّر. ترك رأسه يرتخي على الصّاري. نورُ الفجر الذي يتسلّل عبر زجاج النّوافذ العالية يعطيه نفحات من إيمان: «اللّهم ربّنا لك الحمد أنت قيّم السّموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت ربّ السّموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت نور السّموات والأرض ومن فيهنّ، أنت الحقّ وقولك الحقّ ووعدك الحقّ ولقاؤك الحقّ».

عبر الرّجلان دروب فاس، تركا المدينة في غبش آخر اللّيل. في باب الفتوح كانت السّماء قد أورقت المزيد من الهالات الرّرقاء فتراعت التّلال باحتشام تعلوها أشجار الكروم والرّيتون وبيوت البديويين. أوقفهما الحرس السّعدي، ناولهم شعيب كتاب العيّاط المختوم.

- رافقتكما السّلامة.

- بارك الله فيكم ونصر مولانا سيّدي محمد الشّيخ.

- منصور بعون الله.

اندفع الحصانان. مع الأشجار تدفّقت الرّيح أشدّ، تراكضت بيوت القشّ والطّين، وتزحزحت التّلال. أراحه المدى المفتوح ومنظرُ أكواخ الفلاحين على أطراف الحقول. رأى قطعانا من الخراف والماعز وراعية غنم صغيرة السن تسبقها الكلاب. تذكّر مرجانة؛ أخته التي سرقها البرتغاليون في غارة على القبيلة. كان عمرها سبع سنوات. «يكون عمرك الآن سبعا وعشرين سنة»، قال في نفسه. قضت أمّه فرقا وفُتِلَ أبوه على باب الحصن يحمل سيفه الصّدّي في وجه كتيبة مسلحة

بأحدث البنادق. كره البرتغاليين ومقت سيرتهم. لم يفكر يوما في الاقتراب. قالت جدته طامو تنصحه: «تلك طريق تودّي ولا تُرجع فلا تتبعها يوما».

- وها أنا أمضي فيها إلى الحصن يا طامو، لا لأسترجع مرجانة، بل لأتي بغريب لا أعرف عنه شيئا إلى زوجته.

قال جهرا:

- تمضي إلى موتك يا شعيب.

ردّ رفيقه في نفسه.

«اختطفوا مرجانة الجميلة؛ بهجة أمي ونشوة أبي، ونجوث، خبأنتي جدتي في قرية الزيت. قرية واحدة لا تسع اثنين، سمعتها مرجانة تقول. فضلت الولد على البنت؛ الذكر على الأنثى، تركتها مكشوفة. فهمت بعد سنين أنّها وضعت أختي على الطنفسة طعمًا للبرتغاليين. لم يفتشوا على آخرين. من ترك طفلة عرضة للخطف لا يمكنه أن يخبئ أطفالا. أخذوها. لم تبك. ساروا ينهبون الخيم الأخرى واختفوا قبل بزوغ الشمس.

لما داهمك الموت يا طامو طلبت منّي أن أبحث عن أختي؛ أن أستعيدها.

- ليس لأختك بعد الله سواك يا شعيب.

- نهيتني عن طريق البرتغاليين سنيما. قلت إنّ مرجانة لم تعد منا وقد مسّها رجالهم. ستحمل اسما نصرانيا وفي بطنها أبناء مسيحيين وفي قلبها كراهية المسلمين.

- خفت عليك مصير والدك.

- ما عدت تخافين عليّ؟

صمتت، أدركت أنّي أوقعتك في الشرك. صارحتني.

- الخوف من الله أعظم يا بنيّ.

- ما كنت تخافين الله يوماً. قربة واحدة تكفي، قربة تسع اثنين؛ إمّا يأخذوني ومرجانة أو ننجو معا.

كنت قاسياً عليك. جحظت عيناك وأنا أواجهك بحقيقة أمر:

- لن تأخذي ذنب مرجانة وحدها يا جدّتي، بل تحملي معك ذنب أمّي التي ماتت حزناً عليها وذنب أبي الذي قتل لأجلها ووزر يُتْمِي.

ندمت. خافت أن تلقى وجه الله بذنبها العظيم. لم أذهب لأستعيد مرجانة. لا خوفاً من البرتغاليين. تركتها تحمل خطيئتها كاملة إلى ربّها».

ثمّ طفق يفكّر في ما تبقى من سنوات عمره. لم يولد للبيت ودكاكين التجارة وزحمة الأسواق، لعلّ حياة الرّحلة أنسب إليه من حياة الاستقرار. «أسافر وقد كُبر صغيري وبنان البياض من السّواد في شعر زوجتي. أزور بيت الله أولاً، ومن الحجاز أقصد الشّام، ولعلّي أبقى فيها وأدفن في ترابها».

كان شعيب قوي البنية، شديد الشّكيمة، كلّفه العيّاط بمهامّ كثيرة. ما خذل وليّ نعمته يوماً. يقصد أطراف المغرب، فيُسلم ويستلم ويعود بالأمانات كما تسلّمها. قاتل في أكثر من مغامرة. الصّعاليك وقطّاع الطّرق وخرج بجروح. أهده العيّاط بيتاً في البطحاء وخصّه بمحلّ للبقالة جعل فيه خادماً يسهر عليه. تزوّج بنتاً من بنات أحد تجار الجنوب كان قد صادفه في أطراف «أقا» من بلاد السّوس وعاد بها إلى فاس. ولدت له ولداً يشبهه فامتألت دنياه. على خلافه كان يوسف نحيفاً، قصير القامة، يعيبه حولُه الواضح، جاء إلى المحلّ قبله بسنوات لكثّه فشلّ في صنع مكان معتبر في قلب العيّاط، فلا فاز بوّدّه ولا كسب من عطياه. اشتغل معه طويلاً، كلّما نظر إلى يده وجدّ حصادة الرّيح.

توسّطت الشّمس السّماء. غابت أسوار مكناس ولاحت الكثير من الخيام في الشّعاب. شجر الزّيتون وحقول القمح تكاد تغطي الأرض بأكملها. ثمّ غابت الخيام وتراجعت أشجار الزّيتون. أبطأ يوسف، طلب من صاحبه أن يتريّث.

- مهلاً يا شعيب.

- خيراً يا يوسف.

- ما الذي يلزمنا بالسّفر إلى الحصن؟

شدّ شعيب اللّجام فتوقّف الحصان. بدا متفاجئاً من السّؤال، مستنكراً ومغتاظاً في الوقت نفسه. «هذا الحقيّر يساومني على نفسي». تمالك أعصابه. أجاب ينظر إلى عينيه:

- حفظ الأمانة يا يوسف.

- اسمع يا شعيب. ما معي هو بالضبط ثمن السنين التي أفنيته في خدمة العيّاظ ولا نلت منها شيئاً.

- ما معك ليس لك، إنّهُ لوليّ نعمتك فلا يغرّتك الشيطان.

أرخى اللّجام فتحرك الحصان.

- سأسامحك ما لم تعد لما ذكرت. الطّريق طويل، اقرأ القرآن واصرف عنك أفكار السّوء.

تدقّق شعر شعيب الغزير على كتفيه العريضين. رآه يوسف كاملاً، محظوظاً، له شرف الموقف وهيبة الرّجل التي لم يجدها في نفسه يوماً. رفع بندقيته وصوب.

- عذرا يا شعيب.

جرّ اللّجام واستدار نحو قاتله. بدا هادئاً كما كان في سائر الأيام. لم يصدّق يوسف عندما رآه يترجّل عن حصانه. خطا إلى شجرة وجلس يسند ظهره إلى جذعها.

- سامحيني يا مرجانة.

أغمض عينيه. مثل نائم مال رأسه على كتفه. لو لا الدّم النَّازفُ لحسبته عابرو السبيل رجلا يستريحُ من عناء الطّريق.

حمل يوسف ما كان مع رفيقه من دراهم وعطايا وسابق الرّيح. فكّر في الرّحيل إلى سجلماسة، والعبور عبر الصّحراء إلى شنقيط، ليعيش فيها بقيّة عمره باسم جديد، أن يتزوّج النّساء اللّواتي يشتهي وولد أولادا ويكون له اسم لامع في السّوق وخدم وإماء وعبيد. وافته الفرصة ولم يفوتها. فعل ما كان يتوجّب عليه أن يفعل.

وقف يستظلّ تحت الشّجر في أرض خصيبة ناحية «بوفكران». ما معه من ثروة يكفيه لعيش كريماً ويزيد. أخرج قلّه الماء ليشرّب. تفاجأ بثلاثة رجال يقفون حوله:

- اين صاحبك؟

ترك القلّة تسقط.

- ما معي من صاحب. أنا رسول التّاجر العيّاط أمضي..

قاطعهم ثالثهم:

- تمضي إلى الحصن لتفتدي النّاجي وتعود.

نظروا إلى بعضهم البعض، ضحكوا. كانوا خائفين من شراسة الرّجل الثّاني.

- غدرت بصاحبك فيسّرت علينا أمرَك.

قهقه البدويّ بخبث. تابع:

- منع عني سيّدك ثلاث معزات فقبضت بدلا عنها فدية أسير.

سأل البدويّ يوسفَ ويده على زناد البندقية:

- لم قتلت صاحبك؟

- خذوا المال واتركوني.

- كُنّا لنفعل لو لم تغدر برفيقك.

ربطوه إلى شجرة توت، أشعلوا فيه النّار ورحلوا.

في بيتها، تنظر إلى المعزات، صلّت غيئةً تطلّب التّوفيق لرسولِ العيّاط. حلمت بعودة زوجها والحياة ترجع إلى سابق عهدها. ابتسمت تنظر إلى الفراغ، حدّت إليه يدخل وفي يده فاكهة الصّيف التي تحبّ. «خذي هذه يا غيئة، كُلي ولا تخافي شيئا، بتبخ سهول فاس لا يؤذي البطن».

- سيعود، سيعود.

رَدَدَتْ تَلْقَمَ طِفْلَهَا حَلْمَتَهَا لِيَرْضِعَ وَأَرْخَتِ رَأْسَهَا عَلَى الْحَائِطِ تُتَابِعُ أَحْلَامَهَا.

التاجر الأمين

- 23 -

كان العيَّاطُ في باب المحلِّ الكبير يُفَاوِضُ تاجرَ تقسيطٍ يرغب في شراء سلعة من أثواب الملفِّ والحريير، رائق المزاج، مستبشرا بخير. تحرَّكت السُّوقُ عقب كساد وتعافى البيع والشراء وتدفقت القوافل عبر المسالك، تدفَّقَ الدَّمُ في العُرُوقِ، تربط أرض السودان بأرض البيضان، وجنُوبَ المغربِ بشماله. حدسُهُ ينبئه بخبر يبهج. «لعلَّه النَّاجي»، حَمَّن. التَّاجِرُ المكناسي، مدفوعا بشطارته، أدرك أنَّ الوقت أنسب لصفقة مربحة مع رجل كريم. دخل حَمَّالون، وضعوا سلعا جُلبت من أقاصي العالم وخرجوا يقصدون عرباتهم ليحملوا سلعا أخرى. تمكَّن السَّعديون من أمر البلاد، قويت شوكتهم ودانت لهم الأرضُ بما رحبت فتدفقت السلع والأموال.

- اترك لي هامشا من الرِّبح سيدي. وسَّع الله عليك فلا تضيِّق علينا.

- أبيعك بالخسارة؟

- لا والله ما أقبل خسارتك يا عياط. أنت ابن السُّوقِ، تخبرها أكثر ممَّا يخبر الوالدُ ولده. إنَّما أقصدُ بربح معقول، وتوكَّل على الله، يعود عليك القليلُ بالكثير.

مدَّ العيَّاطُ يدهُ للتَّاجر الذي تلقَّفها. يعرف أن كلمة الحسم ستخرج فتقطع ما بينهما بالقبول. المزاج رائق والصندوق ممتلئ، والخير وفير.

- صلِّ على النَّبي.

- اللهم صلِّ على الحبيب المصطفى.

- أتركها لك برأس مالها يا إدريس، بعها وارجع لي بنصف الرِّبح صافيا. لا ضرر ولا ضرار.

استبشر التَّاجر.

- الله يفرِّجها عليك ويبلغك مقصدك ويجعل كلَّ صعب بين يديك يسير.

التفت إلى أحد الصبيّة، أمره أن يحمل كذا من السلعة ويقبض المبلغ المحدد. وقبل أن يتحرك إلى المستودع توقّف صبيٌّ آخرٌ من صبية المحلّ لاهثاً:

- مصيبة يا سيدي.

- خير يا ولد؟ مالك؟

- شعيب سيدي، شعيب.

- تكلم، ما به شعيب؟

صمت الصبيّ، نظر إلى سيّده برهة، ثمّ أحنى رأسه إلى الأرض.. قال يبكي:

- جاؤوا به قتيلاً.

ضرب العياط يدا بيد.

- غدر به الكلب.

أقعدته الصدمة على عتبة المحلّ، أمسك برأسه، لم يسمع بقية الكلمات. جاء إليه الرّجال يعزّونه. لم يردّ التّعازي. أدبر التاجر بلا سلعة. تحامل العياط على نفسه، ترك المحلّ في عهدة رجاله وسار لا يلوي على شيء.

مشى طويلاً. استعاد، وهو يربط أحياء فاس البالي بأحياء فاس الجديد، الصبيّ المثابر، والشّاب المكافح الذي تحدّى الفقر والقهر، وركب الصّعاب، إلى أن صنع بهيبته وصدقه مكاناً في السّوق. أولى معاملاته تمّت بعود بردّ الدّين. أخذ السلّع بلا مقابل، وأعاد رأس المال إلى أصحابه. تاجر وريح، فصار، في بضع سنوات، من كبار السّوق. مَحَا حاضرُه ماضيه. لا أحد يتذكّر الصبيّ الحافي. كان كأنما ولد تاجراً كبيراً وشاطراً. أعطته الحياة المال والشّرف، لكنّها أخذت منه الكثير؛ حرمته من الخلف، وها هي تسرق منه أحبّ النّاس إلى قلبه.

بموت شعيب تكون حياته قد تبدّلت. من يفتح باب المحلّ الكبير ويراقب بقية المحلات، من يشرب معه شاي الصّبْح والعشيّ ويلعب معه جولات الداما. وجه البشير الباشّ ينسيه الأولاد الذين لم يفرح بهم. ضاع شعيب، «وأنا من أرسلتك إلى الهلاك، أنا من أكثرت عليك وأثقلت، أنا..».

قرع الباب. كان الظلام قد نزل. انفتحت الدفة. سال نور الفانوس الخافت على أرض الرّفاق المبلطة بالحجارة الصّقيلة. قاس هذا العالم وجائر إلى أبعاد حدّ. من سقف أحد بيوت الجيران نعق غراب، ضرب بجناحيه وحلّق. انتبه أنّ هذا البيت ليس بيته. ملامح الطّفل الصّغير أرجعته إلى رشده. انحنى ليقبّله، دار الطّفل وركض. ارتبك. لم يجرؤ على الدّخول. تسمّر في مكانه.

- مرحبا.

ارتفع صوت فتيحة أكتاو. كانت تبكي زوجها. «امرأة صغيرة بطفل يتيم»، شعر بالذّنب. «شاء الله وما قدر فعل»، قال في نفسه. تنحنح، جاءت إليه تجرّ قدميها. باغتها الموت. يعرف أنّ الباب صار مفتوحا على المجهول. امرأة وحيدة وبلا زوج. لن يسمح لأحد أن يمستها. العياط لا يترك قريبا ولا جارا إلا ووقف إلى جانبه. فتيحة خطؤه، هو المسؤول عمّا لحق بها.

- تفضّل سيدي.

دخل، جلس على الأريكة. لا معنى للكلمات. كلّ العبارات بليدة وساذجة. عاد الطّفل، وقف على بعد أمتار.

- عظم الله أجرك.

لم تجب. هزّت رأسها. التفت إلى الصّغير.

- كم عمّره؟

نظرت صوب ابنها، أحنّت رأسها. تابع:

- ما شاء الله عليه، اللهمّ بارك فيه. اسمعي يا بنتي، من اليوم هذا ابني، أنا كافله وحاميه إلى أن يصير رجلا فأزوجه ويكون له عندي تجارة خاصّة لا يشاركه فيها أحد.

تعرف شهامة العياط. لن يخذل رجلا عاش وفيا له. استمرّت ساكتة خسارتها أفدح. ثقل عليه الصّمت، تنحنح، خرجت الكلمات الأخيرة بمشقة:

- بموت شعيب صرت أمانة في رقبتي إلى أن يشاء الله.

وقف ليغادر. طلبت منه أن ينتظر لحظة. غابت ثمّ عادت تحمل رسالة ملفوفة. مسحت دموعها. مدّتها إليه:

- منذ تزوّج بي شعيب أوصاني، إن أصابهُ مكروه في سفر أو شغل، أن أعطيك هذه.

استلمها، تكلم إلى نفسه، لكن كلماته طرقت أذنها:

- دين عليّ أن أفي بما أوصيت يا شعيب حتّى وإن كلفني مالي كله.

فضّ اللّافاة، قرأ على ضوء الفانوس الخابي. ارتجفت يده وخفق قلبه. انتهى، أخذ نفساً عميقاً. لن يفكر مرّتين. فُضي الأمر. رفع رأسه ينظر إليها. بوجه شاحب استمرت تنظر إلى الباب المفتوح على الدرب. قال بنبرة حاسمة:

- تكلمي حقّ الله وتأتي بيتي زوجة ثانية بإذن الله أو تبقين مع ابنك هنا في عصمتي، وعلى نفقتي، إلى أن يشاء الله.

همّ ليخرج. توقّف:

- نسيْتُ.

مدّ إليها قطعة الماس.

- هذه أمانةٌ عندي يا فتيحة.

النّاجي

- 24 -

خمس عشرة يوماً كاملة قضاها النّاجي في تكسير الحجارة وإصلاح أسوار الحصن. نالت منه الشّمس وأكلته سياط الحرس وتسَلَّل إليه اليأس. يُخْرِجُهُمُ الجُنْدُ في الظّلام ويرجعونهم في الظّلام. الحجرات التي ضاقت بهم من قبل باتت واسعة. هزّلت أجسادهم وصاروا كالأعواد، مكان الرّجل الواحد يتمدّد ثلاث. تعرّف إلى الكثير واستمع إلى حكايات أناس بائسين ومُحِبِّينَ قادتهم الحياة إلى جحيم الأسر. مات المزيد من المساجين، سقط البعض مرضاً وآخرون بالرّصاص. بدل الهلكى يأتي المستوطنون بأسرى آخرين. الجدد حدّثوا القدامى عن تعاظم الجيش المغربيّ الذي نازل العثمانيين في تلمسان وأذلهم فيها ثمّ سار أبعد يطاردهم في مواطن أخرى من غرب المغرب الأوسط.

- طرّد النّصارى من بلاد المسلمين أولى من محاربة العثمانيين.

قال بعضهم.

- لن يطرّد المغاربة البرتغاليين ما دام العثمانيون يهدّدونهم من جهة الشرق.

- يا الله، ضعنا هنا.

- الامدادات تتوالى. مكان الرّجل الذي يموت يلتحق العشرات.

- ومتى يدخلون الحصن؟

- متى شاء الله.

- ونعم بالله.

ختموا حوارهم القصير وناموا في حجرة بلا نوافذ يتوسّدون أذرعهم حالمين بدخول الجيش السّعدي إلى الحصن.

ابتأس النَّاجي أكثر من غيره. أنهكه العمل الشَّاق. رغم تعلُّفه بزوجته وأبنائه تمنى أخيراً أن يموت. فكَّر في استفزاز الحراس. ما استطاع. مشهَّد الرِّجال الذين طمَّرهم البرتغاليون في حفر غائرة، ممزقي الأجساد، أربعة. يريدُ أن يموت في فراش بيته، ويكون له شاهد، وأهل يزورونه من وقت لوقت، وذكرى طيبة يحفظها أبناؤه عنه وينقلونها إلى الأحفاد.

- اصبر يا ناجي، اصبر، يفرِّجها ربِّ العالمين، وتعود إلى بيتك وأولادك.

قال له سجين التقاه في اليوم السَّابع.

- يفرِّجها عليّ وعليك.

جاء الفرَجُ من حيث لا يحتسب أحد. انهار عبّاس الأسير بعد يومين من حوارهما القصير، في طريق العربية إلى السَّور. اشتد عليه الألم، أمسك بقضبان العربية وتعرق. لما فقد زمام أمره بلل نفسه. سمعه أصحابه يرددُّ الشَّهادتين. قبل أن يمدّوا أيديهم إليه سقط رأسه على كتفه بينما ظلت يداه تمسكان بالقضبان. جرّه الجنْدُ على الأرض، رموه على جانب الطَّريق.

- نواريه ونقرأ عليه القرآن.

- لن تحفروا له قبراً. هذه الطَّريق خطيرة.

ردّ الجنْدُ على الأسرى.

- نرجعه إلى العربية وندفنه في مكان آمن.

- لا مكان في العربية للجيف.

رفعوا بنادقهم وأقلعت العربية. قرأ الأسرى القرآن، دعوا له بالرحمة. كانوا يشيِّعون أنفسهم. يعرفون أنّهم سيلقون المصير البائس نفسه. دعوا له بالرحمة وعدّوا مناقبة التي عرفوها في بضعة أيّام.

مضت العربية تنهّدي فأمسك النَّاجي بقضبان العربية، تابع جسد الهالك يتوارى. في السَّماء رأى طيور الرِّخمة تحلّق. لن تأكله الوحيش. استعاد عبّاس وعيه بنفسه محمّولاً في عربية تاجر من بلاد البيضان. أعطاه الصَّحراويُّ الطَّيبُ زيتاً بالتَّوم وزعثراً مغلياً وأطعمه البصل المخلوط بالإبزار

والعسل. خفت أُمُّهُ واستطاع أن يتكلّم ويدلّ التّاجر على بيته. أوصلهُ إلى أهله في مرّاكش وتابع سبيله إلى بلاد شنقيط.

في المساء الأخير جلس النّاجي تحت كرمة وبكى. كان الحارسُ قد فكّ قيدهُ الذي يوثقه بالرجال الأربعة وربطهُ إلى شجرة. بينما كان الأسرى يعملون أعطوه ماءً بارداً وطعاماً وافراً وتركوه يرتاح. نام. حلم بفاس وزوجته وأولاده الثلاث والدروب الباردة التي تنعش المرء أوان الصّيف القائط وتدفعه في زمهرير الشّتاء. استفاق مع الغروب والحرس يصرخون في وجه الأسرى. مثل أشباح ترك الرجالُ الفؤوسَ والحجارةَ واصطفّوا خلف العرباتِ. الغروبُ ينثر الرّمادَ على العالم، يحرق الأرض، ويحيلُ اللّحظةَ إلى ماضٍ مكروّر. جاهد ليقف، تحرّكتِ العرباتُ الأولى. «لمّ تركوني أرتاح؟ هل جاء من فاس من يدفع فديتي؟». اهتزّت به الأرض. ترنّج. خشي أن يسقط فيعدموه. مدّ يدهُ لأغصان الكرمة يستعين بها. مالت الأغصان وجرفه الدوار فسقط. ساعده حارس على الوقوف وسار به.

- شكرا سيدي.

- اشكر سيّدك.

«بيدرو إذن»، قال في نفسه. في العربة رفضت بقيّة الأسرى أن تتحدث إليه. نظروا إليه بريية ثمّ أشاحوا.

- لستُ خائناً.

ظلّوا صامتين بينما العربة تمضي بهمة في طريقها المألوف. حاول أن يشرح لهم. ما التفتوا إليه. ألحّ فامتدّت يد نحيلة كعود يابس، ربتت على كتفه:

- نعرف يا ناجي، نعرف أنّك لم تكن مقاتلاً في صفوف القبائل، ولا في جيش المخزن، وليس لديك ما تفشي.

هدأ واستكان. كانت الوجوه حزينة، وبائسة، أكثر بؤساً من كلّ المرّات السّابقة. غنى أحد الرجال، التحق به آخرون. غنّوا غناءً كتيبة مهزومة تقاد إلى فصيل الإعدام. صمت الحراس عنهم. تركوهم ليفعلوا. كانوا على علم أنّها خرجتهم الأخيرة إلى السّور.

عادت بهم العربة إلى الحصن، عبر ساحة «كلوريا» الواسعة انزلقت في الشوارع، التفتت مع الدروب، ثمّ رست في ساحة السّجن. أعادوه إلى حجرته الأولى. عندما أغلق الحارس الباب عليه

تلمّس الفراش التّقيّ والبطّانية التي كان بيدرو قد أهداها إليه. انحشر في فراشه، انسلّ خفية من عيون تتربّص. بلا أحلام استسلم للنّوم.

لم يزعجه صباحا. نام حتّى ساعة متأخّرة. استيقظ. وجد فطورا لائقا على الطّاولَة الصّغيرة. أكل بيضا، شرب شايا. من شبّاك الباب تحدّث إليه الحارس:

- أعدموا كلّ الرّجال الذين خرجوا معك إلى السّور.

وضع الكأس على الطّاولَة. عادت وجوه إخوته لتخلّق حوله. أضاف الحارس:

- كلّ، كلّ يا ناجي، أنتَ محظوظ. لم أرَ رجلا بكلّ حظّك.

- المحظوظون لا يقعون أسرى سيّدي.

قهقه الحارس. لم تكن من عادة النّاجي أن يعلّق على الحرس. أكّد الحارس:

- بل هم الذين يقعون فيه ويخرجون منه سالمين.

- هل أخرج سيّدي؟ عفوتم عني؟

عاد الحارس إلى جديته، تأمّل الوجه الضّامر الذي أحرقتّه الشّمس ثمّ أغلق النّافذة الصّغيرة للباب الحديديّ دون أن ينطق بكلمة. ترك أفكار النّاجي تذهب به بعيدا وتعود. في المساء أخرجوه من زنزانته، ساروا به عبر الدّهاليز إلى بابٍ خلفيّ، ومنه قصدوا إحدى حمّامات الحصن. استحمّ تحت الحراسة. كان الحمّام عربيّاً بثلاث غرف كبيرة وبهو استراحة عريض. استرخى على الأرض، ترك جسده يتشبعّ بالماء الساخن. مع القَبَب المتجاورة والدفء الذي دغدغ جسده المتعب عادت فاس لتنهض. فكّر أنّ العالمَ تخلّى عنه. ما سأل أحد ولا بلغته رسالة حتّى. «كيف يا ناجي وليس لك غير زوجة وثلاثة أطفال؟ صاحبك الوحيد، ورفيق عمرك، رحلَ ينجو بجلده وتركك لمصيرك».

أعطوه لباسا جديدا بطراز برتغاليّ. كان مشدودا أسفل ساقيه عريضا على مستوى الرّكبة، يحفل بالألوان. اندهش والحارس يترك يديه بلا قيد:

- لا، لا، ليس بعد اليوم.

- تتركونني أرحل؟

- لا تكن ساذجا يا ناجي. ما جاءنا أسير وتركناه يعود حرًا.

أحبطه الرّد، لكنّ يديه الحرّتان اللتان طاشتا بلا قيد وهو يمشي أشعرتاه بالسّعادة. بدا مثل طائر اكتشف بغنة أنّه قادر على التّحليق. كانوا واثقين منه، غير خائفين من فراره. نزلوا عبر شارع سانتا ماريا وانعطفوا يسار كنيسة الرّحمة. رأى راهبات يدخلن إلى بيت بسيط وجميل. زيّهنّ الموحد جعلهنّ أبهى. الهواء خفيف وحلو، يلامس الأغصان برفق ولا يحركها ولعلّها روحه التي استشعرت نزرًا من حرّيّتها.

«هراء، أنا أحلم»، قال في نفسه. وصلوا إلى بيت تفيض على أسواره الدّوالي. فوانيس الإنارة التي تتدلّى من أعمدة عالية صبغت الشّارع بلون أصفر. هدير البحر تدفق صاخبا برائحة الملحوحة. مدّ بصره إلى النّوافذ والشّرفات، لامس تلك الحياة الوديعه والسّاكنة التي حلم بها طيلة سنوات عمره ولم يدركها. ما نام يوما إلا وباله مشغول بلقمة يوم غد. لمح سيّدة برتغالية عبر زجاج نافذة بيتها. كانت تحمل رضيعها. بدت جميلة، مثيرة، وربّما سعيدة بدور الزّوجة والأمّ.

«غيّثة أجمل منها، غيّثة أروع من كلّ نساء العالم»، قال في نفسه بيقين جازم.

حرّك الجنديّ حَقَّ الباب النّحاسيّ. من فوق الإفريز العالي ارتفعت أغصان خضراء، متشابكة، ومالت منها الأزهار مثقلة تغطي الإفريز بأكمله. انفتح الباب، أطلت امرأة برتغالية جميلة وأنيقة. لم تحيّ الجنود. بدت مندهشة بالرّجل الذي جاؤوا به. تخيلته قبيحا، خشنا، وأطول وأعرض.

- هذا هو؟

- نعم سيديتي.

سحبت دقّة الباب لتسمح له بالدّخول. ظلّ النّاجي متسمّرا في مكانه. دفعه الجنديّ الواقف خلفه إلى الدّاخل. عندما انغلق الباب سمع وقع خطوات الجند يواصلون انحدارهم مع الشّارع. وجدّ نفسه وحيدا مع المرأة. يمكنه أن يدفعها فتنطرح أرضا ويهرب. لن يتردّد في القفز من سور الحصن إمّا يموت أو يواصل ركضه مبتعدا عن أسره. لا يستطيع أن يفعل. جسده عليل وقدماه متورّمتان. ما صدّق. أمسكته صوفي من يده، ساقته عبر مجاز من الحجارة الصّقيلة إلى الباب الداخلي للبيت. خصرها الممتلئ شهّي. كتفاها عاريان. عنقها طويل وشعرها الأصفر التّبنّيّ طويل، أشبه بحزمة سنابل ارتوت بشمس الصّيف. خفق قلبه بشدّة. ما عرف في حياته امرأة غير غيّثة. في البهو الواسع أخبرته إنّ سيده سيعود متأخّرا.

- سيدي؟

- نعم.

- أعتقك بيدرو من فصيل الإعدام. اشتراك عبدا له بعدما أصدر الحاكم قرارًا عامًا بإعدام الأسرى ردًا على إعدام السعديين لكتيبة سقطت في غارة على ساكنة الجبل.

أشارت له بالجلوس ففعل. استدارت لتأتيه بطعام. توقفت. عادت لتُقابله.

- اسمع، أنا صوفي.

انفتح فمُه واتسعت عيناه. كان صدرها المُمْتَلِيُّ شهياً ومُثِيرًا. سها ثم استعاد حضوره مع يدها التي حطت على وجهه. رائحة الطّعام تغمُرُ البيت وهو جائع، الماء دافقٌ وهو عطشان.

- وأنا ناجي، ناجي سيدتي.

ابتسمت.

- أعرفك، حدّثني سيّدك عنك. أنت النّاجي، ابن إبراهيم، سليلُ تلزي.

- نعم، أنا النّاجي سيدتي، الصّنهاجي، ومن آل العوآد، وأسير البرتغاليين إثر معركة فاشلة، لا انتقمتم فيها ممن قتل همّام ولا وقّرت على نفسي مذلةً الحبس وخدمة العدو.

- وأنا صوفي النّحلة التي لا يكفيها بستان واحد ولا تحتويها أرضٌ ولا تطويها سماء.

مدّت يدها إلى إناء مملوء بالتوت، أكلت حبّات، سال اللّونُ الأحمرُ من شفّتها. أعطته حبة. كانت نظراته مركزة على شفّتها.

- أعجبك التوت؟

- نعم.

- أم شفّتي؟

أخض رأسه. ضحكت. أقمته حفنة كاملة فأكلها. لامست شفتاه كقها. ارتعش. رائحتها نافذة ولونُ التوت أحمر، غامق.

- أنت عربيّ؟

- أبي من صنهاجة الجبل وأمّي عربية من بني معقل.

- كلّم تعشقون النساء، العربيّ منكم كالبربريّ، تحاربون باستبسال، تشربون الخمر حتى الثمالة، وتصلّون خمس مرّات في اليوم وتأتون النساء والصبيان، كرماء إذا ضايفتم، وقساءة إذا كانت الغلبةُ لكم فلا تميّزون بين الأخ والابن ولا الكبير والصغير.

غضّ عنها. لم يشأ أن يبدي رأيا. تطلّع إلى الجدران. بيتٌ جميل لم يدخل مثله من قبل. كلّ البيوت التي دخلها كانت بسيطة.

- أعجبك البيت؟

- نعم.

- وأنا؟

أغلقت الباب وفتحت النافذة التي تشرف على الحديقة وتطلّ على البحر. دخلت الرّيح فتدقّق شعرها التّبنيّ الطويل. عنقها شامخ وظهرها أبيض، صاف، وعريض. تنهّد. ضحكّت. تخيرُ لواعيج الرّجال. تقدّمت إليه.

- قف يا ناجي.

استجاب. بلا كلمات. اقتربت أكثر. خفق قلبه. وضعت شفتيها على شفتيه. انزلقت الشّفاة في قطرات التوت وفي بعضها البعض. تنهد من جديد. شعر بالنّار تحرقه، بلسانها حلوا يخرق فمه ويلتفّ. انتصب قضيبه الذي امتدّ وتصلب. مال رأسه إلى الخلف وامتدت يداه إلى رمانتيها تبغي حليب الرّضاعة.

- غيثة.

تعزّت. مأخوذا بجلال الجسد مال عليها. سحبته إليها أكثر، تأوّه يحرت أرضا خصبة. داعبت شعره كطفل، وتابعته يغرق. هذى:

- غِيْثَةٌ، ضَمِّيْنِي أَكْثَرَ.

النَّاجِي

- 25 -

«قال أبي مرّات ومرّات إنّ الرّجل ليموت بموت أمّه، لكنّه مات، على خلاف ما قال، بموت أمّي. لعلّه وجد فيها الزّوجة والأمّ.

وقالت أمّي في أكثر من مناسبة، ردّاً على أبي، إنّ المرأة الشّاطرة تتقن الأدوار كلّها، فتصير الخليفة والزّوجة والأمّ.

عندما أطلّ الوباء وزحف الجوع وانشغل النّاس بأخبار الموت كان أبي لا يزال مشغولاً بحبّه لزوجته. كان الحبّ عاصماً من الخوف. قال لها ونحن جلوسٌ حول الشّاي:

- أنت التي رويت أرضي اليباب، فأحييتّها بعد موت. دخلت بيتي فغيّرت دنياي. أنسيتني الرّجل يابس العود، واجم الوجه، الذي يعمل من طلوع الفجر إلى غروب الشّمس وينام ليلاً كميت. على يدك تعلّمت أنّ الحياة ألوان؛ للصباح لون، وللمساء لون، وأنّ الفصول روائح».

كابر الخوف، دفع عنه الهواجس وآمن بالغد. حلم بالمطر يغسل دروب فاس؛ بالمدينة تتعافى ومن حولها السّهول وقد استعادت خصبها.

- انظري يا نعيمة لهذه الغيوم تدفعها ريحٌ غربية باردة، لعلّ الله يكرمنا بالمطر فننجو.

تشريح عنه فيواصل:

- حلمت البارحة بالنّاس تتقاذف الماء والنّساء تزغردين..

- الأحلام لا تملأ بطون الجياح يا إبراهيم. إنّ العامّ الثّالث للقحط.

- العامّ الثّالث للقحط ويا ليتّه الأخير.

والحنطة تنفذ. كان القحط والجوع يتمددان. ما صدق المحنوم. «يا الله، أيدركنا الجوع قبل رحمتك». انذهل وقد فنيت شوالا الطحين وتبددت الحنطة التي في أدرج القبو وجفت الخايبات الأخيرة من زيت الزيتون والعسل. بزوال المؤونة هجرت البسمة بيتنا. غابت ضحكات أمي ونكات أبي وحفلات الشاي التي تحنفي بأماسي فاس الطويلة. حط وجوم ثقيل وغضب متبلد. يدخل أبي عابسا ويخرج مهموما، واجما، وقد هدده جوعنا والإحساس بالذنب.

أوصد أولئك الذين أحسن إليهم أبوابهم في وجهه. أداروا له ظهورهم. غضب واحتج فشتموه، جرب صداقاته القديمة فطرق أبواب الميسورين. تغيرت فاس كثيرا. مع القحط يصير الملائكة إلى شياطين. ما أعاروه اهتماما. صرفوه.

جُعنا سيدي، تحوّلت حمرةً وجوهنا إلى صُفرةٍ والسمنة إلى هزال.

- جاء الدور علينا.

قال أبي.

هلك الكثير من الخلق. خلت البيوت من الناس. فر من فر إلى الجبال ومات من مات بالطاعون وتقاتل الأحياء على حفنة شعير وقتلوا بعضهم البعض. البقية الباقية شرعت في بيع أطفالها. سمعنا عن قبائل قدمت نفسها عبيدا لملك البرتغال وقد تخلت عن دينها. جهة الشرق كان الوباء أشد. عجزت الترك عن مد بلاد المغرب الأوسط بالقمح. خاضت في نفسها فاستشرى الموت نيرانا في حطب جاف.

صرخت أمي في وجه أبي:

- أينهم أولئك الذين أحسنت إليهم؟ هل ردوا الحسنى بالحسنى أم تنكروا لك؟

- ردوني يا نعيمة، شتموني.

- أولادي يموتون يا إبراهيم.

- عجزت يا نعيمة وما بقي في اليد من حيلة، أشنق نفسي، أرميها في البير.. دأيني على طريق كي أرتاح.

تُشعلُ نيرانًا على نيرانِ. الجُوعُ يدعُكُ المرءَ ويُخرجُ منه أسوأ ما فيه. كَفَتُ أُمِّي عن عطفها. قابلت أبي بالجفاء. ما رحمته. ثارت في وجهه:

- ضيَّعتَ المؤونة وناوي تضيع نفسك. وأولادك؟ من يرعاهم بعدك؟ ليس من شيم الرّجولة في شيء أن تموت وتتركهم للجوع والمرض. والله لا تموت إلا إذا دفنتهم يا إبراهيم.

خرج أبي ذات جُوع، تبعته قَطُّهُ. عاد مساءً بقطعةٍ لحمٍ صغيرة. فرحنا. أكلنا القليل ولعقنا أصابعنا. أبي لم يأكل. أُمِّي اكتفتُ بالنظر إلى أبنائها يأكلون.

لم تسأل أُمِّي عن القطّة ولا انتبهنا إلى غيابها. قال أبي إنّ الأوباش سرقوها من باب المَحَلِّ في غفلة منه. ما عاد للقطّ والكلابِ مكانٌ في زمنِ الجُوعِ. «سيأكلُ النَّاسُ بعضَهُم بعضًا عمّا قريب»، قال ينظرُ إلى الأرض.

اعترف أسابيع عن غياب القطّة أنّه هو من قتلها. سمعناه يقولُ باكيًا:

- أنا قتلْتُها، أنا قتلْتُها. مددْتُها على الأرض فما تحرّكت، ذبحْتُها ولا تركّلت.. سلختُ جلدها وقطّعتُها ثمّ جنّنتُ بلحمها إلى البيت.

- أنت من أعطى الحنطة للقريب والبعيد. نصحتك أن تُمسِكَ يدك فما سمعت. أطعمتُ أبناء النَّاسِ وجوّعتُ أولادي.

ما كان يسمَعُها. انتحب. غضبتُ أُمِّي. كان الوَهْنُ قد دبّ في أوصالها. صرخت في وجهه تعيده إلى رشده:

- قَطُّتُكَ ليست أفضل من أبنائي يا إبراهيم. تبكيها وأولادك يتضوِّرون جوعًا. اخرج، ابحت عن لقمة تدفع بها عنهم الموت.

نفسى المرض في البيت. سقطت أُمِّي، وتلاها إخوتي. زاغ عبد الصّمد عن رشده وصارَ أبلها. اختصر أبي كلّ ما لحق أسرتَه في لعنة القطّة التي ذبح عمدا وأكلناها غافلين. أُمِّي ردتَه إلى الصواب ككلّ مرّة:

- إنّها يدك التي أطلقَتْها بلا حساب.

- كنتُ بالخير أدفعُ الشّرَّ الذي يسكنني.

أدهشها الرّد. تطلّعت إليه بذهول. كانت كأنّما تكتشف زوجها للمرّة الأولى.

غلب الشّرّ فيه الخير فذبح إخوتي انتقاماً من الجوع والقهر. ذبحهم ثأراً للقطّة، ونكايّةً في إبراهيم؛ الرّجل الطيّب الذي أطعم النّاس في جوعهم فصدّوه في جوعه، أو عملاً بوصيّة أمّي؛ ألا يموت إلا إذا دفن أولادها جميعاً تحت التّراب.

النَّاجِي

- 26 -

- أنا بيدرو؛ سيّدك ومولاك.

تدفعُ الأحوالُ الأحوالَ، كما تدفعُ الأيامُ الأيامَ، فتتبدّلُ الدّنيا، ريحٌ تعقبُ ريحًا فيصيرُ العزيزُ ذليلاً والذليلُ عزيزاً، لا غرابةَ، إنّما آياتُ الله تتجلى سنناً في خلقِ الله.

- كلّ الأسوارِ تعودُ إلى الأرضِ مهّما علّتْ، تَجَنُّ إلى التُّرابِ فتَهوى كجدرانِ الرَّمْلِ. حتّى الحديدُ تَأْكُلُهُ الشَّمْسُ سيّدي وينخره الماءُ فيصداً.

يضحك الضّابطُ المهووسُ برتبته فتدمعُ عيناه، تروقه جراً العبد. يرتخي، يدفعُ ساقيه فتلامسان الحشائشَ الباردةَ والزهور. في صدره تشتعلُ الألوانُ وتتدفقُ رياحُ الرّبيع. يستطيبُ لحظّتهُ، يعيشُها كأنّها الأبدُ كلّهُ. ينظرُ إلى العبدِ بازدياء:

- أو تجرأ؟ ألا تخش غضبي؟

على كرسيّه، في الطّرفِ الغربيِّ للحديقةِ المطّلةِ على المحيطِ، يرتشف الضّابطُ الشّاي. يُورُ بيّنه وبين نفسه أنّ هذا الرّجلُ البارد كقطعة ثلج أضاف رونقا على البيت، مثل قطعة أثاث رومانية عتيقة في بيت برتغالي حديث الطّراز. يتأمّل ملامحه؛ أبيض كرجل أوروبيّ، هادئ ووسيم، لكنّ ذكاه غير صافٍ.

- إلى أن تسقط الأسوارُ من حولي وتأكُل الشَّمْسُ والماءُ لحمي أبقى سيّدك ومولاك يا ناجي. ستحكي لي حكايّتك مُكرهاً؛ سأفكّ على عُنُقِكَ ووجهك إلى الأرض. يوم تفشّلُ ويزلّ لسائك أشقّ صدرك وأعطي قلبك النَّابض إلى قطني الذي لا زال ينتظرُ.

يمرّ يدهُ على فراءِ القَطّ الذي ماء بكسل. يتابع:

- جنّتُ به ليكون قريباً منك، كي يذكرك كلّ ما لاح لك أنّ هناك مخلوقاً وديعاً يتلهّف لترجلك عن الدّنيا. ستتعهده يا ناجي، تطعمه من يديك وتسقيه، ولعلّك تحبّه كما أحببته وتمنحه يوماً قلبك بطيب

خاطر.

ينحني النَّاجِي لِئُشْبِعَ رغبة الضَّابِطِ فِي التَّسَيِّدِ.

- كما ترى سيدي.

يرفَعُ بيدرو يَدَهُ، يصرِفُهُ إلى أشغاله. «لحم الخراف يواتي النَّارَ»، يقول في نفسه. في طريق النَّاجِي إلى غرفته التي في الطَّابِقِ العلوي يلمس المسافة التي تفصل البيت عن صاحبه؛ خصمان لذودان، لكنَّهما، رغم العداة البين، يتعايشان.

استطاع النَّاجِي أَنْ يستأنس بأدواره الجديدة. ألف أن يستيقظ صباحًا ويسقي الزَّهور والأشجار، أن يجهز الفطور كلَّ يوم ويضعه على الطَّاولَة التي تحت شجرة اللوز، في الطرف الغربي لحديقة البيت، بالطَّريقة المثلَى التي ترضي سيده، ويُطعم القطط جميعها. لم يستثن «ليكسويا». اعتنى به كما بقية القطط رغم إحساس الضيق الذي يعتريه كلَّما التقت عيناهما. برحل بيدرو إلى عمله في البرج فبعد النَّاجِي الشَّاي لنفسه إلى أن تأتي صوفي.

صوفي ملأت فراغات كثيرة.

يرتشف الكأس الأولى في الشَّرْفَةِ المُطلَّةِ على البحر. يجلس على كرسي بيدرو، يتأمل مياه المحيط. في تدافع الموج يرى حياته التي لا تستقر على حال. تعجبه البواخر التي تبحر في عرض البحر، يفكر أن العرب خسروا معركة الحضارة عندما سمحوا لبواخر النَّصارى أن تسود وتنقل البضائع بين الغرب والشرق. نحى الأوروبيون تجارة البركي يحرّموا المسلمين من أرباح المسالك والطرق فتسهل عليهم هزيمتهم.

مع مذاق الشَّاي الحارّ وطُيور النَّوارس التي تتناثر تحت الغيوم وسفن النَّصارى التي تختال في طريقها إلى الموانئ ينسى الأحقاد. ينتصر الجمال على الكره. تُريحه رياح البحر فيغفو لحظات. سُفنُ البرتغاليين جميلة، أشرعتها كبيرة، أجمل من سُفنُ الإسبان التي تبحر على فترات. لا يعرف سِرَّ العداة بين البرتغاليين والإسبان. كلُّهم نصارى لكنَّهم يتباغضون. سأل صوفي، ردّت عليه: «كما يتقاتل المغاربة مع الأتراك وكلَّهم مسلمون».

تختفي البواخر فتعتم الرُّؤيا، تغرق أفكاره معها في الضباب فينزل الأدرج. يأخذ الكأس الثانية في الحديقة، تحت أشجار النَّخيل. أشجار النَّخيل تذكره بالوديان السَّحيقة وسفوح الأطلس والجياد وقطعان الغنم التي لا يحدها البصر. «في فاس توجد أشجار النَّخيل، لكنَّها قليلة. نخيل أغادير ومراكش وتسورت أبيه؛ يزيل الغمة عن الصدر ويبهج الرُّوح»، يفكر دائما. أبوه إبراهيم كان

يقول لزوجته إنّ المجاهد الذي يستريح تحت ظلّ النّخلة لا يمكنه الاستسلام. النخيل يعلم الإباء وينفخ العزم في العبد فيصير بروح السيد وبأسه.

ما تبقى من كؤوس الشّاي يقتسمها مع صوفي.

تأتي فيبتهج، يصير إلى صبيّ، تتركّل الفرحة في صدره. «هذه النصرانية تأخذ لبيّ». يُساعدها في أشغال المطبخ وكنس البيت وغسل الملابس وترتيبها وإعداد الطّعام.

- أنت سيدة بيت شاطرة.

نقول له مُمازحة. دُعاباتها لا تزعجه، تجعلها أقرب إلى قلبه.

- من أين لك بروح الدّعابة يا صوفي؟

- صبية «لاسانكارا» يا ناجي. أفلحت في دفن البراءة لكنّ الدّعابة ظلّت تتبّعني.

- لاسانكارا؟

- نعم، قرية الكنيسة الواحدة وشجرة التّوت الواحدة والحقول الكثيرة.

- لكّ حي في فاس مسجد. وقت الأذان تمتلئ السّماء وتفيضُ بالصّلوات. في القرى توجد الكثير من المساجد كذلك. مساجد كثيرة لكنّ الله واحد.

تعترض:

- كلا يا ناجي، توجد الآلهة بعدد النّاس.

يفتحُ فمه، يسهُو. تعجبهُ بإيمانها وكُفرها العذب، يُصغي:

- ويموتُ الله مع كلّ إنسان يدفن تحت التّراب كما يولد في صدور الأطفال.

لن يغضب، يحني رأسه ويفكّر. تحيطه بذراعيها فيتحوّل كفرها إلى إيمان.

ينقلبُ إلى نفسه، يتفاجأ بطعم السعادة، كأنه لم يكن حرًا في يوم كما هو في عبوديته. تضع وجهها على ظهره فينسى العالم.

- صوفي؟

- نعم يا ناجي.

- تشبهين غيثة.

تصمت، تسأله:

- تفكر في الهروب؟

ترخيه، يستدير، يقابلها، تحدّره:

- إياك أن تفعل، يقتلك الجند في باب الحصن أو يقنصك الحرس على أطراف السور.

مع صمته تكبر مخاوفها:

- تعدني؟

تتسع عيناه.

- بم؟

- ألا تهرب إلا إذا أخبرتني. لا أريدهم أن يقتلوك. تفهمني؟

- أعدك.

وثقت فيه فاصطحبته في خرجاتها للتسوق وفي تجوالها في الحصن. مثل ظلّ لازمها. تعلّم حروف اللاتينية والكثير من الكلمات البرتغالية. اكتشف أنّ العالم أوسع بكثير ممّا كان يُخمن. كفّ عن النظر إليها كامرأة نصرانية.

أخذته في ظهيرة يوم إلى عرض مسرحيّ أحيته فرقة برتغالية قدمت من لشبونة. أعجبه هذا الفنّ. سألتها:

- هل هذا فنٌ جديد؟

- لا، ليس جديداً يا ناجي، عرفته أممٌ كثيرة قبلنا.

- يعزفون ويرقصون ويحكون.. فيه قليل من كلِّ شيء.

- إنه المسرح يا ناجي.

في كلِّ مرّة يكتشفُ أنّ جداراً عملاقاً كان يفصله عن العالم. لم يتعلّم في جامع القرويين عن فنّ المسرح. قرأ كغيره الفقه واللغة وكان الشّعر الحصان الوحيد الذي يركبه ليلامس الحدود القصوى للتّسامح الممكن.

ثمّ بدا أنّه يكتشفُ حياة جديدة ما كان يؤسّعه أن يعرفها إلا في حصن البُرتغاليين.

تنزل الأماصي فتتداعى ظلالُ البيوت؛ تسيل مولية بظهرها للبحر، تجلي الأميرة الحسناء الوافدين إلى بطون الأودية والشّعاب؛ تردّهم من حيث أتوا. أهل الحصن يهرعون إلى بيوتهم طلباً للإحساس بالأمان. تخلو الشّوارغ من غير كلاب تتعارك وقطط تلوذ. الرّجال الأكثر شغفا بالحياة يقفون خلف الأسوار ليتابعوا بانتشاءٍ آخر العربات تتعقّب ظلالها في سُبُلٍ متعرّجة مخافة اللّيل والمتخلّفين عن الرّكب من الرّاجلين وهم يلوذون إلى بيوت الطّين في الجبال. تسقطُ الشّمسُ فينزلُ الصّمْتُ. في البيت المشرف على المحيط يكون بيدرو قد استرخى على الكرسي، ورمى للقبط المزيد من شرائح السّلمون. سيميل برأسه على كتفه الأيسر. «إنّها الحياة التي بحثتُ عنها طويلاً»، يفكّر. ينظرُ إلى النّاجي:

- وقتُ حكاياتك يا عبد فاشد همّتك كي لا ينزلق رأسك من طرف لسانك فتُلاقي المصير.

النّاجي

- 27 -

- ناجي.

- نعم سيدي.

- إياك أن تجلس. ارو علينا حكايتك واقفا.

- أعلم سيدي.

- احذر، الجلوس ترف يفسد أخلاق العبيد.

...

«انحدر أبي من إحدى قرى الجنوب النّائية، من تلك الأراضي التي على أطراف بلاد السّوس، والتي لا يكاد يسمع عنها أحدٌ، فلم يخرج منها عالمٌ جليلٌ، ولا حاكمٌ اجتمعت عليه الأمة، على خلاف المأثور عن سيرة أهل صنهاجة ومصمودة، ولا اشتهرت بتجارة ولا زراعة، كما لم يُعرف لها أصلٌ بيّنٌ على سائر قرى الجنوب التي تتباهى بالانتساب إلى آل البيت ويحملُ بعض ساداتها لقب أكرّام دلالة الانتماء إلى بني هاشم.

كانت قريةً صغيرة على تخوم الصّحراء. عندما تهيجُ الرّيحُ تبلغها الرّمال وتُغطّي كلّ شيءٍ فلا يظنّها الغريب إلا واحدة من قرى بلاد السّودان البعيدة، ولما تصير الرّيحُ الشّديدة رياحا وديعة، وتُشتي السماء، وترتوي التّربة، وتتدفّقُ المياه في الأودية، تحسبها أرضا من أراضي الشّمال، يطولُ الزّرع ويثمر النّبات بما يكفي لسد حاجيات الدّواب والعباد. كذلك ناسها، يقول أبي، إذا هاجوا صاروا من شرّ البريّة وإذا لانوا أصبحوا من أطيب خلق الله.

ولم يكن للقرية ضريحٌ يخصّها ولا زاوية تستقوي بها على سائر قرى وقبائل الجنوب.

فلما تحدّث أبي عن قرية مولده، تُلِحُّ عليه أمي فتتراقصُ ظلال قاتمة في عينيه. تملأ له كأس الشاي، يشربه دفعة واحدة ويسهو. في الظهيرة تميل ظلال بيوت فاس على بيوت جيرانها، تحنو على بعضها، مثل خرافٍ تحتمي ببعضها البعض.

- إيه يا نعيمة، لا تزال رائحة دروب تلضي تسكنني، مثل وجع قديم تعود.

تملاً له كأس شاي آخر.

- احك يا إبراهيم، احك، من حكاياك أعرفك أكثر.

- أو لم تعرفيني بعد كلّ هذا العمر يا نعيمة؟

يسحب عودا من حزمة حطب الكانون، يشرّع في رسم خطوط على الأرض، أرى التلّ وبيوت الطين والبيادر الصّغيرة ووجوه رجالٍ يغسلها العرق، يتكلم فتشرع الخطوط في الانزلاق.

كان أبي ساحرا. لو لم يكن كذلك لما تحرّكت الخطوط على الأرض وتتابعت أقدام الناس على المسارب تتسلقُ تلّ تلضي. أمي ترى حكاياته رسماً على الجدران. أنا أراها في خربشاته التي على الأرض. يصمت حيناً فتلحّ عليه.

الحكايات التي تتعبُ أبي تريح أمي وتنعشُ ذاكرتي.

إخوتي يشربون الشاي ويأكلون الحرشة والبغريير وينقلبون إلى عوالمهم الصّغيرة، يلعبون، بين القبو والبهو، إلى أن تغرق المدينة في الظلام، فيولون إلى العُرف. يغسلهم العرق وينامون كملانكة؛ بلا أحقاد ولا أحزان.

حكاية تلضي لا تعني لهم شيئا، ربّما لأنهم كانوا قيد الموت. وحدي كنت أتسمّر في مكاني أصغي، أنا الذي اختارني القدر لأروي حكايته وحكايتي.

يصمت أبي، يمدّ يده نحوي:

- إيّاك أن ترحل بعدي إلى تلضي، لا يغرتك الفضول، فأهلها لا ينسون، سيذبحونك متى علموا أنّك من نسلي.

مع الغروب تحتدّ كلماته، يمسح الظلام الخيوط فتتسلّل الحُرُوفُ مثل شياطين إلى صدري. تغرّقُ البيوتُ في الظلام وتغرّقنا معها. تسرّجُ أمّي الفانوس فتنبت الوجوه من جديد، يواصل:

- قتلوا أعمامي فاضطرّ أبي إلى الهروب، حشرني في شوال وضعه على الدابة ومضى بي ليلا في الوديان مخافة أن يدركوه في المسالك. في منتصف الطريق إلى فاس، وقد اطمأنّ لنجاتنا، أجلسني على ظهر البغل، سألتُه عن أمّي. «ماتت، ذبحوها مع أعمامك». لم يواسني وأنا أبكي. أعطاني القليل من الماء الذي بقي معه وسار يسبق البغل. «لو بقيتَ لذبحوك معها». ما سألتُه عن الجرم، أعرف أنّ رجال القبيلة اتّهموا أعمامي بالسعي إلى إحياء ديانة البرغواطيين. آمنوا بصالح بن طريف نبيا بعد هلاك إماراته قرونا خلت. اجتمع شيوخ القبيلة وقرروا أن يتخلّصوا منّا جميعا قبل أن يصلَ الخبرُ إلى القبائل التي في الجوار فيذبحوا رجال القرية كلّهم ويسبوا النساء. كان أعمامي قد حقّظونا قرآنا جديدا، بلسان مازيغ، والكثير من تعاليم صالح.

ما صلّح رأبهم، أفسدوا علينا حياتنا.

في فاس سلّمني إلى تاجر فخّار. قال له بصوت يابس:

- خذه، لعلّه يصلّح لك في شيء.

استدار يركب بغله وسار في الزّحام. لم أتبعه. تركته يرحل في هدوء. تاجرُ الفخّار الذي ظلّ منذهلا لا يعرف بأيّ شيء ابتلي استفاق متأخرا. كان أبي قد مضى. صرخ في وجهي:

- ابتعد عن المحلّ، اتبع والدك.

لم أفعل، تشبّثتُ بدفة الباب. ركلني فابتعدتُ خُطواتٍ. كان مساء ثقيلًا، تفحّمتِ البيوتُ والجدرانُ وبقيتُ على حالها سنيًا. مع الليل خلت الدروبُ. أغلق التّاجر باب المحلّ، تجاهلني لما نظرتُ إليه. لم يكن لي من أحد. راح يقرع بمفاتيح المحلّ الكثيرة.

تحجّر الصّوتُ في أذني كما تحجّرت جدرانُ البيوتِ المحترقة في عيني.

ابتعد التّاجر. لا أزال أشعر بالخواء الذي تركه في صدري يا نعيمة. مع كلّ خطوة يخطو كنتُ أعرقُ في مكاني. ابتلعه الظلام فأحاطتني مخاوف الطفل المهجور. التصقت بدفة الباب وجلستُ انتظرُ رجوع أبي.

عاد التّاجِرُ فجراً، على خلاف الأَمس، عاملني بالحُسنى. أدخني إلى المحلّ، أطعمني وسقاني ثمّ أخذني من يدي إلى فراش نظيف وسمح لي أن أنام.

- استرح، ستنام هنا منذ اليوم وتعمل بأجر ولن ينقصك خير.

سار إلى وسط المحلّ، توقّف ثمّ استدار نحوي.

- لا تنتظر والدك، وجدوه مشنوقاً تحت شجرة كروم على أطراف السّور. أنا وليّ أمرك فلا تحمل همّاً لشيء.

لم أبك أبي كما بكيتُ أمّي. سحبتُ الفراش ونمتُ. شعرتُ بالأمان رغم اليُتم. حلمتُ بقرية تلضي وبيوت الطّين التي تتسلّق التّلّ متبوعَةً بالكروم تغرقُ تحت رمال الصّحراء.

نكس إبراهيمُ رأسه، نظر إلى أمّي:

- لا تسأليني مرّة أخرى عن تلطي يا نعيمة.

...

- ناجي.

- نعم سيدي.

- هذا يكفي لليلة. دع بقية من كلمات ليوم غد.

- حاضر سيدي.

- لا زال في جعبتك الكثير؟

- الكثير سيدي.

- كم؟

- ملء البحر.

- مَمِّم، وَأَنْتِ تَضَعُ رَأْسَكَ عَلَى الْمَخْدَةِ لَا تَنْسَى فَصِيلَ الْإِعْدَامِ، تَذَكَّرُ بِاسْتِمْرَارِ أَنْ قَطَّيْتُ الشَّبَقَ
يَتَرَبَّصُّ أَبَدًا بِقَلْبِكَ.

- إِنَّمَا الْأَعْمَارُ بِيَدِ اللَّهِ.

- بَلْ بِيَدِي؛ أَنَا سَيِّدُكَ وَمَوْلَاكَ.

أحمد السبتي

- 28 -

كان صباحا رانفا من صباحات فاس. شرعت المدينة في استعادة عافيتها متغافلة أحرانَ الأمس. عاد البديون إلى عاداتهم القديمة فركبوا دوابهم وعبروا في دكنة الفجر المسالك يقصّدون عاصمة النّظام والفوضى والعلم والجهالة ومربط الإيمان والمجون وموطن الكذّ واللّهو. سيمضون، كما كانوا يفعلون دهرا، عبّر الدّروب، على عتبات البيوت، ويتنفسون روائح المطابخ العابقة ويسترقون النّظر من فجوات الأبواب المواربة والشرفات المشرعة للشمس وعيون الفضوليين ليعايروا زوجاتهم مساء بشطارة نساء فاسيات لا تضاهيهنّ بقيّة نساء الدّنيا في شيء.

ساداتي، إنّها فاس التي لا يكتمل سلطان ملك دونها، ولا علم عالم جليل ما لم يطأ أرضها؛ المدينة التي تراود أحلام الأفارقة من بلاد البيضان إلى بلاد السودان، وتغازل شرقا شبق الترك التواقين لأرض المغرب وتستثير لواجع الرّوم غربا فيأتون إليها راغبين صاغرين.

كلّ مساء، وقد صرفت المدينة الحجيج الذين جاؤوا إليها رجالا وركبانا إلى الشعاب وبيوت الطين وآوت الباقيين في غرف الفنادق والنّزل، تعود إلى أتراح بني مريم؛ تتذكّر عطاياهم وتحنّ إلى مواكب شموع أعياد المولد ومواويل عيد الفطر البهيج. تبدو في جلاباب المساء مثل نساء الأطلس، شامخات أكثر وقد تلبّسهنّ الأسى.

مدينة الوفاء والنّكران.

استفاقت فاس مرّة أخرى، دفعت السيدة الفاتنة ملاءة الحزن فلاحت البيوت تحقّها المآذن. شرب حرس أهل السوس على البوابات حساء الفول الساخن وزيت الأركان وضربوا بأبصارهم في المسالك يجيشون بشعور القوّة الفيّاض. فاس تستطيع اليوم ردّ التّرك إلى مرابضهم التي في المغرب الأوسط وقهر البرتغاليين ودحرهم عن شواطئ إفريقيا.

- فعل السّعديون ما لم يفعله بنو مريم يا أحمد.

قال البشير ثمّ ارتخى على الأريكة. يُشعره الرياض الرّابض في فاس البالي بالسّكينة. تنفّخ أفكاره كما تنفّخ نوافذ البيوت في وجه بعضها البعض فيبدو الحيّ بيتا كبيرا. «أحياء فاس بساتين

زهورها الصبايا». لو لا صهره الأسير في حصن البرتغاليين لأجل السفر أكثر. اكتشف أن عشقه لفاس قديم، سابق على مولده.

عبّ الهواء ملء رئتيه ثم تنهّد:

- تمدّ لهم جسرا إلى قلبي يا بشير؟

سحب البشير كتاب المقدّمة بينما تضع عائشة صينية الشاي.

- كلا، بل أعرف كرهك لهم، إنّما أفلحوا في الحرب وأجادوا دفع الغزاة.

نهض أحمد. ما كان مهتمّا بانتصارات السعديين على الأتراك وترهيب البرتغاليين في الثغور. ألقى البرنس على ظهره وشدّ الحزام حيث تدلّى على طرفه الأيمن سيف بطول ذراع.

- أمّا أنا فلا أعترف لهم بشيء.

استدار يهّم بالخروج.

- أصحابك إلى حيث تقصد يا أحمد؟

- بل تبقى في البيت إلى أن أعود.

سار أحمد، جسده يتعافى بينما روحه مريضة تطلّب الثأر. الدروب المسقوفة بالقصب تخنقه، تمتدّ ظلّاتها قُضبانًا على الأرض. فتح التّجار أبواب محلاتهم وصدّوا الأثواب والمعروضات لصق بعض حتّى لا يكاد الرّائي يميّز بين سلعة هذا وذاك، وتعالّت أصوات الباعة كالنّعيم وعمّت الفوضى الجميلة التي لا يفهمها غير الرّاسخين في عشق فاس.

مضى إلى فندق لالة عشيّة. يريد لها مهمّة موقّفة أيّا كان الثمن. على عكس أهل فاس لم يُردّ للمدينة أن تتعافى. وجب عليها أن تتألّم وتتمخّص حتّى تلفظ من أحشائها حكّامها الجائرين. اجتاز زحمة دروب فاس البالي إلى البطحاء ومنها تيمّم الفندق.

لم يكن ثمة أفضل من عبد الهادي زرغون سبيلا للوصول إلى عصابة التّرك. القائم على شؤون فندق لالة عشيّة يدخل البيوت جميعا ويلج قصور الولاية بيّسر كما يلج قضيب السيّد رحم الجارية. يدخل في كلّ ساعة يشاء ولا يخرج إلا إذا أقنع واقتنع. وحده في فاس كلّها من يعرف كيف يأتي

بالفاكهة طريّة، طازجة، وينتقي لكلّ راغب ما يرغب فيه. استظلّ بظلّ الخلفاء السابغ ونعم بعطايا المخزن. عند العامّة كان قوّادا شهيرا، مهاب الجانب، لا يجرأ أيّ كان أن يطأ ظلّه.

عرفه النّاسُ بحصانه الأدهم، بينما كان هو شديد البياض، طويل القامة، ينسدل شعره الفاحم خلف ظهره غزيرا كشلال.

استطاع عبد الهادي أن يبني رياضاً فاخراً في فاس الجديد، على مقربة من قصور كبار التجار وعلية المدينة، حتّى قيل إنّ عمارة رياض الهادي أبهى من عمارة قصر الوالي نفسه.

وكان منحرف الهوى، مثل النّساء يعشق فحولة الرّجال ولا يبالي إذا ما انتهى رجلاً أن يتغزّل به علناً فيتباهى بعشقه لمحارب من عامّة النّاس أو قائد من كبار السّاسة. يغرم بالواحد فيجتهد حتّى ينال منه ما يشتهي.

دخل عليه أحمدُ في جلسته الأثيرة تحت قبة الفندق وبين سوارى الرّخام العالية. كان عبد الهادي مسترخياً في أريكته في قاعة الضيوف التي لا يدخلها عموم النّاس. في لباسه الفاخر الذي من حرير يبدو أقرب إلى المرأة من الرّجل. اشتهاه الكثير من الرّجال لكنّه لم يكن متاحاً لغير الذين يرغب فيهم هو. لا يمنح طرفه إلا لمن يجد فيه رجولة استثنائية وفحولة راسخة.

- ما الذي جاء بك إليّ يا أحمد؟

- خدمة مولانا السلطان.

ضحك عبد الهادي، أزاح خصلات شعره عن وجهه. كان مرتاحاً في حياته، راضياً عمّا حقّق، بعدما تنكّرت له عشيرته التي في الحوز. طرده شيوخها وحذّروه من الرّجوع. بعد سنين جاء إليه كبار القبيلة يرجون منه ما لا يرجون من غيره. طلبوا منه الوساطة ليبلغوا ديوان السلطان. لم يطردهم، استضافهم ثلاثة أيّام كاملة ثم طلب من الحرس أن يشيّعوهم إلى باب بوجلود ولا يسمحوا لهم بدخول فاس مرّة أخرى.

تمدّد. رائحة عطره فوّاحة. مطّ شفتيه.

- متى والبيت محمد الشّيخ وأنت الحاقّد على السّعديين؟

جلس أحمد قبالتة. أذهله الرّد. واصل عبد الهادي:

- أرايت كم صبرتُ عليك؟ لو لم تكن لك في قلبي معزة لبعثتُ كما فعلتُ مع غيرك.

ابتسم، شرب من كأس شاي وطلب من خادمه أن يملأ كأس الضيف. تابع:

- كلُّ ما يجري في فاس يبلغني. الطيور التي تعبر سماء المدينة أحصيها يا أحمد. أعرف من أين جاءت وأيِّ بلاد تقصد. لا أغلق باب بيتي إلا وقد أغلق الحرس الأبواب التي على الأسوار، وخلت الأسواق، ودخل كل حيِّ إلى مخبئه.

تنحى أحمد، لا يريد أن يسقط في خلافات لا طائل له منها. تحامل على نفسه، ارتشف من كأس الشاي.

- أعرف مكانتك وقربك لأصحاب الشأن. وقد جئتك للغرض نفسه.

- تعجبني صراحتك. هيا، قل لي في أيِّ أمر قصدتني.

- أريد أن أنال ثقة محمد الشيخ ويكون لي بين رجال التّرك موطن قدم.

- ما تطلبه صعب يا أحمد.

- لا شيء يصعب عليك.

- نعم، هذا صحيح.

ارتشف الشاي، نظر إلى القبّة. النوافذ العالية تسيل بالضوء فتسقي جسده الأبيض بالمزيد من البياض. تابع:

- أقصد أنّ طلبك صعب، لا عليّ، إنما عليك.

- أوضح.

- تطلب منّي رقبة السلطان ولست براغب في ذلك.

«هذا القواد يحسب نفسه ملك الملوك»، قال في نفسه. ابتسم عبد الهادي، داعب طرفه بأصابعه وانتظر قليلا. بادر أحمد:

- ما جنئت إليك..

قاطعه:

- تعال يا أحمد، إجلس إلى جانبي.

تردد واضطربت يده التي تقبض على الكأس. عندما نظر إليه وجدّه هادئاً ووثقاً. اقترب منه، جلس إلى جانبه. مدّ عبد الهادي يده، داعب السيف المشدود إلى الحزام.

- لك ذلك يا أحمد، لن أردك خائباً، كن لي أكون خادماً لك.

زمرة التّرك

- 29 -

تكدّر مزاج التّركيّ وعبد الهادي يلزمه باستقبال زائر ثقيل الظل. تابع الجارية حُمريّة البشرة تضع فاكهة مجفّفة على الطّاولَة. كانت جميلة بحقّ، ثمرة تلافّح بين أكثر من عرق، ثمّ عقد يديه ينظر بصبر نافذ إلى الفانوس المتدلّي من السّقف. كان اللّقاء، في المكان نفسه، تحت القبة وبين سواري الرّخام التي ترتبط بحذوات جبص منقوشة ببراعة أيدي الوافدين من شواطئ إيبيريا. صرف عبد الهادي الخدم الذين جاؤوا بالشّراب وانصرف يترك لهما متّسعا لإبرام اتّفاق.

نظر القادم من القسطنطينية إلى السّقف الهرمي، ركز نظرتَه لحظات على الفانوس الضخم تحمله سلسلة بطول أذرع. ما كان قهرمان يرغب في تبديد الوقت في النّظر إلى طلبات رجل من أهل فاس. بصوت جافّ سأل:

- في أيّ أمر تريدني؟

تريّت أحمد إلى أن انصرف آخر الخدم. على خلاف التّركيّ كان أحمد هادئًا. تلك المسافة من الصّمت تركت وقعها. تعمّد أن يرد السؤال بسؤال:

- متى دخلتم فاس؟

فطن التّركيّ لما يرمي إليه الرّجل. كان في كلّ حركاته وسكناته يشير إليه كغريب وجب عليه أن يبدي احترامًا أكبر لأصحاب الأرض.

- ليس معي ما يكفي من وقت، أفصح، في أيّ أمر تريدني؟

- في أمرٍ يهّمنا جميعًا يا قهرمان، ويعني زمرة رجالكم التي ستلحق بموكب السّلطان في تارودانت.

«هذا الغبيّ يستبدلني»، فكّر التّركيّ. أخفض رأسه قليلا عمّا كان. الحديث عن زمرة رجال تارودانت أزعجه. حاول أن يلتفت.

- أنا قهرمان باشا فاحفظ لسانك يحفظك.

بالهدوء نفسه وبيروود يختصر الكثير من الكلمات:

- أكره الألقاب يا قهرمان، يستوي عندي العربي بالتركي والمغربي بالرومي، كلّ الأعناق أنحرها وقت لا ينفع غير حدّ السيف.

- هاتي ما عندك ولا تثر غضبي أسلم لك.

- مسعانا واحد يا قهرمان.

نظر التركي في عينيّ الرّجل يختبر عزيمته، وجده، على خلاف ما خمن، ثابتا كسارٍ. تابع أحمد كلامه:

- اسمع، وهذا أهمّ من اللّقب الذي تفتخر به، أنا أريد رأس السلطان الذي جنّتم لأجله، وأعرف الطّريق السّالك إلى رقبته.

صعقه بما قال فوقف من فوره. صرخ:

- ويحك.

هزّه السّرّ المكشوف فارتعب، ذهبت اليد إلى مقبض السّيف ثم تراخت. استمرّ أحمد هادئا. سحب كأسا وارتشف جرعة شاي كأن الأمر ليس أكثر من حديث بسيط، وعابر، يتبادله رجالان في كرسيّ مبغى.

- ألم أقل لك إن مسعانا واحد.

- نحن هنا لأجل مولانا محمد الشّيخ.

- بل جنّتم بأمر من سليمان. سلطانكم يريد بلاد المغرب بلا قتال مع السّعديين، وسلطان المغرب يريد حكما بلا ولاء لأحد ودولة تكسر هيبة بني عثمان وسطوة البرتغاليين والإسبان وتعيد لهذه الأرض هيبة حكامها الأولين.

أشار إلى الأريكة يدعوّه إلى الجلوس:

- اهدأ، لا تقلق. هناك غيري من يعلم بأمركم، لكنّ أحدًا لن يتحدّث، نحن على الكراهية نفسها من محمد الشّيخ.

زفر التّركيّ ثمّ جلس. أسوأ أحلامه أن يتسرّب الخبر ويشاع. لم يجد بدا فسأل:

- من أين علمت بهذا؟

ابتسم. عيناه السّاخرتان تشغل حقد الرّجل. كان أذكى من محاوره.

- من الفراشات القادمة من القسطنطينية.

- لا تلعب معي.

- ولا تعد على مسمعي أسئلة كهذه، خذ منّي ما أحبّ أن أعطيك ولا تسأل عمّا أحجّم عنه. لن يفيدك الجواب في شيء.

«هذا الوقح يتلاعب بالكلام، يحسبني رجلا من العوام، لا بأس، سأريه حجمه متى سنحت الفرصة»، فكّر التّركيّ. ابتلع ريقه ثمّ قرّر أن يتقدّم إلى الأمام:

- وما الذي يضمن لنا ولاءك؟

- حسبتك أذكى.

وخزه. تماسك قهرمان باشا. ما سبق له أن تساهل مع أحد في الكلام.

- أوضح.

- لو كنتُ أريد بكم سوءا لفعلتُ. ما كنت لتري غير سيف الجلاذ يقطع رقبتك. محمد السعدي يقتل إذا شكّ، يقتل إذا توجّس؛ يحسم في الأمور كلّها قبل أن يلامس ظلّ عدوه ظلّه.

- لسنا خرافا يا رجل وما جننا لنمدّ أعناقنا لجلاذيكم.

وضع أحمد الكأس على الطّاوله ثمّ قابله بالذي في قلبه:

- اسمع، أنا لا أحب الأتراك، لكنني أبغض الشيخ. ما يجمعني معك شيء واحد؛ رفضي للسلطان الجديد. إذا رغبت في ما قدمت اتفقنا، وكان الاتفاق بيني وبينكم عهدا لا غدر فيه ولا خيانة، وإذا رفضتم انصرفتم إلى غيركم دون أن يلحقكم مني أذى.

- وما الذي يضمن لك وفاءنا؟

نهض عن أريكته، دفع دفة القاعة التي تفتح على باب الفندق المفتوح فتدفق هواء فاس اليبارد محملا برائحة التين والكروم والبساتين. لم يكن ثمّة من أحد، ذهب الخلق إلى مرابضها لتهدج. في الخارج كان الليل جيشا من الغزاة يحطّ. هدا التركي، بدا كلام الرجل منطقيًا ومتماسكا. سأله:

- لم تكره سلطانكم الجديد؟

تذكر أحمد معلّمه. طاف وجّه عبد الواحد الباش ورنّت حروفه التي طالما سكّنت أوجاعه. لن يضعف. ليس هذا مكانا مناسبًا.

- هذا الأمر لا يعنك، لا يعنك في شيء.

تجمّع الأتراك في القسبة التي خصّهم بها محمد الشيخ وتحصّنوا داخلها مخافة أن تغدر بهم وشاية الوشاة. ترقّبوا جيش السلطان. عندما أطل اليوم الرابع فتحوا الأبواب ونزلوا إلى الشوارع، باتوا على يقين أنّ الرجل الفاسي لا يبيعهم الوهم. خرجوا إلى حارات فاس وأزقتها، خطفوا نساءً من أبواب الحمامات وصبيانا من عتبات بيوت آبائهم وعادوا بهم إلى القسبة، كانوا جياعا للمال والجنس، وعطشى لدم السعديين.

في القسبة تنبّه الأتراك أنّهم فقدوا عددا من رجالهم. نزلوا يبحثون عنهم فوجدوا رجالا مذبحين ومرميين في واد فاس. الجثث الأخرى عثروا عليها على أطراف سور باب الخوخة حيث يسقي الواد البساتين.

- هذه الباب بناها المولى إدريس قبل قرون ليقصد منها الخارجون من فاس بلاد تلمسان.

قال لهم أحد الحرس. فهم الأتراك المغزى ونظروا إلى وجوه بعضهم البعض يتساءلون متى وكيف أمكن لرجال فاس أن يصطادوا رجالهم ويمثلوا بجثثهم. كانوا جماعات ولم يتركوا فردا منهم وحيدا ليسهل النيل منه. طلبوا من حليفهم الفاسي جوابا فرد عليهم:

- لا تقربوا نساء فاس ولا تلمسوا أبناءها.

حملوا جثث أصحابهم، صلوا عليها ودفنوها خلف سور القصبه، ثم دخلوا حزانى وفي صدورهم خوف من يوم غد.

- ما جننا لنموت هنا.

قال جندي تركي هاجمه الشوق لإسطنبول التي قدم منها.

- جننا لنقاتل؛ إما أن نموت أو نعود منتصرين.

ردّ زميله. اعترض الجندي المبتئس:

- هؤلاء مسلمون مثلنا.

- تخشى الموت؟ سنموت يا صاحبي في نهاية المطاف، إما هنا أو في مكان آخر من الأرض فلا تتقل عليك. نحن محاربون، والمحاربون لا يتهيّبون المخاطر.

«نموت؟ لأجل من؟»، فكّر أيهم الإسطنبولي، لكنّه لم يملك الجرأة ليفصح. «ذاك الذي أخطر لأجله ينام في قصره محاطا بالحريم، ينكح ما اشتهى كلّ ليلة ويطلق فينا أوامره. إذا هزمت جيوشه عاب قادته وإذا انتصرت امتدح بصيرته».

سحب الغطاء ونظر إلى الجدار. شعر بقسوة الأرض وخشونة طبائع الناس. ضُربت رقاب أصحابه بالفؤوس. «لِمَ لم تُضرب بحدّ السيف فتكون ميتة نقيّة؟ تراهم تعمّدوا التمثيل بهم ليرهبوننا؟» تحسّس رقبته. هل يأتي الدور عليه يوما ويستسلم لحدّ الفأس. بكى في صمت كي لا يسمعه أصحابه فيذبوه. الجندي لا يبكي، يسبح في برك الدّم ولا يابه. إذا خاف انتهى.

«هذه أرض قاسية، كأننا في أطراف الدّنيا التي ليس بعدها شيء. أسطنبول العزيزة على القلب بعيدة جدًّا؛ على الأطراف الأخرى للعالم. لمّ جننا إلى هنا؟ أرض قصيّة وغريبة، لا تنبُت عليها الزهور إلا وقد حقّتها الأشواك. إذا فكّرت في قطف زهرة أدماك الوخز. شوكتها سام، يقتل. بلاد مختلفة في كلّ شيء، في نهارها سواد الليل وفي ليلاها الخوف الأسود من نهار غد. ما رأيت أرضا مثلها ولا أحسب أنني أعيش بعدها لأرى أرضا أخرى».

نام مُتعبًا ومُنهكًا يحلم بالفرار إلى أرض أجداده التي في ضواحي إسطنبول ثمّ استفاق فزعا على يدي صاحبه تهزّه هزًّا:

- قم، هيا، أسرع.

استيقظ على الهرج زائع النظرات.

- جاؤوا ليذبحوننا.

كركر صاحبه، ضربه على رقبتة فأوجعه:

- أسرع لتأخذ نصيبك من هدايا السلطان.

تنفّس بارتياح. لم يقتحم جند السّعديين القصبه. منح السلطان الأتراك الكثير من الإماء كي يرفعوا أيديهم عن نساء فاس، وحتى لا يعود رجال المدينة لضرب أعناق جنودهم. أشاح دلالة الرّفص:

- لا أريد نساء هذه الأرض.

- بل برتغاليات وإسبانيات من سبايا مجاهدي البحرية.

- ولا نساء روميّات.

عاد إلى الفراش. يخشى أن تأتي على أجساد النّساء فؤوسُ رجال فاس. استرخى، حاول أن يسترجع تفاصيل زوجته ووجه أمّه التّحيف، ابتسم ببله ينظر إلى السّقف:

- اهرب إلى اسطنبول وليقتلوك هناك.

النّاجي

- 30 -

إيه يا ناجي، حكايةُ الرَّجُلِ الذي يطعمُ الناسَ لحمَ صبيانهم تروقني، فيها الكثير من الخبث وشيءٌ من دهاء، لكنّها تشبّه حكاياتِ الجدّاتِ اللّواتي يُرهبُنَ حفدتهنّ كيلا يكسروا أوامرهنّ ويجتازوا بلا إذن عتبات أبواب البيوت.

حكاياتك جميلة، أعترف، تُمْتِعُنِي، إنّما احذر الاجترار. لا أريد أن أسمع الحكايات نفسها مُرَكَّبَةً في كلمات جديدة، اشحذ لسانك كي لا تخسر الرّهان. أوه، هاهو قطي الأصهب يدخل في الموعد، يروق له أن يأكلَ شرائح السلمون وأنت تحكي.

هذه القطط تهوى الحكايات، وشرائح السلمون، مثلي تماما، وتعشق مداعبة الفرنان حتّى الموت. نقتلها ولا تأكلها.

واصل لعبة الكلمات. لستُ معنيًا بالصدق. الكذب أدعى للاحتفاء. أريدُ الرّيحَ التي تعصفُ وتخلّفُ الخراب. هيّا يا ناجي، أتر المزيّد من الرّوابع وأرني كيف تأخذ الكلمات اللّبّ وتستولي على الفؤاد وتولد المتعة التي لا تضاهيها غير متعة الدّم.

... ..

«نعم سيدي، يذبّحُ ويُقطّعُ ويأخذ اللّحم إلى السّاحاتِ كي يعودَ بصبيان آخرين ضامري الأجسام زائغي العيون. لم يصطدهم على عتبات البيوت وقد خرجوا في غفلة عن الكبار كما تحكي الجدّات، بل انتزعوا قهرا من أيدي آباء مأخوذين بهيبة الموت. هذه حكايات فاس سيدي، فاس زمن الطّاعون والفتن.

هل زرتَ فاس من قبل؟

ستشعر بأرواح الذين ماتوا خلف الأسوار وداخلها تحفّك كالفراش. فجأة، وأنت تعبّرُ باب الفتوح يمتلئ صدرك بأفكار كثيرة وأحاسيس لم تراودك من قبل. إنهم الرّاسخون إلى الأبد، الباقون معلّقين في كلّ شيء، التّواقون للتّجلي في فوضى الخواطر مع كلّ زائرٍ يعبرُ أبواب المدينة إلى ذاكرتها.

كلا، فاس ليست ككلّ المدن سيدي، ذلك لأنّها بأكثر من روح، وأكثر من وجه، تولي شطر الجنوب فتتلوّن برمال الصّحراء، لا بدّ أن ترى القوافل تفيض بملثمي الوجوه والجِمالِ المُحمّلة بالتّبر والملح تجري مجرى الماء في الوادي، تتيّم شطرَ الغرب فتلوح قِمَمُ الأطلس بأوشحة الثلج البيضاء. تلامسُ مع كلّ هبة ريح حرّ بلاد التّكرور الشّاسعة وبردَ جليد أراضي الشّمال.

تعرف مدينة مثلها سيدي؟

ستشعر بالآلام مع ضيق الدّرُوبِ ويغمزُك الفرح في السّاحات الفسيحة التي تفتحُ على سماء بكلّ الألوان وسُهولٍ عامرة بالخيل والخير والعذراوات.

رُزُ فاس سيدي، رُزها ومرّ على أسوار بيتنا القديم. توقّف أمام الباب وعش زوايح أخرى آتية من الماضي، سيجيش صدرك بأحلام الصّبية المطمورة ويغمزُك الإحساس بالغير يسكنك. بعدها لن تبقى أنت كما كنت.

كان أبي يذبُ قرابينه في البهو، وفي القبو، ويأخذهم أحيانا إلى الغرف.. ربما ليلا مس الدم كل شبر من الدار.

ليلا يسمع الجيران، حتّى أيّامنا هذه، انتحاب الأطفال يطلبون النّجاة. يُطلّ المتوجّسون من التّوافذ فلا يجدون شيئا، يشعرون بالرّهبة من منظر البيت العارق في الظّلام، يتهيّبون، وعندما تكاد رائحة الدّم تخنق أنفاسهم يلوذون إلى الفراش.

يُشبّه بيتنا القديم مشهد بحيرة تُحاصِرُها الجبالُ والليل وذاكرة المقهورين.

سليلاً قرية تلضي؛ البقعة الهاجعة على أطراف الصّحراء، والمقهور الوافد إلى فاس صبيّاً صغيراً، صار وحشاً كاسراً يموت صاحبه وبنيه. ستحكي عنه فاس طويلاً إلى أن تُحبّ محنة تلي المحنة التي سبقت.

فاس مدينة تأكل أبناءها كلّما جاءت. تُصيبها المحلّ بالجئون فتطلق يد الجوع والطّاعون في الأهالي.

إبراهيم كان أحد رجالها المخلصين.

خرج في مساء يحملُ قفّة اللحم تُغطّيها قطعة قماشٍ سوداء. تبعته خفيّاً كظلّ مضي. قطع دُرُوباً كثيرة لم أبلغها من قبل. ما التفت إلى خلف. مشى واثقاً. لن يتجرأ أحدٌ على اعتراضه. نفذ الطّاعون إلى قُصور الأمراء والسلاطين وإلى رياض الولاية فانكشمت سطوبة المخزن. لا حكم في

رَمَنَ الوَبَاءِ لِغَيْرِ الْجُوعِ وَالطَّاعُونَ. هَلَكَتِ المَوَاشِي وَتَبَدَّدَ الزَّرْعُ وَفَسَدَتِ التَّجَارَةُ وَضَاقَتِ الأَرزَاقُ
فَشَحَّتِ خَزَائِنُ السُّلْطَانِ. حَزَمَ آخِرُ رِجَالِ السُّلْطَانَةِ أَمْتِعَتَهُمْ وَهَرَبُوا إِلَى الجِبَالِ، تَرَكَوا العَالِقِينَ
لِلْجُوعِ وَالطَّاعُونَ وَالمَوْتِ.

سِرْتُ خَلْفَهُ فِي دَرْبِ طَوِيلٍ. كَانَ دَرْبًا طَوِيلًا جَدًّا، مِثْلَ نَفْقِ بِلَا مَخْرَجٍ. مِنْ فَوْقِي كَانَتِ السَّمَاءُ
بِلَوْنِ القَيْحِ تَنْفُخُ رِيحًا حَارَّةً وَفَاسِدَةً. الأَحْيَاءُ مِنَ النَّاسِ أَقْفَلُوا عَلَيْهِمْ دَاخِلَ بِيوتِهِمْ. البِيوتُ المَفْتُوحَةُ
الأَبْوَابُ أَهْلَكَهَا الطَّاعُونَ فَصَارَتِ خَرِبًا.

المَوْتُ يُجَلِّ الحَيَاةَ سَيِّدِي؛ يَجْلِّهَا، يَجْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْظَمَ مِمَّا كَانَ فِي السَّابِقِ، وَيَنْفِخُ المَزِيدَ مِنْ
المَعَانِي. تَطَلَّعْتُ إِلَى شُرَفَاتِ البِيوتِ، لِأَمْسَتْ فِي عَزَلَتِهَا جَمَالًا جَارِحًا وَنَافِذًا. لَنْ أُنْسِيَ صَفِيرَ
الرَّيْحِ، رَعِشَةَ دَقَاتِ النَّوَافِذِ وَالسَّوَادَ المَتَكَوِّرَ فِي أَغْوَارِ البُيُوتِ.

ثُمَّ تَعَلَّمْتُ أَمْرًا جَدِيدًا سَيِّدِي؛ صَدُورُنَا تَحْفَظُ المُدُنَ الَّتِي نَعِيشُ بَيْنَ أُسُورِهَا، تَعْقِلُ الأَلْوَانَ وَالرَّوَائِحَ
وَقَسَمَاتِ الوُجُوهِ. نَحْمِلُهَا مَعَنَا أَيْنَمَا دَفَعْتَنَا الرِّيحُ فَتَصِيرُ أَحْزَانُهَا أَحْزَانُنَا، حَتَّى إِذَا ابْتَعَدْنَا عَنْهَا شَدْنَا
إِلَيْهَا رَسْمَهَا وَظَلَّهَا الرَّاسِخَ فِينَا.

كَلَمَا طَغَتِ المَدَنُ عَلَى أَصْحَابِهَا زَادُوا افْتِنَانًا بِهَا وَتَعَلَّقُوا بِذَكَرِهَا.

سَارَ أَمَامِي بِجَلْبَابِهِ الأَسْوَدَ يَحْمِلُ قَفَّةَ اللَّحْمِ. فِي نَهَايَةِ الدَّرْبِ الطَّوِيلِ لَاحَ ضَوْءٌ يَعْشَاهُ المَسَاءُ. مَالَتِ
الشَّمْسُ تَتَأَبَّطُ أَمْرَاضَهَا إِلَى نَهَايَةِ يَوْمٍ. فِي الطَّرْفِ الأَخْرَ مِنَ السَّمَاءِ رَحَفَ اللَّيْلُ فِي وَثُوقِ تَسْبِيئِهِ
نُدْرُ الشُّومِ.

بَدَتْ أَرْضًا بِلَا غَدٍ.

انْسَلَّ إِبرَاهِيمُ عَبْرَ الدَّرْبِ إِلَى سَاحَةِ وَاسِعَةٍ. نَظَرْتُ حَوْلِي؛ أَبْوَابُ المَحَالِّ مُقْفَلَةٌ بَيْنَهَا تَنْفَرَعُ دُرُوبٌ
طَوِيلَةٌ إِلَى مَحَالِّ وَسَاحَاتٍ أُخْرَى. فِي الطَّوَابِقِ الأُولَى حَيْثُ الشَّرَفَاتُ تَبْرُزُ بِأَسْفُفِهَا الخَشْبِيَّةِ الَّتِي
أَكَلَهَا الحَرُّ وَالبَرْدُ وَالإِهْمَالُ كَانَتِ صِنَادِيقَ السَّلْعِ لَا تَزَالُ فِي نَفْسِ أَمْكِنَتِهَا.

صِنَادِيقُ فَارِغَةٌ يَغْطِيهَا العُبَارُ وَالبُوسُ.

تَوَقَّفْتُ تَحْتَ شَجَرَةٍ تَيْنِ كَبِيرَةٍ، تَرَكَ القُفَّةَ تَسْقُطُ. ارْتَفَعَ العِطَاءُ وَتَشْتَتَّتْ قِطْعُ لَحْمٍ اخْتَلَطَتْ بِالتُّرَابِ.
مِنْ مَخَارِجِ الدَّرُوبِ المَخْتَلِفَةِ جَاءَ الجُوعَى مِثْلَ قِطْطِ تَشَمَّتْ رَائِحَةَ الدَّمِ. اقْتَرَبُوا بِحَذَرٍ، تَحَلَّقُوا
حَوْلَهُ. كَانَ طَوِيلَ القَامَةِ عَظِيمًا يُشْبِهُ طَاطِيَةً. تَجَرَّأَ البَعْضُ أَكْثَرَ يَدْفَعُهُ الجُوعُ. القِطْعَانُ الجَائِعَةُ لَا
تَقَاوِمُ الكَلَأَ. دَفَعَ امْرَأَةً فَطَرَحَهَا أَرْضًا. تَرَاجَعَتِ البَقِيَّةُ.

قالتِ التي على الأرض:

- ربّي يهديك، ولادي جوعانين.

صرخَ في وجهها.

- جُوعٌ أولادك لا يهمني.

فتح ذراعيه. كمّا الجلاب عريضان، تدفعها الريح فيصير أقرب إلى هيئة فزاعة. لن تطير العصافير، ستبقى حيث هي طمعا في الحب ولو كلفها كل البيض الذي في أعشاشها. نظر إلى السماء. أجز الغيوم التي لوتتها حمرة المغيب ترحل عن سماء فاس.

- اسمعوا، لا يطلب مني أحد ما لا أملك. لا رحمة في قلبي، فلا تتقلوا على أنفسكم ولا تضيّعوا وقتي. أعطوني ما جئت لأجله أمنحكم ما تريدون.

التفت إلى المرأة التي استمرت على الأرض:

- أعطيني هذا لتطعمي بثمره بقية أولادك.

أمسكت المرأة يد ابنها. ساعدها ولدها لتقف. تذكرت أنه لا بد أن يموت جوعا رافة بقية إخوته إذا ما بقي معها. أغمضت عينها، فكرت أن عبودية طفل لقاء عتق الآخرين ثمن مكلف، لكنه مقبول. دفعته إليه ومدت يدها لقطع اللحم. سحب الطفل إليه، ثبته إلى جانبه:

- أحسنت يا امرأة، أحسنت.

ثم مد إليها قطع اللحم.

- خذ مني هذا سيدي.

قدم رجل آخر طفله. كان عليلا. رده إليه:

- هذا مريض.

نظر إلى البقية:

- لا أريد أطفالاً معييبين، لا أقبل الأعمى ولا الكساح ولا من فيه عيب خلقي. أتوني أطفالاً أسوياء أعطيك لحمًا طرياً يدفع عنكم الموت أياماً.

- هذا طفل سوي.

تقدّمت إليه امرأة فوافق.

- هاته.

أعطاهما قطع اللحم. فكّرت أن تُعيد إليه اللحم وتسترجع ابنها. «سيموت من الجوع»، انحنّت. هرولت نحو بقية أولادها لتدرّكهم قبل أن يدرّكهم الموت.

رفّع يده يصدّ آخرين اندفعوا ليبدألوه أبناءهم بقطع اللحم. صرّخ في وجوههم:

- أعود إليكم غداً فلا يأتيني أحدٌ بطفلٍ معتلٍ.

بكيث في طريقي إلى بيت العواد. إبراهيم يذبح أطفالاً من أكرمهم في يسره وردّوه في عسره؛ ينتقم لزوجته وأولاده.

«عُدْ يا ناجي، عُدْ إليهم، فُلْ لهم إنَّ أطفالهم سيذبحون في اللّيلة نفسها. بينما يجتمعون على قطعة لحم يكون السكين قد مضى في عنق طفلهم الذي سيباع يوم غدٍ لقاءً أطفال آخرين، دُلُّهم على البيت كي يروا رؤوس الصّبية مصفوفة بدل قراب الزّيت وأكياس الحنطة. عُدْ إليهم يا ناجي».

زهرة

31

زهرة التي سرحت تتبع نعبتها خطفها المحارب التركي. لم تبلغ بعد. اشتهاها قهرمان باشا فجرها من شعرها. خافت على النعجة أن تضيع فأخذها معاً. وضعها على الحصان. النعجة سكنت. زهرة استمرت تترك على طول الطريق. عبر غابة البلوط ومسلك الجرف ثم دخل المخيم بشهية مفتوحة. ما كان يماني النفس بأفضل مما حاز. كان جنود آخرون قد اختطفوا نساء وسرقوا ماشية ومتاعاً. حسدوه على قطعة الجبن تلك. جرّها إلى خيمته. ترجته أن يعيدها إلى بيت والدها في الجبل.

- ليس بعد اليوم صغيرتي.

أطلقها فضمت إليها نعبتها. لامس بأطراف أصابعه وجه الطفلة الأبيض، الجميل. كانت نحيفة، هشة، أشبه بروح. ضعفها أذكى نار شهوته.

- انزعي ملابسك.

نظرت حولها. لم تجد سبباً لتعري. خافت. شعرها الأسود الطويل تدلى خلفها ولامس سيقانها. انكمشت مثل وردة. عراها. ارتجفت. كاد يشفق عليها. كانت الرغبة أعظم.

- كيف تنمو زهور فاتنة في هذه البراري؟

نبهتها أمها ألا تبتعد عن إخوتها في المراعي. خطف البرتغاليون الكثير من الرجال والنساء والصبايا. بدخول السعديين إلى مراكش وفاس تراجع سطورة البرتغاليين إلى تخوم النعور وشعرت الناس بالأمان فتساهلت العوائل مع أولادها. غدرت بهم جند الترك. سرقوا ليلتها الكثير من النساء والصبيان ورؤوس الماشية.

حظ الطفلة عثر. ذهب إخوتها لحضور وليمة وبقيت هي في المرعى إلى وقت متأخر. حتى الكلاب شممت رائحة القودر فقصدت خيام العرس. ما كانت الكلاب لتترك التركي يأخذها. أمها التي تحرص على مواعيد عودتها للبيت انشغلت بتجميل العروس.

كان قهرمان قد خرج من المخيم يستطلع. في كلّ المحطّات التي نزلوا فيها جال أبعد من البقيّة. كان منشغلاً بتوطين المرتفعات والمنبسّطات وتسجيل خرائط المسالك والمعابر ومواقع القبائل والأسواق. حلم بجيش السلطان سليمان يبني قلاعاً يثبت بها حكم التّرك في بلاد المغرب ويُنازل من خلالها الإسبان عن الأندلس. لن يُمانع في ركوب البحر والمرور عبر جبل طارق مرّة أخرى وصولاً إلى جبال البرانس أو إلى أبعد منها.

«لعلهم يستبدلون اسم جبل طارق فيقولون جبل قهرمان»، منّى النّفس.

لم يكن يؤسعه أن يعلم أنّ رحلته ستوقّف الليلة، في خيمته، وعلى فراشه، وبالسكّين التي ذبح بها النّعجة التي سرحت بعيداً عن المرعى.

ستفكّر زهرة المرسلّي بعد عُقودٍ طويلةٍ أنّ كلّ شيءٍ توافق وانتظم ليلتها بُغيةً هدَفٍ وحيد. ما تأخّر العرسُ أسابيحَ ليزفّ العروسان في الليلة نفسها عبثاً، وما اختيرت أمّها للتزيين بعد مرض الحطّارة بمحض الصدفة وما ذاعت النّعجة بعيداً عن المرعى في غياب إخوتها وحراسة الكلاب اتّفاقاً. أُحكِمَ كلّ شيءٍ وسطّر بجبر القدر ليقتضي طاغيةً مُتجبراً. مات قهرمان في خيمته وعلى فراشه وبالسكّين التي ذبح بها الكثير من الرّجال والخراف على يد طفلة أضعف من حمل.

بحث عنها إخوتها فلم يجدوا لها أثراً. أطفنت نيران الكوانين التي في خيام العرس وأسرجت الفوانيس وسال الرّجال في الشّعاب بحثاً عن البنية التي ضاعت مع نعجتها. فتشوا في الكهوف ونزلوا إلى النّظيفات. سمعوا أخيراً عن جيش السلطان وكتيبة التّرك فراحوا إليهم يسألون عن صبية عمرها عشر سنوات. صرفهم التّرك:

- لا تعودوا، إذا فعلتم ضربنا رقابكم.

فكّروا في إحراق المخيم بمن فيه. أعلام الأشراف التي كانت ترفرف على أطرافه منعتهم. لا قبل لهم بجيش السّعديين. عاد الرّجال إلى بيوتهم ورجع إخوتها خائبين. عبد القادر، ابن عمّها الذي وُعدَ بها زوجة، حمل سيفه وأغار وحيداً. قتل خمسة رجال وقُتل وسط المخيم راضياً بقدره.

نزع قهرمان باشا النّعجة عن زهرة، ذبحها في باب الخيمة وطلب من الطّباخين أن يعدّوها وليمة لعشاء خاصّ يجمعه بزهرة من زهور البراري.

آلمها وهو يخترقها. ألم النّعجة كان أكبر. دكّ جسدها الصّغير، شعرت بأمعائها تتمرّق. «صرت امرأة»، همس في أذنها. كانت تبكي. تمدّد على ظهره. قال لها ينظر إلى الفانوس:

- ما استمتعت بامرأة كما استمتعت بك، صدر صبيّ، فرج طفلة، ووجه امرأة ناضجة.

شرب خمرا كثيرا. لحم النعجة طيب. «أي الأعشاب ترعى؟»، تساءل. ما كان ليصيب ما أصاب لو بقي في محاجر التّرك أو ركب البحر. تخدّر باللذّة وغفا. «صرتُ امرأة»، قالت في نفسها، حملتِ السّكّين التي ذبح بها النّعجة وذبحته. ارتدّت قفطانها الصّغير وتسألّت. لم ينتبه إليها الجند. كانوا منشغلين بولائمهم والنساء اللواتي خُطفوا من قبائل أخرى. على أطراف التّلة لقيتُ والدها الذي هرب من عويل أمّها.

- دَبَحْتُهُ يا أبي.

أحنى رأسه. قالت كلّ شيء. فكّر في تركها للجند. لا يريدُ للعار أن يلحقه إلى بقيّة عمّره. لكز الحصان ليولي. صرختُ: «أبي». جرّ اللّجام. ما استطاع. أسرعُ إليه. مدّ يده، سحبها إلى ظهر الحصان، طوّقه بيديها الصغيرتين ووضعت وجهها على ظهره. رائحة عرقه أشعرتها بالأمان. أرخى اللّجام وأسرع يتوارى خلف التل قبل أن تلاحظه عيون التّرك وتعدو خلفه الدّئاب.

عشق فاس

- 32 -

مدينة واحدة، ساحران، وأقدار تذرورها الرّيحُ.

وبقيّة المُدن الهباء.

وحدها تورّغ الأديوارَ والأرزاقَ وتنفت الرّيح في الدّروبِ وخَلَفَ الأسوارِ.

لا يعني شيئاً أن تكونَ البناثُ أكبرَ سناً من أمهنّ. ليستُ معنيّةً بشيخوختهنّ. فاس فوق الزّمن، كماهية معجونة بتراب الأرض تتجلّى صبيّة باقية. تنبثُ المُدنُ قبلها ولا تسبقها للوجود، كآلهة تتعالى سابقة كلّ شيء غير محصورة بميلاد ولا مكان.

تحكي الأمّهاتُ الرّاسخاتُ في العشق لأبنائهن أنّ فاس مدّت يدها ورتّبتِ الجبالَ مِنْ حولها ونحتتِ الأوديّةَ على مشينتها، ثمّ سحّرت الرّجالَ ليرفعوا أسواراً تجلّت على أيديهم. على خلاف كلّ مدن الدّنيا، تمدّ يدها كلّ ليل لترممَ وتعدلّ وتشتطّب، تزرّغ الغيومَ في السّماء متى أرادت المطرَ وتدفعها بعيداً أنّى شاءت القحط والكساد والعقاب.

ملكٌ يتولّى بضربةٍ حظّ وأخرٌ يلقى حنْفَهُ بضربةٍ شاقورٍ. ولائمُ جنايزَ وموائدُ أعراسٍ، فرحةٌ في كَنَفِ الحُرْنِ.

فاسُ لا تكفُّ تُشاكِسُ. بنزقها المعهود ترفُصُ. رقصها فاجِسُ، يُثيرُ، يغوي؛ غواية الدّم والمُلكِ والغنى، الفُصُور الفارهِمةِ وضيّق الأزقةِ، الرّوابي الخصبيةِ وقحطِ الشّعابِ، السّلطةُ التي لا تحدّها حدودٌ والضعفُ حتّى الهوان. يأنسُ جبل «زلاغ» على أطرافها ببقايا نُدْفِ السُّحبِ التي خلّفتها الرّيحُ وأهملتها عيون النّاس بينما تتلّهى فاس بالمزيد من الرّؤوس، تارة برقاب العبيد وأخرى بأعناق السّلاطين، ما إن يحسبها الغافلُ انحنت لسيدٍ جديدٍ حتّى تعود لتفتك وتبتطش وتضرب الأمثال؛ تُذلُّ السّيّدَ والعبيدَ.

«اذهب، انك لملاقِ حنْفَكَ»، قالت ترفُغُ صوتها. تناهى حُرُوفها إلى الشّعابِ وبُطُون الأوديّةِ والسّهول. عوتِ الكلابُ على امتداد اللّيلِ تتحسّسُ أرضاً تَميدُ. لم يسمَع مولانا كلماتها. المُلكِ يعمي

والثروة تُذهبُ البصيرةَ وتغيّبُ الرّشدَ.

واصل جيش السلطان طريقه إلى الجنوبِ تتقدّمهُ عُصبةُ الأتراكِ. اختفت نساءٌ كثيراتٌ ورؤوسُ ماشية، وهلك زرعٌ وحرثٌ، وأورفتُ جراحُ تظلُّ المزيّد من المآسي.

«مرّوا من هنا»، قال بدويونٌ مسالمون. على خلاف عادة البدو لم يتبعوهم. تركوهم يمضونُ بالنساء والصبايا ورؤوس الماشية.

- لو كان بوسعهم أخذ التراب لحملوه.

قال شابٌ غاضبٌ.

- نصبرُ ونتحيّنُ.

قال آخرُ.

- كلا، نتبعهم ونقتصّ لأنفسنا.

- ليس، ليس بعد.

أحنى الكثير رؤوسهم. بضعةُ رجالٍ حملوا سيوفهم وابتلعتهم الأفاق.

فقدَ التّركُ بدورهمُ رجالا كثيرا. عثروا على أجساد بعض الجندِ مشنوقةً ومعلقةً تحت الشجر، أخرى محروقة؛ قطعاً من قحْم. الأكثرُ جراً من رجال القبائلِ رموا رؤوس قتلى التّركِ وسط مخيّم جند السلطان.

كان الكره جلياً. لن يحبّ المغاربةُ الأتراكَ ولن يقبلوا سليمان سلطانا على المغرب. المولى محمد الشيخ أبقى على المقاتلين التّركِ لغاياتٍ يعلمها وحده. ساندوه في «حرّكات» كثيرة وأبانوا عن شدّة وبأس.

- لا أفضل من التّركيِّ يقاتلُ تركياً أو يتصدّى لقبيلة تتمرّد.

قال لحاشيته.

- وهل تأمنُ غدرهم يا مولاي؟

- هُمُ بيننا، ووسط جندنا، ما أحسب أنهم ينوون على شرّ.

- اطردهم يا مولاي، اطردهم. رجالنا أشدّ وأصلبُ.

- لا، ليس بعد.

وكلمة السلطان كالفدر، إذا نطقَ بها صارتُ كِتَابًا مسطورًا.

- الرّأيُ رأيكم يا مولاي. علينا المشورةُ ولكم القرار.

حاربتُ عُصبةَ الأتراكِ ببسالةٍ تحتَ إمرةِ السلطان، صارَ رجالها عَصَاهُ التي يضربُ بها. في الطريقِ إلى تارودانت قتلَ كلَّ حلفائِهِ السابقين. لم يسألهُ قادهُ التُّركِ لِمَ يقتلُ من والاهُ وأخلصَ إليه وناصره حتّى بلغَ ما بلغَ. يعرفونَ جميعُهُم أنه ما أراد أن تبقى له مِنَّةٌ لدى أحدٍ من رجال المغربِ. بموتِهِم ينتهي الماضي جُمْلَةً ولا يعودُ في البلادِ كُلِّها غير الوهاد يسلكها كيفما يشاءُ. أرادَ السلطانُ أرضَ المغربِ صافيةً له وحده لا يِنازعه عليها أحدٌ، ثمّ مدَّ بصره بعيداً إلى الشرقِ. فكّر في مصرَ والشامَ واقتلاعِ سلطةِ العثمانيينِ في معقلها ومن جذورها.

خلفَ فاسَ وراءه، جاز مكناسة، وعبر مرّاكش، فأطلتِ أرضُ السّوس؛ معقلُ حركتهِ ومنشأُ دولتهِ. جاء به الموت كي يلقى النّصيبَ وافياً في الأرض التي خرج منها يطلُبُ المُلكَ رافعا ألوية الجهادِ دفاعاً عن أرضِ المسلمين.

وقف ساحر فاسٍ وعزّأفها الأشهرُ في باب قصر ابنهِ المولى عبد الله. صرخ في وجهِ الحرسِ أنْ أدخلوني إليه. أذنَ لهم فمَنّلتُ الساحر بين يديّ خليفة السلطان.

- هذا ليس وقت زيارة.

- بل وقتها إذا سمحتم يا مولاي.

- آتينا بما عندك حتّى نرى صلاح رأيك من فساد.

- هو السّدادُ يا مولاي.

- أتعرف ثمن إخفاقك؟

- رقبتي يا مولاي.

- هات ما عندك.

تنحنح ساجرُ فاس الأعظم، نظر إلى كرسيِّ الملِكِ الفارغِ وأطالَ النَّظَرَ ففطنَ الخليفةَ لِمَا يعتزمُ
السَّاحِرُ البُوخَ به. رَفَعَ يَدَهُ بمقدار ما لا يسيء لهيبة الخليفة:

- هُما خبرانِ يا مولاي؛ أحدهُما يفجعُكم وثانيهُما يُبهجُكم، علَّ الفرحَ يُنسيكُم الحزنَ مولاي، وهذه
سُنَّةُ الله في الأرض.

- لا تُطلِّ علينا فلنا من المشاغل ما لنا.

- بأيهما أبدأ يا مولاي.

- بالذي يُبكي.

- يصلُّكم خبر السلطان في بحر ثلاث أيام، ينقلبُ عليكم من ينقلبُ، ويسانِدُكم من يسانِدُ.

- أمَّا الخبرُ الذي يُفرحُ.

- يرسو الحكم بين أيديكم ويكون لكم الملِكُ وحدُكم خالصًا، فأعدّوا ما استطعتم من عُدَّةٍ لردِّ
الطامعينَ في مُلكِ أبيكم فإنَّكم، بعون الله، لمنتصرونَ.

نَجْمٌ مَلِكٍ يَلُوخُ ونَجْمٌ مَلِكٍ يَخْتَفِي.

فاسُ من بعيد تراقبُ، تتربَّصُ، تحصي الأفرح والأحزانَ، وتنفُحُ الرِّيحَ فتدفعُ الأيامَ إل مزيد من
الأيام. يسفُطُ مُلْكُ ويقومُ آخَرُ، تنهارُ ممالكُ وتنهضُ أخرى.

مُعكَّرَ المِزاجِ، مهيبِ خاطرٍ، طلبَ السلطانُ المولى محمد الشَّيخَ السَّعدي من حاشيته أن يأتوه
باليهودي المنجَّم في تارودانت. ضاق صدرُهُ وغاب الغد عن نظره فأراد بشرى تُعيدُ إليه راحة
البال. قرأ المنجَّم على جلد كلبه المكتوبَ فاصفرَّ وجهُهُ وارتعشت شفتاه. تلعثم. عواء الكلب ذهب
بعيدًا. صرخ السلطان في وجه اليهودي:

- اقرأ عليّ ما ترى.

- إنّهُ اليوم الأخير في عُمرنا يا مولاي.

أحمد السبتي

- 33 -

ريحٌ تدفَعُ ريحًا وأيامٌ تجرُّ أخرى إلى أخرى، تتكوَّرُ بين ليلٍ ونهارٍ؛ معها تتدحرجُ أحوال الرعيَّةِ والسلاطين. البُسطاءُ يحملونَ أحزانهم الكبيرةَ وأحلامًا صغيرة، بحجمِ رغيفِ الكوزِ وحساءِ الفولِ ومرقٍ بلا ثوابل. يربُّونَ خرافًا ينفقُ بعضها ويسرقُ جُنْدُ جيشِ السلطانِ أخرى. وتبقى البقيَّةُ؛ بقيَّةُ من أحلامٍ وأيامٍ وخرافٍ تلدُّ خرافًا تنفقُ وتُسرقُ وتخلفُ أخرى تُنسجُ من صوفها زينةَ الفُصُورِ ومن ضرائبها في الأسواقِ كِسوةُ الجندِ ورصاصِ البنادقِ وُعدَّةُ المحلِّ..

ويحلُّ الملوكُ كذلك، على كراسيهم المصنوعة من الذهب والفضة، أحلامًا كبيرةً، يمهِّدونَ بلدانًا في أقاصي الأرض ويفتحونَ مُدُنًا منيعةً ويضربونَ أعناقَ سادتها. وشهيةُ الملكِ لا ترتوي، كلما سقيتها دَمًا طلبتِ المزيد. «أنتزَعُ منهم المغرب الأوسط وإفريقيةَ وأدفعهم عن مصر والشام وأنزلهم على مُلكهم، وفي أحجارهم». يرتفع صوت مولانا محمد الشيخ في خلوته:

- أنا السلطانُ الشريفُ أبو عبد الله المولى محمد الشيخ السعدي ملكُ بلاد المغرب وسلطانها وأميرُ المؤمنين.

لا سلطانَ غيرِ سلطانِ الرِّيحِ تدفَعُ الأيامُ إلى الأيامِ فتنتزَعُ رِيحَ هذا وتنفخُ في رِيحِ ذاك، لا تدينُ السلطنةَ بالولاءِ ولا تدومُ لأحد، ما إن يأمِنوا في قصورهم الحصينة وأبراجهم المنيعة حتى تعصفَ بهم الرِّيحُ وتحيطُ بهم الأهوالُ فتنزِلَ بهم الأيامُ ممَّا هم عليه وتُركِبَ آخرينَ غيرَهُم.

وتلك الأيامُ ...

لم يفارقُ أحمدُ عُصبةَ التُّركِ ساعةٍ قاتلَ معهم أعداءَ السلطانِ ونازلَ الحُصُومَ حتى حسبتهُ السلطانُ تركيًّا جاء مع من جاء من التُّركِ. أنزلتِ الضرائبُ وفُرِضتِ التَّوائبُ على الخلقِ وجُبيتِ سلجماسةُ واستقامَ لصاحبِ المغربِ أمرُها ودانتَ له ذرًا والمعابرُ والأسواقُ وسلَّمَ له شيوخُ القبائلِ وبايعوهُ في الأطرافِ. لم يفعلَ سلطانٌ في المغربِ ما فعلَ محمدُ الشيخِ. كَثُرَتِ المداخيلُ وعظُمَ المَحْصُولُ وكَبُرَتِ الأطماعُ في الزحفِ شَرْفًا.

نزَلُوا بتارودانت فصارَ مقاتلو التُّركِ أقربَ إلى السلطانِ ممَّا كانوا عليه في فاس. أرضُ الجنُوبِ فسيحةٌ واليومُ فيها بعشرِ أيامٍ في غيرها. استطابَ السلطانُ الخيلَ ورائحةَ البريةِ ولونَ الطينِ

السَّائِرِ عَلَى جُدْرَانِ الْبُيُوتِ وَفِي الدُّرُوبِ يَرِيبُ بَوَابَاتِ الْمَدِينَةِ جِهَةَ الْغَرْبِ بِالَّتِي تَطَلُّ عَلَى الشَّرْقِ.
لَمْ يَبْقَ شَيْخٌ مِنْ شِيُوخِ الْقَبَائِلِ فِي أَقْصَايِ الْبِلَادِ إِلَّا وَجَاءَ إِلَيْهِ يُعْلِنُ الْوَلَاءَ.

عَادَتِ الْبِغَالُ مَحْمَلَةً بِضُرَائِبِ أَهْلِ سِجْلَمَاسَةَ وَأَسْوَاقِ الْمَعَابِرِ الَّتِي تَرِيبُ أَرْضَ النَّخِيلِ بِأَرْضِ
الزَّيْتُونِ وَدَانَتْ الصَّحْرَاءَ بِمَا رَحِبَتْ لِلسَّعْدِيِّينَ فَجَاءَتْ الْأَحْمَالُ مِنْ شَنْقِيطِ وَمَا وَرَاءَهَا وَامْتَلَأَتْ
الْخَزَائِنُ وَفَاضَتْ عَنْ حَاجَةِ الْمَلِكِ. بَدَأَ سُلْطَانُ الْمَلِكِ الْجَدِيدِ رَاسِحًا وَقَدْ حَفَرَتْهُ مَعَاوِلُ الْقَدْرِ عَلَى
الصَّخْرِ.

ثُمَّ دَفَعَتِ الرِّيحُ الْغَيْومَ وَلَوَتْ أَعْنَاقَ الشَّجَرِ. قَالَتِ النَّاسُ فِي تَارُودَانَتْ إِنَّ لَوْنَ السَّمَاءِ كَانَ أَحْمَرَ
وَأَنَّ الْغَيْمَ سَالَتْ بِالْدَمِّ. فِي الْآفَاقِ نَبَتْ الزَّرَوَاعُ وَرَقَصَتْ مِثْلَ شَيْطَانِينَ. عِنْدَمَا حَطَّتْ دَكْنَةُ الْمَسَاءِ
كَانَ الرِّجَالُ قَدْ هَرَبُوا إِلَى بِيُوتِهِمْ.

فِي الْقَلْعَةِ طَلَبَ قَائِدَ الْإِنْكِشَارِيَّةِ أَحْمَدَ. مَا إِنَّ مِثْلَ أَمَامَهُ حَتَّى وَقَفَ يُحْيِيهِ.

- كُنْتَ الرَّجُلَ الَّذِي رَأَيْتُ فِيكَ.

تَصَافَحَا. سَارَ بِهِ إِلَى شَرْفَةِ الْقَلْعَةِ. كَانَتْ بَرِيَّةً تَارُودَانَتْ قَدْ اسْتَأْنَفَتْ غَرْقَهَا فِي عَتَمَةِ الْمَغِيبِ. لَأَنْتِ
آخِرُ هَالَاتِ الضُّوءِ ثُمَّ تَلَاشْتِ؛ بَدَتْ مِثْلَ أَحْلَامٍ بَعِيدَةٍ تَرَحَّلُ إِلَى الْأَبَدِ.

- تَرَحَّلْ مَعَنَا إِلَى مِصْرَ؟

- أَرِيفَ أَوْ أُنَ السُّلْطَانَ إِذْنَ.

- اكْتَمَلَتِ الْعُدَّةُ بِوُصُولِ فِرْسَانِنَا مِنَ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ.

- بَلْ أَبْقَى يَا صَالِحَ.

- مَتَى نَدْخُلُ الْبِلَاطَ؟

- اشْحَذْ شَاقُورَكَ.

- اللَّهُ الْعِزَّةُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ.

عَانَقَهُ التُّرْكِيُّ ثُمَّ أَوْصَاهُ بِالْحَذْرِ. شَيَّعَهُ إِلَى الْبَابِ:

- لك أن تأتي إلينا متى طاب لك.

التفت إليه.

- كم يوما بقي؟

- بضعة أيام.

حلم أحمد ليلتها بمعلمه ينهاه عن الثأر. جاء إليه عبد الواحد بيرنسيه الأبيض الفاخر إلى غرفته. هزّه من كتفه:

- لا تغدر بغيري وفاء لي، فما كان الغدر يوما من شيم الرجال.

استفاق. تفقد الشاقور التي وضعها إلى جانبه. أيقظ البشير. طلب منه أن يرحل.

- ارحل فجرًا يا بشير.

- ما جنّت معك لأعود دونك.

- لعلنا نهلك سوياً، اذهب إن لك أختاً أسيرَ زوجها فلا تخذلها.

- إما أن نعود معاً أو نهلك سوياً.

انشغل أحمدُ بنسج خيوط المكيدة مع قائد الانكشارية بينما انشغل البشيرُ عن صاحبه بالتعرّف إلى أحياء تارودانت وأطرافها. ألفاها مدينةً صغيرةً ومعزولةً عن العالم، حالُ رجالها أقرب إلى حال رجال البدو ونساؤها محجّبات كلهنّ يلففن أجسادهنّ بإزار فلا يبين منهنّ شيءٌ. ركب حصانهُ ومضى يضربُ في الأمصار. دخل قرى ومدائير كثيرة. قابلته الناسُ بالوجوم. لباسُ الانكشارية جلب له الكره. «لست تركياً، أنا مغربيّ من أهل فاس»، يقول فترتخي الوجوه وتمتد الأيدي بالسلام وتفرش الموائد بسخاء أهل الجنوب.

بلغ إلى سجلماسة التي سمع عنها الكثير، من أبيه، ومن تجار القوافل التي تصل إلى فاس. لم تكن كما تخيلها؛ سجلماسة الواحات والنخيل والأعراب وخيم البدو الرحل والأسواق التي تفيض بالسلع حدّ الاختناق.. وجد بيوتها مرفوعة بالطين المدكوك تُقيدها الأسوار كما تقيد فاس ومكناس ومراكش وتارودانت. في صدره استمرت المدينة الحرة التي شكّلتها ذاكرته.

تَجَارُ سِجْلَمَاسَةَ ميسورون وكُرماء، لكنّ صمت المدينة عميقٌ وجارحٌ، عندما تتدقّق القطعانُ إلى الدّور التي في الأطراف، ويغمر ثغاء الأغانم الدّروبَ والسّاحات، تصمت المدينة كما تبرد قطعةُ جَمْرٍ، تتنحّى ليلاً؛ تموت. أذانُ صلاةِ العشاءِ آخِرُ عهدِها بالحياة. تفنى إلى أن يُطلّ الفجرُ ثمّ تعودُ كَخَلْقٍ يُوجَدُ من عَدَمٍ. ليلتان في سِجْلَمَاسَةَ، يفتَحُ النّافذة فيشكُّ أنّه لا يزالُ حيّاً. يعودُ مع المدينة إلى الوجود بانبتها المتكرّر وخروج القطعان إلى المراعي فجراً.

حلم بالسفر إلى عمق الصّحراء؛ أن يبلعَ شنقيط وما بعدها. تخيلها مُدُنَ ماضٍ. الحاضرُ بائسٌ. في الطريق إلى أعماق الصّحراء ذاكرة المرابطين التي تحفظها كلّ حبة رَمَلٍ.

حياةٌ بسيطةٌ، لكنّها آسرةٌ. تبدو خَشِينَةٌ في السّاعات الأولى ثمّ تكشفُ عن اللين الذي يتأخّم الهشاشة. كلّ هبة ريح تُثيرُ الرّمْلَ وتستدعي الأفكار وتستدعي المزيد من الأحلام. مع الغروب تتمرّقُ المدينة وتذوب الواحات بنخيلها وتتفسّح الأفاق إلى أن يُعيدَ الفجرُ تركيبَ كلّ شيءٍ.

لو لا أختُهُ التي في فاس لتزوّج صبيّة من صبايا البدو الرّحل. لهُنّ نهود كبيرة ورحابة صدر. يُحبُّ النّساء بنهدين كبيرين وخصر ضيق ووجه بشوش. يلد صبياناً ويربّي قطعاناً ويأكلُ تمرّاً بطعم العسل، ويرتشفُ الشاي الصّحراوي الحارّ على أطراف الواحة ثمّ يموت ويحيى بين اللّيل والنّهار في فلك سِجْلَمَاسَةَ القاعدة على أطراف الدّنيا.

«ربّما يُداوي سِحْرُ سِجْلَمَاسَةَ الطّارئ عِشْقَ فاس القديم، ولعلي أنتكّر بسِحْرِ المدينة السّائرة في رمال الصّحراء، بين الواحات والنّخيل، الرّاهدة في تَرْفِ الدّنيا، لعِشْقِ فاس التي تُلحُّ طلباً للرّسوخ كعروسٍ ليست كلّ العرائس».

ركب حصانه في اليوم الثّالثِ وتيمّمَ قبلةً تارودانت. خلف سِجْلَمَاسَةَ وراءه ومضى. في المسالكِ فكّر على خلاف كلّ المرّات أنّ الحياة لا تستحقّ كلّ هذا العناء ولعلّ خيمةً فوقَ رابيةٍ ومعزةً تدرّ حليباً وزوجةً تُعدُّ الخبز في الكوز أفضل من كنوز الدّنيا بأكملها.

خرج من سِجْلَمَاسَةَ يعتزم الرّجوع متى سنحت له ظروف الحياة.

- هل من خبرٍ عن البشير؟

قال أحمد يسألُ باروخي الذي لا تفوته صغيرة ولا كبيرة من أخبار القلعة والمدينة معاً. كان صاحب مفتاح خزائن تارودانت والصيرفي المؤتمن عليها.

- خرج من تارودانت يقصد سِجْلَمَاسَةَ ولم يعد حتّى اليوم.

- ويا ليته لا يعود أبدا.

تمنى لو يذهب صاحبه إلى فاس ولا يرجع أبداً، أو يقصد حصن البرتغاليين ليستقصي أخبار صهره الأسير. يخشى أن تنقلب الأمور فينال السلطان من رقابهم جميعاً بدل أن يظفروا برأسه أو يحالفهم الحظ فيدبروا ويعود هو متأخراً فيقتصوا منه.

خرجوا من القلعة يقصدون قصر السلطان. في باب القلعة توقف صالح الكاهية، شد على كتف أحمد وقد أكبر فيه جلدته وبقائه على ما تعاهدوا عليه:

- تماسك يا أحمد وكن سريع البديهة خفيف الحركة، افصل رأسه عن جسده في طرفة عين فلا يسمع أحد أنه ولا آهة.

«صرت خفيفاً، خفيفاً كظل، واعتراني شعور غريب، كنت كالتائم يسير في حلم، مرت وجوه وبيوت وتواترت دروب وشوارع، وكانت الأصوات تأتيني من بعيد، أما الترك فكانوا كما ألفتهم صناديد لا يبالون بمراتب ولا ينهيبون شدايد.

ودخلنا مضارب السلطان فترك كل منا سيفه في عهدة الحافظ. في الفناء، تحت قبة البلاط، علت أصوات الترك وقد اختلقوا العراك حتى بلغ الزعيق مسمع السلطان. سأل محمد الشيخ الذي معه:

- وما بال هؤلاء الحوالة الكلاب يفتنون؟

أذن لنا ليري أمرنا فدخلنا عليه. أحاطه الترك يبايعوه كما تقتضي عادة القصر، أكثروا عليه الشكر ثم جعلوا بيني وبينه طريقاً. سحبت الشاقور من ظهري وسرت إليه، نظر نحوي. رأى بين يدي عمره الأزف ودمه المسفوك.

- دم الونشريسي الذي في رقبتني.

كلا، ما كنت هناك، على سيرة التائم تابعت من بعيد حد الشاقور ينزل على الرقبة والرأس يطير. تراجع الجسد إلى كرسيه الذي ما عاد ينفع في شيء وطاش الدم يغسل الحقد الذي في صدري.

خرجنا وقد زال سلطان القوة بسلطان السيف، لله القوة والجبروت، وحده الباقي ملكاً لا يطال ملكه موت ولا يصيب عرشه سوء، فقل اللهم مالك الملك، يؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتجزع من تشاء وتذل من تشاء». «.

القبطان العاشق

- 34 -

كان العبور السابغ لسفينة غابرييل على أطراف الحصن. في كل مرة يعبر الخليج الصغير يفكر في النزول بحثاً عن الصبيّة التي دخلت قمرته يوماً وأبت أن تخرج من قلبه.

- ما من داع للرّسو في ميناء الحصن سيدي.

قال مساعد الرّبّان.

- بلى، ثمة داع يا خوليو.

برزت رؤوس كنائس الحصن والتمعت النواقيس تحت الصّلبان ولاحت الأسوار تمضي على الشّطّ مثل جزام يشدّ خصراً. لم يسأله خوليو لم قرّر أن يتوقّف بالسّفينة وتجار لشبونة كانوا قد ألحوا عليه أن يسرع إليهم بالبضاعة قبل أن تصل بضائع منافسيهم إلى الأسواق فتفوتهم فرصة التّحكّم في الأسعار وتحقيق ربح وفير.

قضى عمره عبداً لمنطق الرّبح والخسارة. كلّ المال الذي راكم لم ينفعه في شيء. اختار أخيراً أن يجنح بسفينة العُمر حيث يرضى القلب.

«لعله خرف آخر الدّرب؟»، فكّر القبطان. «لكنّه خرف حلّ وجميل»، قال يضع قدمه على أرض الميناء. سيجرب حظه ويبحث عنها. لعلّ الأمر مثير للسّخرية. يزدري من يزدري. لا يهّمه الأمر. خسارته تجار لشبونة أهون من خسارة عيني صبيّة سكنت القلب والذاكرة. رآها في كلّ النساء اللواتي خالط، ما يركب امرأة حتى يبحث في وجهها عن قسماص صوفي التي سلّمتها نفسها ذات مساء مطير وبارد حتى يبلغها إلى البرّ الآخر.

لم يكن رحيما بها.

ندم كثيراً. ما إن أقلعت السفينة حتى عضه النّدم. ما كان يفترض أن يسمّح لها بالنّزول.

شنت السماء، بللت الأرض وأغصان الشجر والجدران، وهبت دقات الرياح بإحساس الصبي الذي كان. لم يمت الشاب الجموح داخله. كان نائمًا فأيقظته، خلفته على سطح السفينة ورحلت.

جاء صوت خوليو الذي مرّ على لوح القنطرة الصغيرة يجري إلى أرض الميناء المرصوفة. كاد يسقط. كان الرصيف زلعا بفعل المطر.

- الرجال يسألونك كم ساعة نرسو.

- كم يوما يا خوليو لا ساعة.

- سيدي..

قاطع.

- من كان على عجلة فليركب أي سفينة أخرى.

سار كابرييل ينظر إلى هامته المنعكسة على الأرض. المطر المنهمر شوه الأشكال تمامًا كما فعلت السنوات بالشاب الوسيم الذي ما اعترضه خطر إلا وخاض فيه باسترسال.

تحدث قبل أيام إلى خوليو الذي لم يكن مساعده فقط، بل كان رفيق دربه خلال السنوات التي قضى بين البرتغال والعالم الجديد. كانا في كوخ لمزارع هندي، بينما كانت النار تشتب في نباتات التبغ الجافة وتنتشر عقبها قال له إن البحر غدر به وسرق منه عمره.

- بينما كان الرجال يبئون البيوت كنت أحمل السلع لأبنائهم، ربوا حفدة وعائلات كبيرة وخسرت نفسي. أي ربح يُعادل خسارة العمر يا خوليو؟

لاحث صوفي وهما في عتبة كوخ الرجل الهندي كوميض في الظلمات. ملأ رنتيه بالدخان واستلقى على ظهره، نام يحلم بها حُبلى بجنين أنثى. أشرفت عليه الشمس في صباح وديع مُمدداً على العشب. مع نورها الذي سقى الروابي وملأ البحر كان قد اتخذ قراره الأخير؛ أن يبحث عنها حتى وإن كلفه الأمر خسارة بقية العمر.

في البيت الساكن جنب السور، على الطرف الغربي للحصن، كانت صوفي قد اكتشفت أنها أحبت. نظرت إلى الفاسي تتأمل ملامحه الوديعه. قالت تنظر إلى الشمس الغاربة في المحيط:

- هذه الشمس التي تغسلُ البحر ليست كبقية شمس الأيام التي شهدت، أنظر يا ناجي إلى لونها
الأرجواني وكيف تمدّ ضوءها وتكسو العالمَ بالجمال، أشعر بها في صدري تسري بالدّفء واللذّة.

- ليست الشمس التي تبدّلت يا صوفي، إنّها أنتِ سيّدي.

وضعتِ الكأس، تأملت وجهه الجميل، فكّرت أن تبوح له بحبّها، وتعرضَ عليه الزّواج منها.
أحجّمت. لم يكن الوقتُ مناسبًا، تريده حُرًّا. على خلاف سعادتها كان حزينًا ومهمومًا.

- مالك يا ناجي؟

- اشتقتُ لفاس وأهلي يا صوفي.

- أنا أهلك هنا يا ناجي.

حاولتُ أن تخفّف عنه. ملأت الكثير من الفراغاتِ على مدى الأيام التي انقضت. حاجته إلى أهله
كبيرة. تقدّر ذلك، لكنّها تريده لها.

- أشكرُك يا صوفي.

ثمّ خطر له أن يزورَ عزيزًا يوجد بالقرب. انتقل إلى جانبها. تطلّع إلى وجهها. وحّدًا غيبّة ما
تشدّه للرجوع. كان لينسى عالمه الأول كاملاً.

- تساعديني؟

هزتها نبرته.

- في الهروب؟

- لا، كلا، أعرف الآن أنّ أمر الهروب عسير.

لم يكن تهريبه عسيرًا عليها. تعلّم أنّ رحيله سيترك فراغا لن يملأه سواه. تريده إلى جانبها. فكّرت
في الأيام الأخيرة أن تشتريه من بيدرو بأيّ ثمن يطلب وتأخذه معها إلى لشبونة، تحرّره هناك ثمّ
تعرض عليه الزّواج.

بادر:

- بل أرغب في زيارة عزيز دفننُهُ خلف الأسوار.

- همّام.

- نعم يا صوفي.

- لم أر رجلا في مثل وفائك. هل تكون وفيًا لي يا ناجي؟

انتصبت، اعتمرت فُبعتها الصّفراء العريضة وانحنت تربط خيوط حذائها الأسود والطويل. مدّت يدها إليه، سحبتة إليها. قبّلتها، وبلا تفكير مسبق قالت:

- لنذهب إلى الأسوار قبل أن يغلقوا الأبواب يا ناجي.

في الباب فاجأها رجل بزّي قبطان. كان قد وصل للتوّ. تطلّع إليها. تكلم بنبرة مرتجفة:

- صوفي، هذه أنت، لم تتبدلي.

نزعت القُبعة ودققت في وجه الرجل الذي اشتعل شعره شيبًا، حاولت أن تتذكر الملامح لكنّها أخفقت.

- عفوا، من أنت؟

- غابرييل، أنا الرجل الذي جاء بك من ميناء لشبونة إلى الحصن.

تكدّر لون وجهها، أعادت القُبعة فاخفتي بياض وجهها. أفسحت الطّريق للناجي، أغلقت الباب. المطرُ وديعٌ، والرياح هادئة، الفوانيس التي زيتت الدرب تركتُ ظلالًا جميلةً. فكّرت في طرده. أشفقت عليه. رأسه الأبيض يشفع له. رفعت رأسها باستعلاء.

- لم جئت تسأل عني وقد قبضت الثمن كاملاً؟

ترنّح، بحث عن الكلمات، لم يسعفه لسانه. تقهقر.

- لم أعد الصّبية التي أكرهت على تقديم بكارتها لقاء رُكوب البحر يا كابرييل.

- عفوا يا صوفي، كنتُ نذلاً، حقيراً.

انحنى لها، ثم استدار بلطفٍ ينحدرُ مع الدّرب. في القُمرَة، والسّفينةُ تُبحرُ نحو البرّ الغربيّ كان
القُبطانُ قد نام على كرسيّه. بذل خوليو مجهودًا كبيرًا
ليوقظهُ، لكنّه عائد. عندما هزّه مساعدُهُ بعنفٍ سقط عن الكرسيّ.

كان كابرييل قد اتّخذ القرارَ الأخيرَ؛ نامَ إلى الأبدِ وهو يحلم بصوفي ترضع ابنتَهُ الِكر في بيته
الفاخر المطلّ على المحيط.

العيّاط

- 35 -

المصائبُ لا تأتي إلاّ تباعا.

بمقتلِ شُعَيْبِ انتكسَ العيَّاطُ. صارَ همّه أعظمَ وشُغله في المحلِّ أعسرَ، تباطأتِ خطواته وتقوسَ ظهرُهُ وهجرتِ البسمَةُ وجهَهُ. «استهدي بالله يا عيَّاط، أنت لم تقتلِ أحدًا ولا فرطتَ في واجب، إنّما قدّر الله وما شاء فعل»، تقول زوجته. يشيخُ عنها، تخنقُهُ الجُدرانُ فيحملُ غمَّهُ إلى الدّروبِ، يقضي ساعاتٍ نائها ويعودُ متأخرًا. «لمَ تفعلُ هذا يومًا يا عيَّاط، استغفر الله وعُدْ إلى رشيدك»، ييرتمي في فرشتِهِ، يُولي لها بظهره ووجههُ إلى الجِدَارِ إلى أن يرتفع صوتُ الأذانِ. سمِعته مرّةً يبكي. ألحّت عليه:

- مالك يا عيَّاط، أوجعتني وأدميت قلبي.

- ما أوجعني سواك.

باغتها الرّد. كان الحالُّ ليلا والأنفسُ في مطارحها تهجّع.

- بم أوجعتك يا عيَّاط؟ الخلفة وما قلنا شيء.

رفع رأسه، تطلّع إليها. استغرب. ما كان يحسبُ أنّها تتجرأ يومًا وتُعَايرُهُ بالعقم. عاد رأسه لينحني. «معك حقّ»، قال في نفسه. أضاف يشرح لها ما لم تفهم:

- هل أرد وصيّة من أخلص إليّ؟

- أوضح يا سي محمد.

- ترك شعيب زوجة وطفلا صغيرا..

أوقفته:

- لا يا عيَّاط. لا وصيَّة ولا شيء. أعجبتك زوجة صبيِّك فأردتها لك؟

قامت عن الفراش، نظرتُ إليه تغلي غضبًا. لم تكن هذه أمّ الغيث، بل أخرى لا عهد له بها. صارت في لحظة غريبة عنه، كأنَّها امرأة لم يعرفها من قبل. رفعت يدها تقسم:

- والله ما تدخلُ هذه المرأة بيتنا إلا وغادرته قبل أن تشرب فيه شربة ماء.

- أمّ الغيث، ما أريد زوجة بعدك ولا كلَّ نساء الدُّنيا يُساوين ظفرك. بين نارين يا أمّ الغيث، نار الوصيَّة التي كتبها من كان وفيًا ومات على العهد وبينك؛ أنت المرأة التي أوفيت ووفيت.

- أنا الحيط القصير يا عيَّاط، اقفز عليه. لا يهَمُّك، ادخل بها هنا، وعلى فرشتي، إنّما تحرم عليّ عشرتك بعدها يا عيَّاط، لا تعرفني ولا أعرفك.

ما انتظرتُ أن تأتي المرأة الأخرى إلى بيته، أَعفته من حيرته والخرج. لم تأخذ صيغتها. تركتُ كلَّ شيء وقصدت أخاها الذي في ضاحية صفرو. عاد مساء. فوجد البيت بلا روح. سمعته غيئةً يبكي. اغتمَّ الرِّجلُ فأجهش.

على قدر وفائه تقسو الدُّنيا عليه.

يومان من الجِداد، في اليوم الثَّالث طرقت بيت غيئةً، سألتها عن حاجاتها وصِحَّة الأولاد. «أصيل يا عيَّاط»، فكَّرت. نظرَ إلى الزَّاوية اليمنى للبهو، كانت المعزات تهجُّ فوق العُشبِ اليبس. ابتسم. مشهَّدُ المعزات يُحيي داخله ذكريات بعيدة. سألته عن أمّ الغيث. هزَّ رأسه، تنهَّد.

- الله الغالب. غضبت وراحت إلى بيت أخيها.

- صالحها، راضها، أنت أكرمُ النَّاس وأهل بيتك أولى بكرمك.

- ما هانت عليّ.

- أذهب إليها أنا..

- لا تُتعبني نفسك، أذهب إليها إن شاء الله ويفعل الله الخير.

همَّ بالذهاب. تعرفُ أنّ الوقت ليس مناسبًا، لكنَّها لا تستطيع صبرًا. سألته:

- هل من خبر عن النَّاجي؟

- كلَّ الخير عند ربِّ العالمين.. كلَّ الخير يا بنتي.

أثقل عليه موتُ شعيب وكسرت أم الغيث ظهره. انحنى. كبر الرَّجُلُ. خسر أعوامًا في غُضُونِ أَيَّامٍ. عندما استدار انتبه إلى سُلَّةِ البَيْضِ. لم يَمَسَّ أحدٌ بيضها وحليها. مَضَى في الدَّربِ مهموماً يقصِدُ الجامع. سيُصَلِّي صلاةَ المغربِ، يجلسُ ليقْرَأَ القرآنَ مع من تخلف من المُصَلِّينَ إلى أن يرتفع صوت الأذان. يُصَلِّي العشاء، ثم يطلق ساقيه في دروب فاس. خريزُ السَّقَاياتِ يغسلُ الكثير من الهموم ويتركُ الكثير عالقًا.

أقفرَتْ فاسُ برحيل أم الغيث وضافت الدَّروبُ والشَّوارِغُ. صارَ النَّهارُ قطعة من ليل والليلُ جدارًا من صخرٍ. سرَّحَ بعيدًا، أخذته الدَّروبُ إلى الدَّروبِ والأسوارِ إلى الأسوارِ. قدَّمهُ التي لم تألف غير عتبة باب بيته توقفت في عتبة بيتٍ آخر. ماعت قَطَّةٌ في الزَّفَاقِ. كان صوتها جارحًا، ونعبَ بُومٍ في الكرمة التي في أقصى الرَّاوية. قرع دَقَّةَ البابِ. انتظر. لما لم يُجِبْ أحدٌ قرع الدَّقَّةَ مرَّةً أخرى. خاف على زوجة صبيِّه المُتوفى وتوجَّس. مِنْ خَلْفِهِ جاءَ صوتُ امرأةٍ تحمِلُ طفلاً:

- رحلتُ أمس سيدي.

عاد ينظر إلى البابِ لعلَّهُ أخطأ البيت.

- رحلت؟ إلى أين؟

- والله ما رضيْتُ أن تُخبرَ أحدًا. حملت متاعها وغادرت فاس.

- كيف وليس لها في الدنيا من أحد؟

- بلى، لها أهل في حاحا.

- ما كان عليكم أن تتركوا امرأةً ترحلُّ بطفلها وأنتم جيرانها.

- فعلنا ما قدَّرنا الله عليه لكنَّها رفضت. طلبنا منها أن تخبرنا أيَّ البلاد تقصد حتى نسأل عنها. قالت إنَّ الله موجود في كلِّ مكان، لذا لن تخيبَ امرأةٌ تكلِّي حيثُ ما ذهبَتْ.

ركل دَقَّةَ البابِ.

- ومالُ ابنها الذي عندي؟

أزالتِ اللثامَ عن وجهها. كانت امرأةً جميلةً وفي تمامِ نُضحها. نظرتُ إلى عينيه:

- رفضتُ أن تقبلَ المالَ ممّن دفع زوجها إلى الهلاك فلا تتعب نفسك. لن ترضى بك زوجاً ولا بمالك فديةً.

غَيْثَةٌ

- 36 -

«السَّقَرُ كالحَرْبِ، معاركُ، تُنْسِيكَ التي تأتي تلك التي مضتْ. لا الأرضُ تبقى هي الأرض ولا الحالُ هو الحالُ، يَكْوِيكَ حرُّ الشَّمْسِ ويقهْرُكَ لُفْحُ البَرْدِ، لَمَّا تَسْتَكِينُ إلى أرضٍ أَيْمًا تَذَكَّرُكَ الوُجُوهُ أَنْكَ الغَرِيبُ الطَّارِئُ الذي ما دَخَلَ إلا لِيُخْرِجَ».

تَسْتَعِيدُ غَيْثَةً كَلِمَاتِ زَوْجِهَا عن تجارِبِ سَفَرِهِ المَرِيرَةِ والطَّوِيلَةِ. «النَّاجِي كِتَابٌ مَفْتُوحٌ»، تَقُولُ في نَفْسِهَا. تَتَخَيَّلُهُ جَالِسًا إلى الأَرْضِ، عَارِيًا بلا فِرَاشٍ يَقيهِ أذى البَرْدِ، جَائِعًا بلا قَلْبٍ يَحْنُو عَلَيْهِ وَيَضَعُ اللَقْمَةَ في فَمِهِ. تَتَأَلَّمُ. تَنهَشُهَا قَلْبُ الحَيْلَةِ فَتَجْنَحُ للغَنَاءِ.

بَابِ الغَرَفَةِ مَفْتُوحِ كَجَرَحِ. بَرْدُ آخِرِ اللَّيْلِ حَادِّ. تَغْسِلُ وَجْهَهَا في النُّجُومِ. امْتِدَادُ السَّمَاءِ يُشْعِرُهَا بِقُوَّةِ اللَّهِ.

«لَعَلَّ اللَّهُ يُفَرِّجَ كَرَبِي وَيُزِخَ عَنِّي غَمِّي وَيُعِدُّ لِي زَوْجِي».

رَحَلَ النَّاجِي. ما بقي بين يديها ليس أكثر من كلمات:

«يا رَبِّي، يا من لك الخَيْرُ كُلُّهُ، اعْفُ عَنِّي وارحمني. يا من تُسَيِّرُ الفَلَكَ في ظُلُمَاتِ البَحْرِ بِبِهَاةٍ جَلالِكَ وتمدُّ للعابرين السُّبُلَ في الصَّحاري بَنُورِ سُلْطَانِكَ، فَأَنْكُ عُسْرِي وَيَسِّرُ أَمْرِي واجمعني بمن أحببتُ.. يا من لا تخفي عنه خافية ولا تفوته شارقة ولا غاربة، بيدك الأمرُ كُلُّهُ، أَنْتَ القَاهِرُ فوق كُلِّ قَاهِرٍ، القادِرُ فوق كُلِّ قادِرٍ».

لن تَسْمَعَ غَيْثَةً زَقزَقَةَ الطَّيُورِ تَعْتَلِي أَغْصانَ شَجَرِ الكَرْوَمِ ولن تَسْمَعَ رائِحَةَ الخُبْزِ الساخنِ التي أَلْفَتْ أن تُدَاعِبَ صَباحاتِها وهي تَفُوحُ من الفُرْنِ الذي خَلْفَ البَيْتِ. غَرِقَتْ شَيْبًا فَشِيئًا في هِواجِسِها فَعَابَ العالَمُ عنها. ابْنُها الصَّغِيرُ نامَ على بَطْنِهِ، مَفْتُوحِ الفَمِ، عيناها نِصْفُ مُغْمَضَتَيْنِ. منذَ رَحَلَ النَّاجِي لَمْ يُعْلِقْهُما مَرَّةً، ينامُ وفي صدره خَوْفٌ من المَجْهُولِ. تَرَخِي ساقِيها، أَمامَها نافِذَةٌ عُرفَةٌ أمَّ الغَيْثِ مُغْلَقَةٌ. لن تُفْتَحَ، ولن تُطَلَّ المَرأةُ التي خَفَّتْ عنها شَيْبًا من قِسْوَةِ الرِّمَنِ. طِفْلاها الأَخْرانِ ناما في فَرشَتَيْهِما. لم تَقْبَلْهُما قَبْلَ النُّومِ كما اعتادت. انظُرَا قُبْلَتَها طَوِيلًا. شاردةٌ وواجمَةٌ ومعكَّرةٌ المِزاجِ لَمْ يَجْرُوا أَيُّ مِنْهُما على الحَدِيثِ إليها.

- هل تهرب أمي لتبحث عن أبي وتتركنا؟

قال لأخيه.

- لن تفعل..

- لكنّها جرّبت من قبل. أنسيت؟

- رحلت أم الغيث يا أيمن ولم يعد لها لمن تتركنا هنا.

- العياط؟

- العياط رجل، والرّجال لا يتعهّدون الأولاد.

- وإذا فعلت؟

- نم يا أيمن، إذا فعلت أنا أتعهّدكما؛ أنتما إخوي الصّغيرين.

اطمأنّ أيمن لكلمات بكر، شعر بالبرد. أمه تواصل تيهها؛ تنظر عبر الباب المفتوح إلى السّماء تحصي النّجوم. دغدغت كلمات الأخ الأكبر داخله إحساسًا متمنّعًا بالأمان. ابتسم في وجه بكر، رآه رجلا تامّ الرّجولة. أخذ الهواء ملء رئتيه، استدار نحو الجدار، سحب الملاءة، ثمّ نام بعينين نصف مغمضتين يأمل بعودة المياه إلى الغدير.

«سنعود يا أبي، تُركبني الحصان الأبيض، وتتقدّمني في طريقنا إلى السّوق. سأرى مرّة أخرى الرّجال البالغين صغارًا وقصيري القامة، وأطلّع إلى مواطن صلّعهم وإلى عمائمهم التي تستقرّ فوق رؤوسهم كأعشاش الطّير. سيلوّح لي الكثير من السّابّلة باسمين، لكنني سأغضّ الطرف عن الجميع وأمضي مزهوًّا بحصان أبي الأبيض الكبير.

أبي، لا تتأخّر أكثر، أخشى على أمي من الجنون وأخوي من المرض. ما عادت زوجتك وأمّ أولادك تقوى على الاحتمال وما عاد أخوي قادرين على الانتظار. أرجوك، أعرف أنّك أقوى من جنود حصن البرتغال أنت الذي صفعت رجلا بدويًا تجرّأ على النّظر إلى أمي فطرحته أرضًا وواجهت محتالا أراد بعجوز سوء فأدبته. أبي اركل جدار سجنك يصرّ زكامًا واركض في القفار والخلوات تغدو بيننا بين ليل وصباح.

أبي اشتقتُ إليك، فلا تتأخّر أكثر.».

نامتُ غِيثَةً فجرًا. مع تكبيرات الأذان التي ملأتِ سماءَ فاس مال رأسها على كتفها الأيسر، غامتُ عيناها وغابتِ عن دُنيا رتيبة لا يفرق فيها ليلٌ عن نهارٍ.

«آذاني الغيابُ يا غالي، إمّا أن تعجّل أنتَ بالمجيءِ إليّ أو أبادر أنا بالرحيلِ إليك.».

لا أحلامَ ولا كوابيسَ، إحساسٌ بالسقوطِ في هاوية.

ثمّ استفاقتُ فرعةً على صراخ أطفالها.

- مالكم؟ سنو واقع؟

- المعزات يا أمّي، المعزات..

خرجتُ إلى البهو. تعثّرت لكنّها لم تسقط. أعماها وهجُ الشّمس. شعرتُ بالفراغ، حلّقها جافٌ وركبتها خاويتان.

- مال المعزات يا بكر؟

تراجع الوهجُ ولاح البهو فارغا من غير قمّ الدجاج. «أغفلتُ إغلاقِ دقّة البابِ فسرق اللّصّوصُ معزاتي.» خلّصتُ.

- سرقوا معزاتنا يا أمّي.. سرقونا...

أحبّبتُ غيثةَ معزاتها. ما عادتُ في حاجةٍ إلى الحليبِ بقدر حاجتها لحضور المعزاتِ نفسها، كفاها العيَاطُ حاجتها من كلّ شيءٍ، لكنّها ملأتِ الكثير من الفراغات في يومها الطويل، تخلّبها وتطعمها وتنظّفُ مستقرّها وتحدّثها أحيانا. فكّرتُ في الأسابيع الأخيرة أنّ المعزات، مثلها، تنتظر عودة النّاجي.

ضربت على فخديها:

- سرقوا المعزات يا أمّي. ضاعت المعزات.

بدا أنّ عالمها ينهار قطعةً قطعةً، كلما حاولت أن تُرَمِّمَ جدارًا انهار تاركًا فجوةً مفتوحةً أمام المزيّد من الرّيح. عاجزةً عن فعل شيء عادت إلى غرفتها. أبناؤها الثلاثة ظلّوا يرقّبونها إلى أن أغلقت باب الغرفة عليها. ارتخت في مكانها وتركت رأسها يميلُ على كتفها الآخر. لم تكن ثمّة نُجومٌ اللّيل تأنس إليها، لا شيء غير ظلام الغرفة وظلام الدّاكرة وإحساسٌ بالسّقوط.

«بلغت سبع سنوات»، قال بكر في نفسه. طلب من أخويه أن يجلسا تحت سقيفة القصب وقصد قنّ الدّجاج، سحب ثلاث بيضات، وفي الكانون أوقد النّار على المقلاة. سعيدان بأخيها الأكبر تابعاها يُعدُّ لهما طعامًا. رمى القليل من الملح والكمون وجلب خبزًا باردًا ممّا تبقى من خبز أمس.

- كلُّ معنا يا بكر.

- بل تبقيًا حيث أنتما إلى أن أعود.

صفق دفة باب البيت وعانق الرّيح. «صرت رجلاً»، ردّد في نفسه. عبر الدّروب الأولى يركض فتلاحقت أحلام الرجل الذي يريد أن يكون، رأى نفسه يبرّس فاحر يقف في باب محلّ كبير ومن حوله الكثير من الصّبيان. سار على طول الشّارع العريض، تتابعت محلات كثيرة ويوتّ بشرفات أبيه ومضى القصب فوق رأسه يظللّ العابرين والمتبضّعين. عرج إلى شارع آخر فأخّر. حاول أن يتذكّر طريق السّوق. لاحظ أنّ سيلا من النّاس يتدفّق صوب الشّرق فسار معهم. رجالٌ يجزّون عرباتٍ بعجلتين وبغالٍ تكاد تسقط من ثقلها وحمّالون بأكتاف عريضة وسراويل قصيرة.

«رائحة العرق تخنق، وكثرة اللّغط تصمّ، لكنني كبرت، كبرت بما يكفي لأتخطى أسوار البيت وأشارك الكبار عالمهم الكبير».

شعر بالهيبة، عرباتٌ تجرّها خيولٌ وعبيدٌ مسلسلون يساقون كالبهائم إلى السّوق ومساجينُ حفاة يُدفعون نحو أبواب فاس للخدمة وسلع مصفوفة على أبواب المحلات تلتصق ببعضها. كثيرٌ من كلّ شيء؛ أدوات من الحديد والنّحاس وصيغة من الفضة والذهب وأفرشة مغزولة من الصّوف وأثاثٌ من الخشب وخليط من الأجناس والوجوه والروائح.

في مفصل شارعين كادت عربة يجرها بغلان أن ترديه. صرخ الحوذي: «انتبه يا جزو». تراجع إلى الخلف خطوات، مرّت العربة، رأى فيها مساجينَ بانسين فتذكّر والدّه. تبعّت العربة عرباتٌ أخرى وأخرى. لم يستحضر مشهد

السّوق الذي رأى حين زار محلّ العياط رفقة أبيه آخر مرّة. بدت فاس كلّها أسواقا وحوانيت متشابهة. نظر من حوله، أدرك أنّه لا يتذكّر الطّريق إلى محلّ العياط الذي خرج يقصده كما لا يمكنه أن يعرف طريق العودة إلى البيت.

«لن تبكي يا بكر لأن الرجال لا يبكون».

سأل رجلا عن محلّ التاجر العيَّاط، أزاحه عن طريقه ومضى. عندما انفتحت الشوارع التي تُفرغُ النَّاسَ والسلع أيقن أنه بلغ إلى السُّوق الكبير. «لكنَّ أسواقَ فاس كبيرة كلَّها». صارت المحلات أكثر وأكبر والازدحام أشدّ. عاد ليسأل. ما أعاروه اهتمامًا. سلك مسرّبًا بين السلع ومضى جهة المحلات. قضى ساعة ولا حصل على شيء.

«أمّي، لعلّي أخطأت بالخروج من البيت».

جال ببصره ثم ارتدّ نظره إليه، تداخلت الأصوات وصار اللُغَطُ فظيعةً. ما عاد يُميّز بين الكلمات. خفق قلبه بشدّة وتشوشَ ذهنه. من خلف حطّت يد على كتفه الصغيرة:

- ماذا تفعل هنا يا بكر؟

التفت إلى الخلف، تنفس أخيرا بارتياح ينظر إلى أحد صبية محلّ العيَّاط. كان طويل القامة، نحيفًا، أسمر، يجرّ خلفه بغلا محمّلًا بالسلع. بيديّ قويّة وحركاتٍ سريعة رفعه إلى أعلى ثمّ ثبته فوق السلع المتكوّمة على ظهر البغل.

- جنّت أبحث عن العيَّاط.

لم يسمعه. اقترب قليلا فأعاد بكر العبارة نفسها. ضحك الصبيّ.

- ليس هنا. محلّ مولاي العيَّاط، بل في الجهة الأخرى من المدينة. كنت لتضيع.

صغير السنّ، نحيف البنية، لكنّه قويّ الشكّيمة. مضى يتقدّم دابّته. حين تحرّك البغلُ تبدّل العالمُ. صار النَّاسُ صِغارًا وتبدّدت الكثير من الوحشة. فقد السُّوقُ هيبتَهُ والبنائيات عظمتها. مضى به فتدفّقت الرياحُ تجفّف عرقه.

«نعم، كبرتُ يا أمّي. لو لم أكن كذلك لما تجرّأت على الخروج من باب البيت إلى أسواق فاس العظيمة».

حكى له صبيّ المحلّ عن شعيب الذي مات في طريقه ليحرّر النَّاجي وعن حياة العيَّاط التي تغيّرتُ فما عاد فيها مكانٌ للبسط.

- حتّى كؤوس الشّاي التي لم تُفارق المحلّ يوماً هجرها. ألقَ عن الأخذ في الكلام مع التّجار، يبيغ بأقلّ الكلام ولا يزيدُ فوق البيع والشّراء كلمة.

- رَجُلٌ أصيلٌ.

علق يردّ عليه بما تقولُ أمّه عنه كلّما مرّ عليهم في البيت يتفقّد حالهم.

ابتهج العيَّاط والصّبِّي يدخلُ عليه المحلّ. لا يملك تفسيرًا. شَعَرَ بسعادةٍ تغمُّرُه فأمر أن يؤتى بالحلوى وتجلب صينية الشّاي بلوازمها. جالسَه كما يفعل مع تاجر ثريٍّ وذو هيبةٍ ووقارٍ أيّام كان يبسط ويضحك.

- والله أدخلت البهجة على قلبي يا بكر. لن يمرّ يومٌ إلا وأنت معي، وإلى جانبي، أعلمك أصول البيع وفنون التّجارة.

- سرقوا المعزات يا عمّي. أخذوها صباحا ونحن نيام.

ردّ الصّبِّي.

- ولا يهملك آتي بها أينما كانت.

نادى على ثلاث من رجاله، أعطاهم علامات تميّز المعزات وأرسل كلّ واحد منهم في طريق؛ الأوّل إلى سوق الماشية والثّاني إلى المسلخ والثّالث إلى أبواب المدينة.

- لا ترجعوا إلا والمعزات الثّلاث في أيديكم.

نظر العيَّاط إلى عينيّ بكر:

- ما رأيك في ما اقترحتُ عليك؟

- مدّ الصّبِّي يده الصّغيرة:

- اتّفقتنا؟ من الغد أرجع معك إلى المحلّ.

ساعة أخرى. لم يبلغ الوقت الظّهر. شمسُ اليوم أخفّ من أمس، وحالُ الأرض يميل إلى الرّبيع. سمعت غيئةً من بعيد تغاء المعزات يقترب. «أحلم». لكنّ الصّوت اقترب. دفعت دقّة باب غرفتها،

هرولت إلى باب البيت. في الدّرب رأّت بَكَرٍ يجرّ المعزات الثلاث ومن خلفه العيَّاط يمشي باسمًا.

- ابنك صار رجلاً يُعتمد عليه يا غَيْثَةَ. الوَلدُ صارَ راجلًا.

عانقت معزاتها:

- حبيباتي.

تابعها العيَّاط، مثل طفلة أبهجتها هدايا العيد.

مساءً سحبت أصغر معزاتها، أدخلتها غرفتها، ونامت إلى جانبها. نامت للمرّة الأولى أبكر من أبنائها، وحلمت بالنّاجي يقرع باب البيت ويدخل في صحّة وعافية.

نهاية سلطان

- 37 -

انزلقت المدى تحز الأعناق، وسرت السيوف تمزق الأحشاء. سال دم كثير، غزيراً تدفق يسقي أرضاً بوراً لا ترتوي. الشيوخ من شرفات بيوتهم تطلعوا في البعيد؛ استعادوا حكاية ملك لا تكف تتكرر باستمرار.

الحكم ملعون؛ ملعون من ابتغاه، ومن والاه، وملعون من عاداه.

أغلق خلق كثير أبواب بيوته على نفسه. لزم كل حي مستقره والصمت. في الخارج تدفق أزيز عجلات العربات وصهلت الخيول وارتفع لغط المشاة مُحزَمين يعقدون العزم على سحق الترك. يدرك الناس بغريزتهم أن الأوان ناز؛ الحديد يسفك الدم والشدة تمحق اللين، والجشع يقطع الأرحام.

- مات السلطان؟

قال طفل صغير لأخيه. نظر الأكبر سناً إليه مرتعباً.

- اسكت، لا شأن لنا.

- نعم، لقد مات. قتله الأتراك، حزوا عنقه. سمعت أبي يتحدث إلى أمي.

وآرب الأكبر سناً دقة النافذة. دروب تارودانت مُقفرة. بدت مدينة هجرها أهلها. اطمأن، أغلق النافذة. قال يشرح لأخيه:

- يأتي ولده عبد الله ليأخذ النار ممن خانه. سيفتل قنلة السلطان.

- لكن السلطان قتل رجالاً من قبل، قال أبي لأمي، وبلا وجه حق.

- لا شأن لك، سيقطعون لسانك الطويل.

وضع الصغير يده على فمه وهرب يختبئ خلف ظهر أمه التي كفت عن مخض اللبن. طلبت من ولديها أن يقتربا.

- لا تخوضا في سبب السلاطين فلا نجا منها من تحدت بخير ولا سلم من ذكرها بسوء.

وتدقق المداد يعقز البردي. كتب المؤرخ المجهول بين الأسي من غدر الترك والتشقي من سلطة السعديين: «ونفذ فيه حكم الله كما أخبره الفقيه الزقاق رحمه الله وهكذا حكّم القضاء والقدر». وقال الطاهر الإفرائي في وصف خديعة الترك: «وكان أبو عبد الله يركب فيهم ويقدمهم ويدينهم منه ويأمن فيهم، وما علم أن الترك، كما يقول الشاعر:

لا تأمنن تركياً فيما يقول ولو

من العبادة حتى طار في السحب

إن جاد يوماً فذاك الجود من غلط

وإن تمرّد عن أمّ له وأب

فدخلوا عليه خباءه على حين غفلة من العسس فضربوا رأسه بشاقور ضربة واحدة أبانوه بها... وهرب بعضهم بالرأس إلى أن أبلغوه إلى السلطان بالقسطنطينية. فلم يزل معلقا بها إلى أن تلاشى».

«مات السلطان، ضربت الترك عنقه، غدرت ولاذت تتحصن بالقصبة»، تناقلت الألسن سراً، قبل أن يصير السر إلى علن، والعلن إلى لغط في صفوف الجند. ارتفعت الأصوات وتداعى المقاتلون وعظمت الحمية بين قبائل السهول والجبل والصحراء ونودي للنار من بني عثمان.

جرت الخيل تضرب في الأمصار ونفخت الريح الأخبار في الشعاب والوهاد وحواري المدن وتحرك جيش المولى عبد الله من فاس وقد بايعه علماءها ودخل مراكش فزادت الجند على الجند. دُفعت الرواتب وجُهزت المحلة السلطانية أحسن تجهيز وزحفت الجموع إلى الجموع التي تنتظر في تارودانت.

خافت انكشارية الترك ودخلت القصبة وصوبت المدافع وملأت المخازن بالمؤونة والسلاح. عندما ظهرت مشاعل جيش السلطان الجديد تنير سهول الجبال أغلقوا الأبواب.

«أخذتُ ثأرَ مُعلِّمي عبد الواحد، بقيَّةَ المعركةِ لا تعنيني»، قال أحمد في نفسه. ألَهَبْتُ مشاعِلَ جَيْشِ السَّعْدِيِّينَ بِطُورِ الجبالِ، مِثْلَ زُهورٍ من نارٍ تَفْتَقُ في رحمِ اللَّيْلِ. سقطَ محمدُ الشَّيخِ فنَهَضَ العداةَ الرَّاسِخُ القَدِيمُ الذي في صدرِهِ ضِدَّ التُّركِ. عقدَ يَدَيْهِ، باسِمًا نَظَرَ إلى الخِيَامِ من إحدى شُرُفَاتِ القُصْبَةِ تحفُّها المشاعِلُ.

- لا نَوْمَ للتُّركِ بعدَ اليومِ.

قالَ الذَّميُّ وعلَى وَجْهِهِ أماراتُ التَّشَقِّي. كانَ الصَّيرَفِيُّ، صاحِبَ مفاتيحِ الخَزِينَةِ، والمُكَلَّفَ بتسييرِ المؤنَّةِ وصرَفِ الرِّواتِبِ.

- حَرْبٌ خاسِرَةٌ. سيذبحونهم بلا شكِّ.

علَّقَ أحمدُ. أضافَ باروخُ:

- لَيْسَتْ حَرْبُنَا.

- ولن تكون يا باروخ، لن تكون.

ابتسم الذَّميُّ. لم تكن أيِّ حَرْبٍ مَضَتْ حَرْبُهُ. كانتُ دومًا حروبَ الآخرين، لكنَّهُ كانَ دائِمًا مضطَّرًّا لِحوضِها. ربت على كتفِ صاحِبِهِ. كانَ الرَّجُلُ السَّتِينِيُّ قَصِيرَ القامةِ، مُستدِيرَ الوجهِ، حادَّ الذِّكاءِ.. وكانَ لأحمدِ في صدرِهِ معزَّةٌ خالصةٌ.

- ولن تكون حربنا يا أحمد، ابق بعيدا عن خطوط التماسِ ومَرَمَى النَّيرانِ واحذر أن تعقلِك عيُونُ السَّعْدِيِّينَ فتذبحَ بدخولهم القُصبةَ ذبحَ الشَّاةِ.

يثقُ أحمدُ في باروخِ. كانتَ بينهما مودَّةٌ. ما نظرَ إليه نظرةَ الذَّميِّ يوما. كانَ صاحِبِهِ الذي يستشيرُهُ في أيِّ أمرٍ. حرَّكَ رأسَهُ:

- سأفعل، فأنت صاحب الخزائن.

ضحكا، لكنَّ دويَّ القذائفِ التي انطلقتْ مثلَ جِمَمٍ تُضيءُ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ أصابتهما بالخرَسِ. استدارا نحو النَّافِذَةِ وتابعا المدافعَ ترمي اللهبَ.

عربة الموت الأولى

- 38 -

«إنّ للوباءِ لصولاتٍ سيدي.

وهلّ أنسَ الأيادي التي يبسّها الموتُ فظلتْ تشدُّ على حبلِ العربةِ كما يشدُّ غرقى يجرفُهُم السَّيلُ
حبلَ النّجاةِ؟

وكان حبلَ الحياةِ الذي صرّمهُ الموتُ وتركَ القابضينَ عليه جوعى للحياةِ.

كلا سيدي، تتحجّرُ الوجوهُ؛ ويصيرُ صوتُ الرّيحِ في الصّدرِ الحصى، كأنّ قدرى أن أحملَ الوجوهَ
على اختلافها وأمضى بها لا أدري لم ولا إلى أين.

نزلَ الضبابُ، أغرقَ بيوتَ فاس في الصّمتِ والكآبةِ والمساءِ، وتدفقتِ الرّيحُ عدائيةً تدفعُ العُبارَ
والقنوطَ وآخرَ الحكاياتِ البائسةِ إلى ضيقِ الدُّروبِ.

إنّه الأفول.

جاءتِ المرأةُ ذاتُ الأوشامِ تجرُّ صبيّها، قرعتِ البابَ. لما لم يُجبَ عليها المسخُ رفعتْ صوتها. في
البيوتِ المهجورةِ وخواءِ الأزقةِ تردّدَ الصدى. قالتْ تستجدي:

- أنا كلثوم، حبيبةُ زوجتك يا إبراهيم، كلثوم أمّ رضا.

ما أجاب. خبطت دفة الباب. سقط ولؤها على ركبتيه وقد أوشك على الهلاك. صرخت أعلى.
الشبابيكُ مغلقةٌ أهلها أو مشرعة على الخراب. كذلك القلوبُ سيدي. استجدت:

- ولدي يا إبراهيم، ولدي يموت.

كان يرتشفُ الشّاي، في البهو، على بعد خطواتٍ وقد ترك قدميه يتمدّدان. استرخى كأفعى وتوسّدَ
مخدةَ الدوم. في السّماء لم يبقَ غير ظلال أشبه بذكريات بعيدة تلامسُ الغياب. وكان اللّحمُ في القدرِ

على حجر الكانون ينضُب تحت نارٍ هادئة.

من إحدى بوابات المدينة المشرعة على الريح، بلا حرسٍ ولا لُصُوصٍ، مرّت العرَبَةُ القادِمةُ عبْرَ المسالكِ التي خَلَفَ التَّلَالِ الجرداء.

كُلُّ التَّلَالِ كانت جرداءَ سيدي، حتّى بُبُوتِ الطَّينِ الواسعة التي صمّدت بين أشجارِ التَّينِ والزَّيتون عقودًا صارتُ خربًا.

اندفعتِ البِغَالُ تجرُّ العرَبَةَ. تعرفُ طريقَها هي التي خَبِرَتِ المسالكِ وحفظتِ الدُّرُوبَ. لن يعترضَ أحدٌ سبيلَ عرَبَةٍ يقودُها رجالٌ ماتوا في الطَّرِيقِ.

لا تسألني كيف رأيتُ المرأةَ التي في عتَبَةِ بابِ بَيْتِنَا وتابعتُ العرَبَةَ التي جاءتْ من موطنِ المنابع، خلف التَّلَالِ الجرداء، ولا كيف عَلمتُ أنّ الرِّجَالَ ماتُوا في منتصفِ الطَّرِيقِ، كنتُ بأكثر من رُوحٍ، وكان جسدي مجردَ ظُهورٍ رمزيٍّ لِصُورَةٍ تتجلى في أكثر من مَكَانٍ.

- افتح يا إبراهيم، ربّي يحفظُ لك الغالي عليك ويدفعُ عنك البلاء.

وخزنتُه، رمى كأس الشاي وركل القَدْرَ الذي في الكانون فانقلب. رأى معصمًا صغيرًا وقِطعةً كاملةً من فخذِ طفلٍ. خرج إليها:

- رُوحِي يا امرأة.

دفعها كما فعل مع غيرها. انطرحت. كان الطِّفْلُ قد تمدّد على الأرض.

- الغالية ماتت. بعدها ما عاد من غالٍ. ارحلي.

تقلّبتِ العرَبَةُ بين دُرُوبٍ كثيرة ولقّت حول شوارع، سقطتْ سُقُوفُ القَصَبِ التي ظلّلتْ نُزْهَةَ أهلِ فاس وانهارتْ الكثير من الشرفات، باتتْ كالسّلام تتدلّى نحو الأرض. صادفتِ العرَبَةُ رَجُلًا في الطَّرِيقِ. بين الضَّبَابِ لاحت له عيونُ أطفالها الموتُ فتسمّر. كادتِ البِغَالُ تقتلُه.

في ساحة فاس، حيث توقفتِ العرَبَةُ كما قُدّر لها، كان بضعةُ رجالٍ ونساءٍ ينتظرونَ بائعَ اللحمِ الطَّرِيقِيِّ كي يقايضوه بأطفالٍ صِغارٍ، وكانت المرأةُ ذاتُ الأوشامِ تحملُ طفلها بين يديها. رفضتِ الاستسلامَ فسبقته.

اقتربوا من العرّبة بحذرٍ. كانت البغال الأربعة تلهت وكان البخار يفور من أفواهها وقد صار الحرُّ إلى بردٍ. تحت ضوء المشاعلِ لاح وجهُ الرّجلِ يمسكُ بالحبلِ ورأسه ساقطٌ على صدره. بجانبه رجلٌ شدّ من وسطه إلى عمودِ العرّبة كي لا يسقط، فتدلى على طرفها الأيسر مثل شِوَالٍ نُحَالٍ. «الله أكبر»، صرخ رجلٌ أطلّ من خلفِ العرّبة. قال لا يُصدّقُ ما يرى:

- قَمَحٌ وشعيرٌ وزيتٌ؛ مؤونةٌ شهوٍ.

تحركتِ الدّماءُ الرّاكدةُ في عروقِ الجوعى فتحركوا ليأخذوا نصيبًا ممّا جادَ به القدرُ. لم تكتملِ الفرحةُ، أخمدها صرّاحُ فضوليّ أَمَطَ قَبَ الجلبابِ عن رأسِ الرّجلِ الثالثِ:

- رجالٌ أكلهم الطّاعون.

نظروا في وجوه بعضهم البعض، تراجعوا خفافاً. صهلتِ البغالُ، تحركتُ تتقدّمُ بالعرّبة أمتارًا ثمّ عادتُ لتستكينَ. كان إبراهيمُ بقفّةِ الدُّومِ يتقدّمُ نحوها.

- يا أهلاً بالبشائرِ.

داعبَ البغالَ واحدًا فواحداً ولا مسَّ صُدُورَ الهلكى. التفتت نحو المرأة ذات الأوشام، ابتسم في وجهها ففغرت فمها.

- تقدّمي، آتني الولدَ، لا تتركه يضيغ.

أطاعته، خطت.

- لم يمت بعد.

قالت له. تسلّمه منها:

- اتركه ينالُ شرفَ الموتِ في الطّريقِ.

وضعه في ظهرِ العرّبة، ثبته بحبلٍ كي لا يسقط، ثم ألقى قفّة اللحم بين أكياس الحنطة. كان بذلك يجودُّ على ضيوفِ طارئين. جرّ البغالُ، جعلها رأساً نحو البابِ الغربيّ لأسوارِ فاسٍ ثمّ ضربها فأسرعت. قال يفتح ذراعيه:

- هَيَّا، إِلَى مَكْنَسَةٍ، وَزَعِي بِشَائِرِ الْمَوْتِ أَيْنَمَا مَرَرْتُ».

غَيْثَةٌ

- 39 -

- هذا أنت يا بكر؟

قالت غيثة لا تُصدّق عينيها.

- نعم، هذا بكرُ يا غيثة.

قال العياط.

- يا الله عليك يا ابني.

أشارَ التاجرُ الشاطرُ، الذي استعادَ شيئاً من سابقِ ألقه، نحو الصبيّ، بيديّ مَبسُوطَةٍ ووجه انشرح بعد
وُجُومِ عَمَرِ طويلاً:

- ابنك صار رجلاً.

تقدّم الصبيُّ برأسِ شامخٍ وخُطواتٍ ثابتةٍ في البهو. سارَ مُختالاً في البُرُوسِ الأبيضِ الفاخرِ والبلغةِ
الصّفراءِ والقميصِ الفضفاضِ المشدودِ في الوَسَطِ بحزامِ مطرّزٍ. كان الوقتُ ظهرًا. الشمسُ في كبدِ
السّماءِ تسطعُ فيغسلُ نورُها الوهاجُ الأرضَ.

- كبرت يا بكر، كبرت يا وادي.

لفّ العياط سلهامةً عليه وخطا في البهو مزهُواً بالصبيّ. ما تحقّظَ في دُخولِ البيتِ. غيثة تساهلت
بدورها فأهملتُ شعرها الغزيرَ مكشوفًا. قدماها العاريانِ بديا كقدمي ملاك. في صدرِ العياط جاشتُ
الرّغبةُ. قاومَ النّفسَ الأمارةَ بالسّوءِ. عندما انحنت تابعَ باشتهاةٍ ما انكشفت من نهدِها العامرينِ.
ضمتْ ابنها إلى حُضنِها، أغمضتْ عينيها.

- لو كان أبوك هنا لفرح بك.

مَدَّ العِيَّاطُ يَدَهُ، أَمَسَكَ بِيَدِهَا. فِي بَدَنِهَا سَرَتِ الرَّعِشَةُ.

- أَنَا أَبُوهُ وَوَلِيُّ أَمْرِهِ يَا غَيْثَةَ. هَذَا ابْنِي الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ مِنْ صُلَيْبِي.

- أَصِيلُ سَيِّ العِيَّاطِ، كَفَيْتَ وَوَفَيْتَ.

انْتَصَبْتُ فَسَجَبَ يَدَهُ. لَمْ يَرْفَعْ نَظْرَهُ عَنِ صَدْرِهَا. تَابَعَ بَكَرُ طَرِيقَهُ إِلَى غَرْفَتِهِ، تَرَكَهُمَا وَحَدَهُمَا. ظَلَّ العِيَّاطُ مُتَسَمِّرًا. لِبَاسُهَا الخَفِيفُ أَشْعَلَ شَهْوَتَهُ، رَأَاهَا عَارِيَةً فِي فَرَاشِهِ. الهَوَاءُ الذَّافِيُّ المُحَمَّلُ بِرَوَائِحِ الفَوَاكِهِ المَوْسِمِيَّةِ النَّاصِجَةِ أَنْعَشَهُ، سَرَخَ بَعِيدًا، لَمَّا عَادَ كَانَتْ غَيْثَةُ الجَمِيلَةَ قَدْ لَحَقَتْ بِابْنِهَا وَأَغْلَقَتْ دِفَّةَ البَابِ خَلْفَهَا.

«أَمِيرُ يَا ابْنِي وَاللَّهِ أَمِيرٌ»، قَالَتْ غَيْثَةُ وَقَدْ أَبْهَجَهَا حَالُ ابْنِهَا. أَخِيرًا دَخَلَ عَلَى قَلْبِهَا شَيْءٌ مِنْ فَرَحٍ. لَمْ يَكُنْ قَدْ مَضَى عَلَى رَحِيلِ النَّاجِي إِلَّا بَضْعَةُ أَشْهُرٍ، وَكَانَتْ مَدَّةً طَوِيلَةً بِمَا يَكْفِي لِتَظْهَرِ شَعِيرَاتُ بِيضَاءٍ وَيَسْقُطُ حُكْمُ بَنِي مَرِينٍ وَيَعْتَلِي سُلْطَانُ السَّعْدِيِّينَ مُلْكَ البِلَادِ وَيَلْقَى حَتْفَهُ. تَأَمَّلَتْ وَجْهَ وَلَدِهَا الَّذِي يَنْضَحُ بِالحَيَاةِ، بَارَكْتُهُ وَطَلَبْتُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَحْمِيَهُ.

فَكَّرْتُ أَنَّ الأَحْدَاثَ تَلَاحَقَتْ سَرِيعًا مَعَ غِيَابِ النَّاجِي، كَأَنَّ خِلَالَ مَا أَصَابَ البِلَادَ بِوَقُوعِهِ فِي الأَسْرِ، تَاهَتِ البِوَصْلَةُ وَتَضَارَبَتِ الأَتْجَاهَاتُ. عَادَتْ لِتَنْضَمَّ وَلَدَهَا.

- يَعودُ أَبُوكَ وَيَفْرَحُ بِكَ.

- يَعودُ يَا أُمِّي، يَعودُ وَنَفْرَحُ كُلُّنَا.

تَدَفَّقَتْ رِيَاخُ الصَّيْفِ فِي فَاسٍ وَكَثُرَ الخَيْرُ وَاسْتَبَشَرَ النَّاسُ وَعَادَتِ البَسَاتِينُ لِتُفْتَحَ فِي وَجْهِ مَنْ أَرَادَ الجَنِّيَ لِنَفْسِهِ وَأَهْلِيهِ بِلَا دَرَهَمٍ وَلَا شُكْرِ وَتَكَاثَرَتْ مَوَائِدُ الإِحْسَانِ لِطَلَبَةِ العِلْمِ فِي جَامِعِ القُرَوِيِّينَ وَأَبْوَابِ المَسَاجِدِ وَلِعَابِرِي السَّبِيلِ، وَبَاتَ بُوَسْعِ البَدَوِيِّينَ وَهُمْ عَلَى ظُهُورِ بَغَالِهِمْ أَنْ يَتَطَّلَعُوا إِلَى الصَّبَايَا فِي الشَّرَفَاتِ وَعَتَبَاتِ النُّبُوتِ نَهَارًا وَيَضَاجِعُوا لَيْلًا زُوجَاتِهِمْ بِقُوَّةِ الثَّيْرَانِ.

ثُمَّ جَرَّتِ الأَيَّامُ الأَيَّامَ وَسَلَكَتِ الرِّيَاخُ مَسَلَكَ اليُسْرِ حَتَّى لَمْ يَعدْ لِغَيْثَةَ مَكَانٌ تَدَخِّرُ فِيهِ المَوْوَنَةَ. تَنْظُرُ إِلَى شِوَالَاتِ الحِنطَةِ تَتَكَدَّسُ فَنَمْنِي نَفْسَهَا بِعُودَةِ النَّاجِي لِيشْهَدَ مَعَهَا الخَيْرَ الَّذِي عَمَّ عَلَى يَدِ وَلَدَيْهِمَا البِكْرُ.

تَنْهَضُ كُلَّ يَوْمٍ بِأَكْرًا- تُعِدُّ الفَطُورَ لِابْنِهَا كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ مَعَ أَبِيهِ. يَتَوَضَّأُ كَمَا الكِبَارُ وَيُصَلِّي. يُقْبَلُ يَدَهَا وَيَجْلِسُ إِلَى المَائِدَةِ، يُلُوحُ ضِوَاءُ النَّهَارِ فَيَأْتِي قَرَعُ العِيَّاطِ عَلَى البَابِ. يَذْهَبُ وَلَا يَعودُ إِلَّا وَقَدْ

غَرُبَتِ الشَّمْسُ وَاتَّقَدَتِ المِشَاعِلُ فِي دَرُوبِ فَاسٍ وَسَاحَاتِهَا.

صَارَ الوَلَدُ اليَافِعُ يوثقُ السِّلْعَ؛ مَا يَدْخُلُ المَحَلَّ وَمَا يَخْرُجُ، وَيَتَتَبَعُ حَرَكَةَ البَيْعِ وَالشَّرَاءِ بَعِينِينَ يَقْظَتِينَ. فَاجَأَ الصَّبِيَّ العِيَّاطُ فِي نَهَائِهِ يَوْمٍ طَوِيلٍ كَانَ قَدْ شَهِدَ بَيْعًا وَفَيْرًا:

- أرباح أمس أكبر من التي دخلت المحل اليوم.

رفع العياط رأسه ونظر إليه:

- كيف يا بكر وقد بعنا سلعا أكثر ودخلت الصندوق أموال وأرباح أعظم؟

- سلغ الأمس من الصوف الخشن، ببغها أشق وأثقل، أما التي خرجت اليوم فمضمون رواجها.

- لكن الربح يحصى بعدد الدراهم.

- كلا، بل بروج السلع الأكثر ركودا، أما سلغ المليفة فبيعها أكيد ولا يتأخر إلا قليلا.

- أنت تاجر بالسليقة يا بُني.

مأ العياط كأس الشاي لصبيته الجديد وأخرى له. أراد أن يختبر الصبي أكثر. سأله:

- وبم تنفع ملاحظة كهذه؟

- في كشف الخل.

- أوضح يا بكر.

- لا تباع المليفة والحرير في الجملة إلا إذا بيعت معها سلغ الصوف لزومًا، هكذا نضمن بالأولى رواج الثانية.

انحنى العياط لصبيته:

- والله ما رأيت صبيًا في مثل يقظتك، تالله لتكونن تاجرًا لا يُشَقُّ له غبار.

ثُمَّ تَحَوَّلَ بَكَرٌ مِنْ عِطْرِ يُطَيِّبُ جَوَّ الْمَحَلِّ وَيُدْخِلُ الْبَهْجَةَ عَلَى قَلْبِ الْعِيَّاطِ إِلَى رَجُلٍ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ. لَقَبَهُ
الْبَاعَةُ بِالْتَّاجِرِ الْكَبِيرِ. كَانَ كَبِيرًا بِالْفِعْلِ وَنَافِذَ الْبَصِيرَةِ.

عاد في مَتَمِّ جُمُعَةٍ مِنْ شُهُورِ الصَّيْفِ يُرَافِقُهُ صَبِيٌّ يَحْمِلُ مَوْنَةً كَثِيرَةً وَحَلْوَى لِأَخْوِيهِ. أَفْسَحَتْ
غِيْنَةَ الطَّرِيقِ لِلصَّبِيِّ حَتَّى يَضَعَ الْحَمُولَةَ وَيَنْصَرِفَ. قَالَتْ لِابْنِهَا:

- عندنا ما يكفي، لِمَ تتعبُ نفسك؟

- ولو يا أمي، أخواي ينتظرانني. فرحتهما بكلِّ الدنيا.

- اشترِ الحلوى يا بكر أما المَؤونة فلدينا ما يزيد عن حاجتنا.

- المَؤونة للعام فلا بأس، وإذا ضاقتِ الدَّارُ نَبني عُرْفًا جَدِيدَةً وَنُوسِعُ مَسْكَنَنَا.

يُبهرُها فَتَحني رَأْسَهَا صَاحِيَةً.

- لك ما تريد يا بكر.

- شاي يا أمي، شاي بالنعناع.

لوهلة اعتقدتْ غِيْنَةُ أَنَّ النَّاجِيَّ مِنْ يُكَلِّمُهَا، عَادَتْ لِتَتَطَلَّعَ إِلَيْهِ. فِي الْمَطْبِخِ ذَرَفَتْ دُمُوعًا. خَشِيَتْ أَنْ
يَنْسَخَ الْإِبْنُ أَبَاهُ؛ أَنْ يَكُونَ الْقَدْرُ فِي طَرِيقِ إِعْدَادِهَا لِتَتَقَبَّلَ غِيَابًا أَبَدِيًّا لِرُوجِهَا.

انْتَضَمَتْ حَيَاةَ فَاسَ هِيَ الْآخَرَى، زَادَ الْأَمْنُ مَعَ اسْتِقْوَاءِ السَّعْدِيِّينَ وَتَمَدَّدَتْ «الْحَزْكَاتُ» فِي الْجَنُوبِ
وَالشَّمَالِ وَتَقَلَّصَتْ أَرْضُ السَّيْبِيَّةِ لِصَالِحِ أَرْضِ الْمَخْزَنِ فَأَمْنَتْ السَّاكِنَةُ عَلَى أَحْجَارِهَا وَالْقَوَافِلُ عَلَى
بِضَائِعِهَا وَالنَّاسُ عَلَى رِزْقِهَا وَأَبْنَائِهَا، وَصَارَ الرَّجُلُ يَخْرُجُ إِلَى «زِوَاغَةٍ» وَيَأْخُذُ مَعَهُ زَوْجَتَهُ وَيَقِيمُ
إِلَى أَنْ يَقْنَعَ وَيَعُودَ إِلَى بَيْتِهِ بِلا خَوْفٍ عَلَى الْمَالِ وَلَا عَلَى الْوَالِدِ. خَلَّتْ فَاسٌ مِنَ الْأَنْرَاكِ الَّذِينَ خَافُوا
عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَتَيَمَّمُوا قِبْلَةَ وَهْرَانَ.

ثُمَّ حَدَثَ أَمْرٌ لَمْ تَتَوَقَّعْهُ غِيْنَةُ. كَانَتْ الْمَرْأَةُ الشَّابَةَ مِنْهَمَكَةً فِي غَسْلِ ثِيَابِ أَبْنَائِهَا الثَّلَاثِ وَكَانَ وِلْدَانُهَا
يَلْعَبَانِ أَمَامَ قِنِّ الدَّجَاجِ. تَغْسِلُ الْقِطْعَةَ الْوَاحِدَةَ، تَفْرِكُهَا، ثُمَّ تَغْطِسُهَا فِي أَنْيَةِ مِنَ الْمَاءِ النَّقِيِّ وَتَنْشُرُهَا
عَلَى الْحَبْلِ. كَانَ الْجَوُّ حَارًّا، مَا إِنْ تَعُودَ لِنَشْرِ قِطْعَةِ الثَّوْبِ الثَّانِيَةِ حَتَّى تَجِدَ الْأُولَى قَدْ جَعَّتْ.

- نار.

قالت تُحدِّثُ نفسَهَا.

- نار يا بنتي يا غِيثةَ نار.

رفعتُ رأسَهَا. لم تصدِّقْ، صرخت:

- أم الغيث.

- إيه نعم، رجعتِ يا بنتي، ما تهون العشرة إلا على بنات الحرام.

وقفتُ تحمِلُ في يدهَا آخر قطعة ثوبٍ. هبَّت الرِيحُ، تبدَّدَ إحساسُها بالحرِّ، وتحركتِ السُّحُبُ مثل قواربٍ يسحبُها التيارُ.

«اليوم عيد»، قالت في نفسها ثم ركضتُ إلى بيتِ جاريتها، التقيا في عتبة الباب، احتضنتها بحرارة وبكت.

- حرام عليك يا أمي، طولتِ الغيبة.

لامست «أمي» مكانا حساسا في قلب أم الغيث فبكت بدورها؛ كلُّ واحدة تبكي جرحها.

- هم الدنيا يا بنتي، الله يهدينا.

ما وسعت الدنيا العيَّاط فرحة بعودة أهل بيته إلى الدار، ذبحَ عجلا وأطعم فقهاء القرويين ووزَّع الصدقات على المساكين.. ثم قرَّر أن ينزل مرج زواغة أياما ليروِّح على نفسه.

- والله لا أنزل المرج إلا وغِيثةَ معي.

- أصيلة يا أم الغيث، أصيلة وبنت حلال.

جهَّز العربةَ وأعدَّ الخيلَ ونزل. تبادلتُ أم الغيث وغِيثةَ البسْطَ والحكايات عن الزَّمن الجميل وأعراس فاس وحفلات المروج، أيام كانت «الوزيعة» شرط عين، يأخذ كلُّ حيِّ نصيبه ليصنع منه القديد والخليع والمروزية. ينزل النَّاسُ ركبانا وراجلين، يحملون ما استطاعوا ويعودون إلى بيوت تملأها فرحة الصَّغار المنتشين بولائم الحصاد.

جلسَ العِيَّاطُ في المقَدِّمةِ إلى جانبهِ بَكْرٌ، تحدَّثَا رجلا إلى رجلٍ في شؤونِ البيعِ والشِّراءِ. تهادتِ العَرَبَةُ على الطَّرِيقِ تبتعدُ عن أسوارِ فاسٍ وتقلقتِ الأفكارُ والعواطفُ. فَكَّرَ العِيَّاطُ أَنَّ اللهَ الذي حرَّمَهُ من نعمةِ الخَلْفِ متَّعهُ بأسرةٍ كاملةٍ بأطفالِها. «هم أبنائي، يبُرُّون بي وأبِرُّ بهم»، قال في نفسه. التفتَ إلى الخلفِ، أَلْفَا غِيثَةً وقد توسَّدتْ حُضْنَ أُمِّ الغَيْثِ. أَمَامَهُ امتدَّتِ الطَّرِيقُ سالكةً وأمنةً إلى مروجِ زواغةٍ ووهديها البهيجةِ أيَّامِ الربيعِ والبديعةِ في شُهُورِ الصَّيفِ.

غَيْثَة

- 40 -

أَيَّامُ زَوَاغَةٍ خَفِيفَةٌ وَرَائِقَةٌ لَمْ تَشْهَدْ غَيْثَةً مِثْلَهَا مِنْذُ زَمَنِ، سَرَحَ الْأَوْلَادُ خَلْفَ النَّعَاجِ فِي الْمُرُوجِ وَرَكَبُوا ظُهُورَ الْخِرَافِ وَسَبَحُوا فِي الْمَنَابِعِ ذَاتِ الْأَحْوَاضِ الْعَرِيضَةِ. أَكَلُوا عَسَلًا مَا تَدَوَّقُوا مِثْلَهُ وَزَبَدَةً مُتَبَلَّةً وَخَبْزًا أَعَدَّتْهُ الصَّبَايَا فِي أَفْرَانِ طِينٍ وَقُوْدَهَا روثُ الْأَبْقَارِ. كَانَ الْمَاءُ عَذْبًا يَشْرَبُ مِنْهُ الْمَرْءُ فَلَا يِرْتَوِي وَكَانَ الْهَوَاءُ لَذِيذًا بِطَعْمِ الْحَلِيبِ.

- نَكْتَفِي يَا أُمَّ الْغَيْثِ وَنَعُودُ إِلَى فَاسٍ.

- اِتْرَكْنَا أَيَّامًا أُخْرَى يَا سَيِّ الْعِيَّاطِ، الْأَوْلَادُ فِي فَرْحٍ وَالْبَالُ مَطْمَئِنٌّ. زَوَاغَةٌ لَا يَشِيْعُ مِنْهَا أَحَدٌ. لَعَلَّهَا أَيَّامٌ لَنْ نُصِيبَهَا فِي الْقَرِيبِ.

- تَبَقُوا أَيَّامًا يَا أُمَّ الْغَيْثِ وَنَذْهَبُ أَنَا وَبَكْرٌ إِلَى تِجَارَتِنَا ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمْ.

- وَلَا يَذْهَبُ أَحَدٌ يَا سَيِّدِي، تَبَقْنَا مَعْنَا وَنَرْجِعُ سَوِيًّا.

- لَكَ مَا تَرِيدِينَ يَا أُمَّ الْغَيْثِ، نَبْقَى إِلَى أَنْ تَرْضَيِ وَيَقْنَعِ الْأَوْلَادُ مِنَ الْمَرْجِ.

يُفْطِرُونَ فِي الْمَرْجِ، تَحْتَ ظِلَالِ شَجَرِ الزَّيْتُونِ، حَوْلَهُمُ الْقُطْعَانُ وَالْخَيْلُ وَمِرَاعِي تَتَلَاخَقُ حَتَّى الْأَفُقِ. بُيُوتُ الْبَدَوِيِّينَ بَسِيطَةٌ أَمَّا بُيُوتُ أَهْلِ فَاسِ الَّذِينَ يَأْتُونَ أَوَّانَ الرَّبِيعِ وَالْحَصَادِ صِيْفًا فَكَبِيرَةٌ تَشْبَهُ قَلَاعًا، يَتْرَكُونَ فِيهَا الْعَبِيدَ وَالْخَدَمَ تَحْتَ إِمْرَةٍ رَجُلٍ حُرٍّ يُدَبِّرُ شُؤْنَ الزَّرَاعَةِ وَالْحَصَادِ. مِثْلَ مُلُوكٍ يَأْتِي أَهْلَ فَاسٍ أَسْيَادًا وَيَرْجِعُونَ مَحْمَلِينَ بِزَيُوتٍ وَفَيْرَةٍ وَحَنْطَةٍ تَكْفِي الْعَامَ كُلَّهُ وَقَدْ يَأْخُذُوا مَعَهُمْ صَبِيَّةً أَوْ اثْنَتَيْنِ لِلْخِدْمَةِ أَوْ الْفِرَاشِ.

قَرَّرَتْ أُمَّ الْغَيْثِ أَنْ يَبْقُوا مَدَّةً أَطْوَلَ فَأَمَرَ الْعِيَّاطَ بِنِيبَاءِ بَيْتِ ثَانٍ فِي الْمَرْجِ الْمُقَابِلِ. أَرْضُ الْعِيَّاطِ كَبِيرَةٌ وَعَائِدَاتُهَا أَكْبَرُ، اشْتَرَاهَا بِنَمْنٍ بَخْسٍ زَمَنِ الْقَحْطِ فَعَادَتْ عَلَيْهِ بِالرَّبِيعِ الْوَفِيرِ زَمَنِ الْخِصْبِ. الْبَيْتُ الثَّانِي يُطْلُ عَلَى الْوَادِي الْخَصِيبِ، تَتَدَفَّقُ مِنْهُ رَائِحَةُ الطَّيِّبِ طَيِّبَةً الْيَوْمِ. رُفِعَتْ أَسْوَارُ الْبَيْتِ فِي سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَطُلِّبَتْ بِالطِّينِ وَحُنْكَتْ بِخَلِيطِ الرَّوْثِ وَجُعِلَ فِيهِ جَنَاحَانِ، وَاجِدٌ لِأَصْحَابِ الْبَيْتِ وَثَانٌ لِلْقَائِمِينَ عَلَى خِدْمَتِهِ.

- هذا لإقامتكم إذا ما قرّرتُم التّزول إلى المرح دوننا يا غيثة.

- ربّي يحفظك في صحّتك ومالك وبيارك لك في ما تريد وترضى.

جهّزوا عربنين؛ أولى للراكبين، والثّانية حمل فيها الخدم قِرب الرّيت وقناطير القمح والذّرة. نزلت العربتان المرح ثم ارتفتا طريقاً مُتعرّجَةً إلى فاس. العوذة إلى المدينة عوذةً إلى الماضي. «أيّام جميلة ورائقة، لكنّها كالوهم ما يكاد المرء يأنس بها حتّى تتبدّى»، فكّر العياط. سيعودُ إلى المرح مَطْلَعِ الرّبيع القادم ويبقى وقتنا أطول. العُمُرُ قصيرٌ، أنتم عقدهُ الخامس وتقتربُ أمّ الغيث من الأربعين. ربح المال والأرض وكسب اسماً وشأناً في السّوق، لكنّه إذا ما عدّ أيّام الرّهو لا يكاد يجدُ منها إلا النّزر القليل. تلوّت الطّريقُ ومعها الخواطرُ. عربةُ المؤونة يحرسها رجالان ببندقيتين ويقودها سائسٌ متمرسٌ. هو يرعاه الحظُّ. كان رفيقهُ الدائم. قَطَعَ الصّعاب ولم يمسهُ سوءٌ وانتقلَ من الفقر إلى الغنى، فصار مَنْ كان صبيّاً في مناجرهم يتودّدون إليه. «شأنُ السّوق شأنُ الحياة، لا تكفُ عن الدّوران»، علّمته التّجاربُ.

غربت الشّمسُ، أُسْرَجَتِ الفوانيسُ وتحركتْ ظلالُ العربنين على الطّريق، تهادتُ معها الرّؤوسُ. تابَعوا القُطعانَ تنزّلَ من المراعي وصبيّةٌ يلعبونَ على مشارفِ بيوتِ القشِّ والطّين. أهلُ فاس مُتَعَطِّسُونَ في نظر أهل البدو، ومتكبرونٌ، لكنهم شُطّارٌ، يعرفونَ كيف يُهرجُ الرّبحُ من الخسارة، ويُجيدونَ أساليبَ العيشِ متى ازدهرتِ التّجارةُ وجادتِ السّماءُ.

- نُصَلِّيْ تَم نُكَمِّلِ الطّريقَ.

قال العياط. ركنوا العربتين، أعطوا علفاً وماء للخيل. أمّهُ العياطُ. الذّكُورُ في الصّفِّ الأوّلِ وخلفهُم المرأتان. الحارسُ الرّنجيُّ استمرّ واقفاً يحرسُ المُصلّين. كان وقتُ أمنٍ ورخاءٍ، نُدّرتِ السّرقاتُ وغابت أخبارُ قُطْعِ الطّرقِ، لكنّ الحَدَرَ فرضٌ لا يرتفعُ أيّاً كان الحالُ. رتلَ العياطُ بصوتٍ رخيّمٍ عندما سجدوا تدلّتُ الظّلالُ طويلةً مثلَ هُمُومٍ أعظمٍ من أصحابها. مع دفقاتِ الرّيح خفقتِ الظّلالُ ثم استرجعتُ سكينتها والأأيادي تتجّهُ للسّماء طلباً للرّحمةِ والمغفرةِ للأحياءِ والموتى.

في سلّم العربةِ الذي من ثلاثِ مرّاقٍ أمسكتُ أمّ الغيثِ يَدَ زوجِها فتوقّفت.

- خير يا أمّ الغيث؟

- كلّ الخير، كلّ الخير.

ركبت غيثة وتبعها أولادها، امتطى الحارسان والسائسُ عربةَ المؤونة وانتظروا أمرَ السيّد بالإقلاع. لن ينظروا صوبَ العياط ما دامت زوجته إلى جانبه. فاس من بعيد مثل لؤلؤة تشتعلُ في

حُضِنِ التَّلَالِ. بَرْدُ البريَّةِ جميلٌ، يُرَوِّحُ عن النَّفسِ، لكنَّه غادِرٌ، يصيبُ بالحُمَّى. دَثَرَتْ غِيثَةُ الأولادِ ونظرتُ إلى الأشجارِ. تذكَّرتِ النَّاجي. كادتُ تبكي. كان وَجْهُ بَكْرِ السَّلوى.

سألت أمَّ الغيثِ زوجَها:

- تعرف ما الذي أرجعني إليك؟

- العِشْرَةُ يا أمَّ الغيثِ.

صمَّنتُ. صمَّنتُها ثقيلٌ. أردفتُ:

- كلا يا سي العياطِ. ما كنتُ لأغفرَ لك.

- لم يكن منِّي، تعرفين. ما فكَّرتُ في الزَّواجِ بعدك.

أزالتِ الخمارَ عن وجهها، رآها صبيَّةً صغيرةً، حسناءً، تحت ضوءِ الفانوسِ. تطلَّعتُ إليه. في عينيها رأى فرحًا غامرًا لم يَرَهُ منذ سنينَ بعيدة.

- مبروك عليك يا سيدي، تصيرُ أبًا إن شاء الله، أنا حامل، مبروك عليك.

صعدتُ أمَّ الغيثِ العربيَّة، أمَّا هو فضلٌ متسمِّرًا في مكانه لا يعرف بما ابتليَ به. نظر نحو فاس. كان العالمُ كلُّه قد صارَ إلى آخر.

سألتِ الظَّلَالُ على طُولِ الطَّرِيقِ، تسبقُ العربيَّينِ، ومضتُ أفكارُهُ

إلى يومِ غَدٍ، رأى نفسهُ أبًا يَحْمِلُ بين يديه طفلةُ البِكْرِ والنَّاسِ، من كلِّ نواحي فاس يباركون ويهنَّؤن. «مبروك عليك يا عياط، صبرتِ وما خيبَ اللهُ رجاك، الولد يشبهك، سبحان الخالق..»، كَثُرَتِ الوُجُوهُ وتعدَّدتِ الكلماتُ. أغمضَ عينيهِ، إرتخى على العَمُودِ، واستسلمَ للأحلامِ؛ رأى نفسهُ عجوزًا يمشي بالكاد متوكِّئًا على عصاه، في جامع القرويينِ، ومن حوله حفدتهُ. يَكُونُ بَصْرُهُ قد غامَ، وظهْرُهُ قد تقوَّسَ. «أنا محمد حفيدُك يا جدِّي، وأنا يوسفُ، وأنا..». حفدةٌ كَثُرَ يحملون اسمه إلى الأفاقِ، يهيلُونَ عليه التُّرابِ يوم يَأْذُنُ اللهُ برجوعِ الرُّوحِ إلى بارئها، ويروونَ بدورهم حكايةَ التَّاجرِ الشَّاطِرِ إلى حفدَتِهِم.

غفا فأطلَّتْ أسوارُ فاسٍ تُكَلِّلُهَا المشاعِلُ وهاماتُ جُنْدِ السَّعديينِ.

فاس أخرى .

في البيت، في غرفتهما، قال لها:

- تصدّقين؟

ردّت:

- خير يا حاج؟

أغرق في الصمت ثم عاد من بعيدٍ. زالت عن عينيه غشاوةٌ وعن قلبه غمٌّ. من نافذة البيت ظهرت فاس مثل رضيعٍ وديعٍ يغطُّ في مهده. أزال العمامة عن رأسه، قال ينظرُ إلى بطن زوجته:

- ما عُدْتُ الذي كنتُ يا أمّ الغيث وقد سمعتُ منك ما سمعتُ.

حصار تارودانت

- 41 -

طالَ أمدُ الحِصَارِ على الانكشارية في قصبة تارودانت، توالى أهوالُ القتالِ أسابيعَ ثم امتدَّت إلى شهورٍ. أحرقتِ البساتينُ وتهدمَ العُمرانُ وهجرتِ النَّاسُ التي في الجوارِ مساكنها تقصدُ الأمانَ في بطون الأودية والجبال، أمَّا القصبَةُ فطلَّت صامدةً في وَجْهِ نيرانِ أبنائها. أغارَ السَّعديون بالليل والنَّهار، جرَّبوا اقتحامَ الأبوابِ، سدى، سقط قتلى هنا وهناك ولا تغيَّر شيءٌ. تخلَّفت التَّجَارَةُ الصَّحراويةُ القادمةُ من تواتٍ وتافيلالت عن «محمديَّة» السَّعديين وتوقَّفتِ صناعةُ الجلد والنَّسيجِ وأواني النَّحاسِ والبرونز التي يأتي إليها التجار من أوروبا والشرق. كسد كلُّ شيءٍ.

من يعرفُ تارودانت يُدركُ أنَّها بالحرب تعود إلى نفسها. بأبوابها المغلقة، وفي غزلتها عن العالم، تتجلى روحُ التَّمرد التي جُبِلت عليها «رودانة سوس» دهرًا بعد دهرٍ.

ثمَّ بدا أنَّ عمرَ الحربِ طويلٌ. كلَّ يومٍ يُطلُّ الأتراكُ على معسكراتِ الخصوم فيلْفون الجنْدَ مرابطينَ في أمكنتهم. يُمنونَ النَّفسَ بانصرافِ جيشِ السُّلطان الجديد إلى فاس، وبالطَّريقِ سالكةً إلى تلمسان، دون نية في الاستسلام.

- حروبُ السَّعديين لا تقبلُ الحلول الوسط.

- لتكن حربا حتَّى الجنديِّ الأخير.

«حربٌ حتَّى الجنديِّ الأخير»، قال الرَّجُلُ في نفسه. فكَّر أنَّ السُّلطان سليمان، داخل قصره العظيم، في القسطنطينية، يواصلُ حلمَ أسلافه بغزو العالم، بينما يدفعون هم ضريبة أحلام السيادة والتَّوسُّع. حرَّك رأسه، نظر إلى القائد:

- لتكن حربا حتَّى الجنديِّ الأخير.

ضحك قائدُ الإنكشارية. كان واثقا من نفسه:

- الجنديُّ الأخيرُ من السَّعديين وليس منَّا.

المولى عبد الله السّدي، من باب خيمته السلطانية، وأمام خاصّته، أقسم ألا يعود إلى فاس إلا وقد ذبح من خان العهد. كان غضبه على الانكشارية عظيماً. يعرف كذلك أنّ خسارة هذه المعركة تعني ضياع هيبة السّديين وخسارة الحرب كلّها ضدّ العثمانيين والمناوئين.

- إذا نجّت الانكشارية من سُيوفنا تجرّ التّرك على رقابنا أكثر واستباحوا البلاد كلّها من شرقها إلى غربها كما فعلوا في بلاد العرب التي في المشرق.

قال السلطان كأنما يُحدّث نفسه. عبّر وادي سوس ووادي الواعر تدفّقت الرّيح برائحة شجر الأركان. مدّ بصره في الآفاق. في زمن الحرب يُطفئ البدويون فوانيسهم فلا يبقى غير نور القمر يغسل الجبال. «هذه الأرض منشأ دولتنا ولا يمكن لها أن ترتدّ علينا»، فكر. إلى جانبه تحدّث قائد كتيبة السّوس ينصح:

- حروب البرتغاليين تنتظرنا من جهة البحر يا مولاي والعثمانيون يتهدّدوننا جهة البرّ، أخشى أن يباغتنا العدوّ ونحن مأخوذون بالقتال في الجنّوب.

عاد إلى مجلسه، ارتكى واستكان حتّى ظنّ أهل الديوان وقادة الجيش أنّه عدل عن الكلام. سقطه جارية حسناء من بلاد الباسك ماء. نظر إلى قائد كتيبة السّوس:

- يُرضيك أن نترك التّرك يلودون ونفرط في دم والدنا السلطان رحمة الله عليه؟

- كلا يا مولاي.

- ودّم أخي الحزان في تلمسان؟

- ولا نقبل فدية ولا نساكن المعتدي.

- والله لن يكتب التاريخ أنّي فرطت في دم والدنا يرحمه الله، إمّا أن ننال من رقاب التّرك أو نهلك دونها.

- الرّأي رأيكم يا مولاي.

- ثمّ نلقى جندهم الرّابضين في الجزائر بمشيئة الرّحمن، لا بدّ أن يأتوا إلينا في فاس حتّى ينازعونا ملك البلاد فنورهم بأسنا وأنيابنا.

حوّل السّعديون مجاري قنوات المياه عن القصبة حتّى ينوب التّرك العطش فتبسّت الأرض التي في الجوار. بدت «العالمة» مع رياح الصّيف مدينةً تشيخ. غابت البساتين التي على الأطراف وأحرقت نيران المدافع ما تبقى من الشّجر الذي على جوانب الأسوار. الأبار التي في الدّاخل استمرت تضخّ المياه ومعها الحياة. بيوت الطّين التي تطلّ على «رودانة» من التّلال غيرت أبوابها. تارودانت باتت في طرفة عين دُملا في خاصرة سوس، كائناً مَغضوباً عليه، إلى حين تلفظ الدّخلاء عنها.

في إحدى غرف مباني القصبة الواسعة فكّر أيهم الإسطنبولي أنّ الموت بات وشيكاً. ترك رأسه يرتخي على المَحْدَة فتذكّر زينة التي خلف حاملا وجاء إلى المغرب الأقصى. أراد أن يكسب المال ويضمّن لها حياة كريمة. كان ضوء القمر ساطعاً، يكسو الأرض بالبياض. هجره النّوم فنزك الفِراش وتسمّر أمام النّافذة. مشهد الجبال ثقيل، يُخلف شروخاً في الصّدر. تنهى إليه صوت أمّه تنهاه عن السّفر إلى إفريقيا:

- اللّقمة في أرضك عسل يا أيهم.

شهو. غلبه الشّوق، بكى. ضربه جنديّ على قفاه. شتمه ثمّ ركّله فسقط. رفسه بلا رحمة. لما اكتفى هدّده بالقتل.

- احذر أن يبلغ جُبْنُكَ للجُنْد فتثبط عزائم جنودنا.

حبا على ركبتيه يُكابّر، انقلب في فراشه. بكا مرّة أخرى. بكى في صمت. سالت دُموعه. في فمه اختلط طعم الدّموع بالدم. سمع الجُنْد يكرّرون. من بعيد تنهى إليه صوت أمّه: «اهرب يا أيهم، ترجلّ عن عربة الموت، فليس لي بعد الله غيرك».

نقش وجّه زينة على واجهة المطعم. اعترفت الجُنْد أنّ حبيبتة فاتنة. كان بارعاً. اقتلعت وجهها قذيفة من مدفعية السّعديين أصابت واجهة المطعم.

أصيب أحمد جرح في كتفه الأيسر. تظاهر بقتال المغاربة أسابيع. لما جرح تخلف عن الجبهات، ساعد في تجهيز المدافع وإطعام الجُنْد وأسعف جرحى ودفن قتلى. شهد خوف المُصابين من الهلاك في بلاد غريبة وحضر هذيان الموت وسمع وصايا لن يُكتب لها أن تصل أبداً إلى أصحابها.. وأشرف باروخ على المؤونة فبرغ في تدبيرها إلى أن قالت التّرك إنّ الحصار لن ينال منهم حتّى وإن قام عليهم السّعديون السنّة كاملة، وسهر على أمر العناد فأجاد. كسب ثقة الإنكشارية صغيرها وكبيرها. ما استشير في أمرٍ وخبّ الأمل.

قال أحمد يسأل:

- كيف تسهرُ على تدبير شؤونهم على أحسن وجهٍ وأنت الكارهُ لهم؟

ضحك باروخ، ربت على كتفِ صاحبه:

- لأنَّ دُخولَ جيشِ السلطان بالقُوَّةِ يعني هلاكَ كُلِّ من بداخلِ القصبَةِ؛ موتي وموتك.

- صح، أصبت يا باروخ.

- لكنَّها حربٌ خاسرةٌ في النهاية، سيدخلون القصبَةَ مهَمًا طَالَ القِتَالُ.

كانا واقفين على سطحِ البُرجِ العالِي في مستهل ليلةٍ دافئةٍ. مِنْ بعيدِ تلوحُ خيامِ جيشِ السَّعديينَ تحفُّها نيرانُ الكوائينِ والفوانيسِ المُعلَّقةِ.

- لولا الحصارُ لَكُنْتُ في ثَوَاتٍ. حفدَتِي هُنَاكَ، ولي أصحابٌ وأقاربٌ وتِجَارَةٌ. هؤلاء التُّركُ أفسدوا كُلَّ شيءٍ.

- ولعدتُ أنا إلى فاس. اشتقتُ لأبوابِ الخشبِ العظيمةِ وصدى طرُقِ العُمَّالِ في الدَّقَّاقينَ ورائحةِ الجُلُودِ في دارِ الدبغِ وجليَّةِ الحَمالينَ وَهُم يصرُخُونَ في الدُّروبِ.

- فاس عروس، عِشْتُ فيها أعوامًا ومعظمَ أهلي فاسيون لا يزالون في الملاحِ حتَّى اليومِ.

دعا باروخ صاحبه إلى الشاي فجلسا.

- أستطيع أن أخرجك من القصبَةِ سالما يا أحمد؟

التفت أحمد، خشي من غدر اليهودي. تابع باروخ:

- والله لن يصيبك أذى.

- كيف يا باروخ والسَّعديون يُففلونَ كُلَّ شَيْءٍ. لا منفذ يا باروخ، كُلَّ السَّبيلِ مغلقةِ.

أخذَ رشفةَ شايٍ فلمعت عيناهُ الزَّرَقاوانِ مع لهيبِ المِشعلِ.

- باروخ لا يُخطئُ يا أحمد، أنظر إلى السماء، ذاك النجم الذي يسطع؛ إنّه نجم عبد الله. إلى جانبه كان نجمٌ يشتعل وانطفأ بغثة، تعرف نجم من كان؟

- محمّد السعدي.

- وهذا نجم خلفه عبد الله. ينتصرُ عبدُ الله قريباً، بنا أو دوننا يا أحمد، إمّا نجو بأنفسنا أو نهلك مع التّرك.

تأملَ أحمدُ السماءَ، رأى النجومَ تتلألأ، سجّادٌ يمتدُّ مثل ثُوبٍ بلا نهايةٍ. لا معرفةَ له بعلمِ التّنجيمِ وما اهتمّ به يوماً. فكّر أن يسألَ عن صاحبه الذي خرّجَ إلى سجالمة فانغلقتِ الأبوابُ عليه. أحجمَ. وضعَ باروخُ الكأسَ على الطاولةِ وأردفَ:

- أقنعُ الانكشاريةَ بارشاء قائد كتبية السُّوس حتّى يُفنعِ السلطانَ بالسّماحِ للتّرك بالجواز إلى تلمسان فتخرُجُ مُحمّلا بالذهبِ والمالَ، تطلبُ لقاءَ السلطانِ، لِمّا تمثّلُ بين يديه تُخبرُهُ برسالتِي إليه.

نصيحة الذمي

- 42 -

محملاً بالذهب والمال دخل أحمد على فرسه إلى مربيض الجيش. أخذوه إلى محلة السلطان يرأفقه الحرس. كان عبد الله على شبه أبيه لا تكاد العين تميز بينهما. انحنى رسول باروخ للسلطان، دعا له بالنصر والتمكين. رد السلطان التحية بوجهه باش. كان رائق المزاج، مستبشراً بخير.

- لست تركياً؟

- نعم يا مولاي، أنا مغربي من أهل فاس نسباً ومولداً.

- وأهل فاس شرفاء وأوفياء.

- الشرف فيكم سيدي والوفاء لكم طاعة لله والرسول يا مولاي.

- وما دسك بين الترك؟

- خدمة المملكة الشريفة وقد جننت مع أبيكم، رحمة الله عليه، فانغلقت أبواب القسبة وأنا داخلها من بين من بقوا من الموالين.

- وهل في القسبة موالون؟

- قلة من غير الترك، وعلى رأسهم باروخ؛ أمين خزانة المحمدية.

- بما جننت إلينا؟

- بنصيحة الذمي.

التفت المولى عبد الله السعدي إلى خاصته الذين اكتفوا بالصمت وتبادل النظرات. صرّف الحرس الذين رافقوا أحمد إلى محلة السلطان.

- آتتا بما عندك؟

- ينصحكم الصرّاف، والرّأي رأيكم يا مولاي، أن يبتعدَ الجيشُ مسافة يومٍ عن القصبَةِ إلى أن تطمئنّ الانكشارية من انجلاء خصومها فيفضي للترك بالهروب إلى سجلماسة فتأخذوهم على غفلة في المسالك وتقتصون لنا وتقطعوا دابر الترك من أرض المغرب فلا يعودون إليها وقد جنوا جزاء ما زرعت أيديهم.

- والذهبُ والمالُ اللذان جئنا بهما؟

- خدعة باروخ يا مولاي بإرشاء قائد السّوس حتّى يُقنعَ مولانا بالانصراف عن هذه المعركة إلى أخرى.

تراجع جيشُ السلطان عن مرابضه حتّى غاب خلفَ الجبالِ مسافة يومين ويزيد. ما عاد يظهرُ له من أثرٍ. أرسلتِ الانكشارية العيونَ تتجسسُ فعادت إليهم بالخبر اليقين: «رحل جيش السّعديين». فرح الترك، احتفلوا بالنصر. شربوا حتّى الهذيان. في صبيحة اليوم الثالث نصحهم الذمي:

- اغتتموا فرصة انجلاء جيش السلطان واقصدوا تلمسان تأمنوا في المغرب الأوسط بين أهلكم وفي حصون بني عثمان. خذوا ما استطعتم من ذهب وفضة وبادرُوا قبل أن يعودوا.

أيهم الإسطنبولي

- 43 -

استفاق أيهم الإسطنبولي متأخرًا يكادُ الصَّدَاغُ يُفَجِّرُ رأسَهُ. تذكّرُ بالكاد أن الجُنْدَ أَرغَمُوهُ أمس على الشُّربِ أكثرَ ممَّا يَحْتَمِلُ. راعَهُ الصَّمْتُ التَّقِيلُ. التفتَ حولَهُ فلم يجدْ أحدًا. داهمَهُ الخوفُ. أسرعَ إلى النَّافِذَةِ ونادى على أسماءَ يعرفُها. ما أجابَ أحدٌ. ركضَ عبرَ البابِ، نزلَ السَّلَمَ، أخطأَ دَرَجًا فتدحرجَ إلى العنْبَةِ. في السَّاحَةِ كانَ الكثيرُ من العنَادِ مُدْمَرًا. من بعيدٍ رأى بابَ القصبَةِ مشرعا وعبرَهُ جِبَالُ الأطلِسِ تلوحُ.

- هربوا وخلفوني وحدي.

شَلَّتُهُ الصَّدَمَةُ فخارَ على ركبتيهِ. ابتعدَ وجهُ زينةَ الدَّمِيلِ، غابَ خَلْفَ الجِبَالِ، وارتفعَ صوتُ أمِّه حائياً يُلِحُّ عليه ألا يستسلم: «ترجّل عن عربة الموت يا أيهم فليس لي غيرك في الدُّنيا». حنَّ لرائحةِ الثَّومِ واللَّيْمونِ تفوحُ من البيتِ وزينةُ تُعدُّ «الكوكورتش» على السيخِ وتمنى أن يكونَ لَهُ، ولو لمرةٍ واحدةٍ، أن يتذوقَ صنائعها في حضرةِ وجهها البهيِّ. كلَّ مَالِ الدُّنيا لا يساوي نظرةَ عَيْنِ. هبَّتِ الرِّيحُ ومن الجبالِ تناهى عويلُ الدُّنَابِ.

- قم يا أيهم، انهض، هذا يومك، وفيه تحين ساعتك، مُتْ مرفوع الرأسِ وسيُفكُّ مُشَهَّرٌ في وجهِ خصومك.

- ليسوا خصومي، هؤلاء خصوم سليمان.

- لا تمت ذليلاً. ذوو العمائم لا يرحمون عدواً.

- لن أموت ذليلاً.

ارتفع الصَّوتُ داخلَهُ. مسحَ دموعَهُ. رِيحُ الجِبَالِ قويّةٌ، تُشْبِهُ رِيحَ تلالِ إسطنبول. الجبالُ هُنا موحشةٌ، خشنةٌ، على خلافِ تلالِ مدينتِهِ التي تعمُرُها مباني الرُّومانِ وفُصُورُ السُّلاطينِ والمزاراتِ والصُّوفيين. في وقتِ التَّلُوجِ تصيرُ ميادينَ للأطفالِ. لُعبٌ في صباه بالتَّلجِ. زينةٌ تصغرُهُ بثلاثِ سنواتٍ. كانَ يصنَعُ لها الكثيرَ من الحيواناتِ. ذاتِ شتاءِ بنى لها بيتاً صغيراً من

قطع الثلج. أعجبها البيت فطبعت قُبلة على خده. وعدّها أن يبني لها قصرًا مثل قصور السلطان عندما يكبران ويتزوجان. يدرك الآن أن كلّ وعود الصبّا كانت أوهاماً.

في الربيع تخضرُ تلال اسطنبول الستة بأكملها، تغزو الورود والحشائش المخضرة كلّ شيء وتتسلق أسوار البيوت وتتدلى وتفيض فيضاً فيضيغ الأطفال مثل خراف. أيهم وزينة كانا يعشقان الأكاليل، كلّ مساءً يتوجّها بإكليل وردي ملكة.

منذ جاء إلى إفريقيا لم يرَ طفلاً. تابع رجالاً يكبرون فقط، رجال بوجوه خشنة لا تعرف الابتسام. عندما يفكرون في اللعب يرفعون سيوفاً من خشب، ويتقاتلون. في نهاية المعارك يحصون جراحهم وينفضون متلهفين إلى معارك أشدّ شراسة.

قاوم مخاوفه وانتصب. في لحظة خطر له أن يُغلق باب القصبّة ويقابل جيش السعديين وحده. مشى إلى المستودع. أحرق الأتراك الكثير من الذخائر ورحلوا. في إحدى الغرف عثر على بندقية سليمة وذخيرة. وضع البندقية على كتفه ومضى. دفع دفتي الباب المفتوح، أغلق الأقفال. توقفت الرياح وتصبّب العرق.

- أنت الآن الرجل الوحيد في القصبّة عليك وحدك واجب الدفاع عنها.

- لكنّها ليست أرضي.

- انظر حولك، ليس لك من حام غير أسوارها، اعتلّ قبة القصبّة وصوب.

- ليكن موتاً بطولياً يا زينة.

في الطريق إلى المطعم مرّ على مقبرة الأتراك. كانت معظم القبور لضحايا المعارك ضدّ جيش السعديين. فكّر أنّ الرافدين تحت التراب محكومون بالعربية إلى الأبد، مثله تماماً. رحل الجنّد وتخلّوا عنهم في تربة الأعراب.

قصد المطعم الكبير، قطع الدهاليز الطويلة، في المطبخ لم يكن غير الأواني مبعثرة وبقايا طعام لم يفسد بعد. أعدّ وجبة إفطارٍ وجّهز له طاولة ثمّ جلس. أكل بهدوء، غاب صوت أمّه فاستكانت خواتمها. يُعجبه لبن الأطلس، شرب كثيراً. شبع. «لعلّها الوجبة الأخيرة»، قدر. تيمّم القبلة وصلى. ساجداً دعا الله أن يكون وجهه زينة آخر وجهه يراه قبل ملاقة وجهه ربّه. مع السلام هزّه صوت من خلف.

- لم تخأفتَ عن أصحابك؟

استدار، قابلهُ باروخ بابتسامة باردة. في صدره اختلج إحساسٌ بالراحة. لم يكن الرَّجُلَ الوحيدَ في القصبَةِ إذن.

- بل تركوني نكايَةً.

ضحك باروخ:

- في الحياة شيء من عدلٍ.

«شيء من عدل، وهذه الآلهة التي تدفعنا إلى الجحيم وتسكن القصور على حساب دمنا؟ العدلُ أن يبقى سليمان هنا، ويُقاتِلَ السَّعديين، لا أنا».

من قريبٍ ارتفع أزيز طلقاتٍ في الهواء وتناهتْ إليهما الهُتافاتُ وصيحاتُ العوامِ ينصرون المولى عبد الله. ارتاع أيهم فأسرع إلى البندقية. سأل باروخ:

- متى دخلوا؟

- دع عنك السَّلاح يا أيهم وانزع كسوة الانكشارية.

سار به في ردهات تربط مطاعمَ الجند ومباني الإقامة، وعبر دروب خلفية وصل إلى البيت. عندما أغلق باروخ دقّة باب بيته عاد وجه زينة ليلوح ومعه الأمل في الرجوع إلى اسطنبول. سيكفّ عن أحلام الثراء ويكتفي بزينة. زينة وحدها تكفيه.

كان بيت باروخ جميلاً وبسيطاً، أقلّ ممّا يمكن لامرئ أن يتخيّل عن صرّاف المحمدية كلّها، وأمين خزينة المخزن. أعطاه لباساً مغربيّاً ودنانيرَ سعديّة ضربتُ في فاس. على قطعة برديٍ خطّ الصرّاف رسالة تسمح له بالجواز إلى سجلماسة متى لقي جُنْد السُلطان ثمّ ختمها باسمه: «باروخ كوهين». في بوّابة تارودانت ودّعه. كان أيهم على متن حصان أبيض. فتحَ فمه ليشكره. قاطعه باروخ:

- لا تشكرني، أفدّرُ عَجَزَ رَجُلٍ غريبٍ، ووحيدٍ، بلا حول ولا قوّة.

رفع أيهم رأسه، نظر إلى الأفق، بدت اسطنبول رغم البراري التي تفصله عنها قريبة. كاد يلمح وجه زينة، أما صوت أمه فانبرى واضحا يلح عليه أن يترجل عن عربة الموت.

- إذا زرت اسطنبول فاسأل عني.

- ما عاد في العمر ما يسمح بالسفر بالبعد يا أيهم.

أزال أيهم عقدا من عنقه، انحنى، وضعه في رقبة باروخ.

- هذا غال عندي، هدية زينة بزواجنا إلي. تستحقه سيدي.

- ذوق امرأة مرهفة.

- زينة، إنها زينة سيدي.

- اترك بينك وبين أصحابك مسافة يوم وإياك أن تلحق بهم. ادخل سجالماسة ولا تخف، وتخلص من الرسالة متى وصلت إلى تلمسان حتى لا يتهمك أهلك هناك بالعمالة فتلقى بسيف الترك في المغرب الأوسط.

بيدرو

- 44 -

امتلاً الوادي بالدخان ورائحة البارود والدم. نارٌ في كلِّ مكانٍ وهوسٌ للمزيد من القتل. تداخلتْ أصواتُ طلقاتِ البنادق من مسافاتٍ مُتقاربةٍ. كان الحالُّ مساءً والشمسُ إلى غروبٍ والمنتشايكونَ إلى سعارٍ. أمكنَ بيدرو وهو يسقطُ من على ظهر الحصانِ إلى الأرض، رغم أنينِ الجرحى وخوارِ الرِّجالِ الذين دُبحوا في المعركة، أن يشمَّ رائحةَ الملوحةِ. البحرُ قريبٌ، هائجٌ، وأسوارُ الحصنِ على بُعدٍ مرمى حجرٍ. زحفَ بيدرو بما أُوتِيَ من قوَّةٍ ليبلغَ كتيبةَ البرتغاليين. لا يُريدُ أن يموتَ، يتطلَّعُ إلى حياةٍ طويلةٍ تحفلُ بالمزيد من الدِّم والحكاياتِ الشَّيقةِ. اختلطتْ عليه الاتجاهاتُ كما اختلطتْ الأمورُ في رأسه؛ متى نزلَ إلى المعاركِ وهو الضَّابطُ الجالسُ على الكرسيِّ المُفضي إلى كتيبة الإعدام وكيف سقط عن الحصان هو المدرَّبُ على ركوبِ الخيلِ سنواتٍ؟ لا يعرف في أيِّ وجهةٍ يُصوبُ فوهةَ البندقيةِ ولا إلى أين يمضي. غلَّفَ الدخانُ كلَّ شيءٍ وغابتْ عنه وجوهُ الأعداءِ وتخلَّى عنه حدسُ المحاربِ اليقظِ. ربضَ في مكانه ثمَّ أساخَ السَّمعَ لعلَّ الأصواتَ تسعفه فيسلُّكُ الطريقَ الصائبَ إلى النِّجاةِ.

لن يستسلم لذويِّ البرانسِ وجلابيبِ الصَّوفِ الخشين. وُجِدَ ليقْتلَ «المورو» أينما وُجِدُوا، لا ليموتَ بسئوفهمُ.

تبدَّدَ الدخانُ من حوله مع أصواتِ البنادق التي خمدتْ فجأةً. رحلَ البرتغاليونَ؛ لاذوا إلى داخلِ الأسوارِ يحتمونَ خلفَ الأبوابِ المنيعَةِ. ولَّتْ الكتيبةُ التي نزلتْ لتدافعَ عن هيبةِ إمبراطوريةِ البرتغالِ العظمى. صُعق. ما إن تلاشى دخانُ البارودِ حتَّى تشكَّلتْ هاماتُ المغاربةِ. بدوا مثلِ الصَّقورِ تعتلِّي صحُورًا. صوبَ جنديٌّ مغربيُّ فوهةَ البندقيةِ نحو صدره:

- أنا أسير.

صرخ بيدرو. ردَّ الجنديُّ الحاقِدُ على المستعمرِ ببيرو:

- لا نريدُ أسرى، إلى الجحيمِ.

مع دويِّ البارودِ استنفاقَ على الكرسيِّ. ظهرَ السجلُ المفتوح فوق المكتبِ على نفسِ الصَّفحةِ ولاحتْ حُرْمُ الضَّوءِ التي تهدلتْ مع المساءِ وسقطتْ ذابِلَةً على الأرضِ. عبَّ كأسَ ماءٍ ومسَّحَ

العرق الذي تصبب. «اللعة، تسلل المغاربة إلى أحلامي وصاروا إلى كوابيس». تأسف. مرّت أيامٌ دون أن يُضيف أسماء إلى قوائم ضيوفِ كتيبة الإعدام. تعلّم عبر السنوات أن السجل يوثق حياة الحصن، كلما تعطلت كتيبة الإعدام إلا وتهدد حياة المقيمين الخطر.

غاب الحارس الذي يتعهد القطط والشتلات، وغابت القطط التي أدمنت شرايح السلمون وتراكم الغبار فوق الأرض وغلف الأصص والسجلات. شيء ما تغيّر ولن يعود إلى الأبد.

«وماذا إذا رحلت؟ من يطعم القطط شرايح السمك ويسقي الشتلات في الصباح والعشي؟ من يوثق أسماء قتلى المخربين وهم يقبلون على ساحة الموت عاجزين محبطين؟».

حسناء المحيط، فاتنة البرتغال، بشعرها الإيبيري الطويل، وجسدها الأبيض كالثلج، المقاتلة الشرسة أوان المعارك، الوديعه والمرهفة زمن السلم، حيرى لا تلوّى على شيء. ذاهمها الشك فشرعت في صرف أبنائها. تُبحر البواجر عن الساحل وتبقى هي راسية على أطراف المحيط، تنظر إلى وجهها في البحر: «عيناى غربيتان وقدماي بيضاوان؛ قطعان قدتا من عاج. ماذا أفعل في إفريقيا؟ هل أرحل مع الراحلين أم أولي بظهري لحماتي الأولين؟».

غادر بيدرو مقر عمله منهدماً وبائساً. انحدر مع الشارع بمزاج متقلب. صمّنت فوهات كتيبة الإعدام ونشطت الأخرى التي خلفت الجبال. دارت الأيام وصار الصياد إلى طريده. حاصر السعديون فرقا بأكملها وأبادوها في الخلاء ثم ربحوا على مشارف الأسوار يتطلعون إلى الساحل.

تُعادِرُ سُنْفُنٌ وتتأهبُ أخرى للرحيل. أقفلت المتاجر وحلت الساعات. حاول الحاكم أن يهدئ الناس، سارت فرق الجند تدق الطبول في الشوارع تسبقها عربات تخفق عليها أعلام البرتغال، وأرغم الحرس تجاراً على عرض السلع بأسعار منخفضة، جلبت فرق مسرحية للعرض في الساحات وجوقات موسيقى من لشبونة ومدريد ولندن، واستقدمت العجريات للرقص. كمياه النهر تصب في البحر تدفق الناس إلى الميناء.

في طريق العودة إلى البيت مر بيدرو على جنبات الأسوار. رأى الجند بقبعاتهم المزركشة وبنادقهم التي خبا وهجها مع انكسار الشمس يتأهبون للقتال. ألقوا المدافع بالقذائف وصوبوا الفوهات لتنفث النار متى تلقوا الأوامر. على الجبهة الأخرى تابع جنود السعديين ينظّمون صفوفهم ومدافعهم مُحصنة بين صخور الجبل. استبدلوا الكرّ والفرّ بجبهات راسية، والمنطوعين بفصائل نظامية، رفرفت أعلامهم وطالت ألويتهم وبلغ فرغ الطبول أذان الناس. باتوا قادرين على الصمود ومقاتلة جيش الإمبراطورية العظمى وجهًا لوجه.

- هُراء، بادروا إلى إطلاق النار؟

صرخ بيدرو في وَجْهِ قائد المدفعية. كان شاباً ممشوقَ القامة، يابسَ العودِ، حادَّ النَّظْرَةِ. قالَ كأنّما يُحدِّثُ نفسه:

- بيدرو المجنون.

أشاح عنه ينظر إلى الجبال. أوْشَكَتِ الشَّمْسُ على العُرُوبِ. ليلاً سيعاودُ السَّعْدِيُّونَ القَصْفَ، يُرَوِّعُونَ أهالي الحِصْنِ حتَّى يُرْغِمُوا البقيَّةَ على ركوبِ البحرِ.

قال القائدُ يشرِّحُ له:

- نربِّحُ الوقتَ يا بيدرو، سُنُّنُ المَمْلَكَةِ تُبْجِرُ بَعِيدًا في المُحيطاتِ. البواخِرُ المُتاحةُ لا تَسْعُ الجَمِيعَ. مهمَّتُنَا الآنَ أنْ نُدَافِعَ على الأبوابِ والأسوارِ إلى أنْ تَغادِرَ السَّفِينَةُ الأَخيرةُ بالبُرْتغاليِّ الأخيرِ.

- جُبْناءُ.

اندَفَعَ نحو السَّورِ، تَمْتَرَسَ بين حاجزَيْنِ، صَوَّبَ فوهةَ البندقيَّةِ وأطْلَقَ الرِّصاصَ. لَمْ يَمْنَعُهُ أَحَدٌ. نَفَّدَتْ خَيْرَتُهُ فملاً بيتَ النَّارِ. أَطْلَقَ مُجَدِّدًا عِدَّةَ رصاصاتٍ. لَمَّا لَمْ يُجِبْ أَحَدٌ مِنَ الجَبْهَةِ الأخرى سَكَنَ. ربتَ أحدَ الجنودِ على كتفِهِ يواسيهِ:

- بيدرو المسكين، احزم حقائبك، لعلَّ الوقتَ لا يسعُفُكَ فتطالُ سيُوفُ السَّعْدِيِّينَ رقبَتَكَ قبلَ أنْ تطالَ قَدَمَكَ سطحَ السَّفِينَةِ.

دفعَ يَدَ الجنديِّ عنه. عندما استدار ينزلُ عبر الشَّارعِ كانت دكْنَةُ المغيَّبِ قد صارتْ إلى ظلامٍ في صدره.

بلغَ إلى البيتِ فاشتعلتِ السَّماءُ بالقذائفِ وأزهرتْ نيرانٌ متفرِّقةٌ في أحياءِ المدينة. «السَّعْدِيُّونَ يحتفلُونَ بانتصارٍ وشيكٍ»، فَكَّرَ يأكلُهُ الغيظُ. استشاطَ غضبًا. ضربَ النَّاجيَ بكعبِ البندقيَّةِ فأوقعَهُ أرضًا.

- قوادون وأبالسة.

جرَّهُ إلى جذعِ نخلةٍ وربطَهُ بإحكامٍ. شتمَهُ وبصقَ في وجهِهِ. نزلتْ صوفي السُّلْمِ. رأى في يَدِهَا خُفًّا لم يكتَمِلْ بعد. استغرَبَ.

- تنسجينَ والحصنُ يوشِكُ على الضياع؟ أيّ امرأة تكونين؟

- اهدأ يا بيدرو، لا زال جُنْدنا على الأسوار.

- كنتُ هناك يا صوفي، مدينتنا تضيغُ. بدَلَ الزهورِ التي زرنا ستنبُتُ الأشواكُ، تتوقّفُ العجرياتُ
عن الرقصِ وفرقِ المسرحِ عن الأداء، وتختفي القططُ، تظهر مكانها نُمورٌ صغيرة.

- وتصمتُ كتيبةُ الإعدامِ يا بيدرو.

- نعم، وتصمتُ الكتيبةُ.

صوّبَ البندقيةَ نحو صدر النَّاجي. اعترضتُ صوفي:

- لا دخل للنَّاجي بهجوم السّعديين على الحصن.

- دعينا من حُمقِ النّساءِ يا صوفي، ولنحتفلُ بالأسير الأخير. لعلّها ليلتنا الأخيرة، لا تُفسدِها.
أنظري كيف أشعلَ السّعديون السّماءَ، تعالي يا صوفي، اقتربي.

التفتَ إلى النَّاجي :

- أمّا أنتَ، فتحكي حكايتك الأخيرة، وبدل الأيامِ تُحصي الدقائقَ.

النّاجي

- 45 -

صَبِيّ المزيّد من النّبِيذ يا صوفي فهذا القَمَرُ الذي يُظَلُّ لَيْلَتَنَا يدعونا للسَمَرِ الأخير. أريدك عاريّةً،
كاملّة الأنوثّة، اكتمال البَدْرِ في يوم النُّضجِ ولِنَهْدِيكَ الحانِيئِينَ أن يَزُوِيَانِي حليب الرّضاعة. ارفعي
رأسك الجميل، وأنظري إلى السَّماء، ها هي الغيومُ مثل حساناتِ تحفِ القَمَرِ البهيّ وخشخشةُ
أغصانِ شَجَرِ اللّوزِ واللّيمونِ تحفُ الكَلِماتِ وصَوْتُ النّاجي كذكرى عن مَوْتِ تدغِدُعِ عواطفنا؛
هيا، ارحي العنانِ للجرءِ التي تسكُننا، حرّري آخِرَ الأفكارِ لنَموتَ وقد انطفأتِ فينا آخِرُ الرّغباتِ.

انظري إلى وَجْهِ أُمِّي بين كأسِي النّبِيذ، عيناها مطفأتانِ وفي جوفها ظلامُ قلبها الأسود، اقتربي فهذه
دهشتها العالقةُ من جلالِ السيفِ تدعونا لنُجربَ العشقَ الأخير.

أوه، ما أروعك، نهذاكِ الجِبَالُ وبطنكِ المُحيطُ.

أفرغي المزيّد من النّبِيذِ واطركي للريحِ أن تغازلَ شعركِ الطويلَ وتدفعَ أعمارنا إلى خواتيمها
والكَلِماتِ إلى نهاياتها.

... ..

«بيدرو اللعين، أيكما أكثرُ شبهاً بالشيطان؟»

لكما الخُبثُ نفسُهُ والوَجْهُ نفسُهُ ولعلكما تقتسمانِ نفسَ المصيرِ.

نعم، أحببتكما بصدقٍ، وكرهتكما بعُمقٍ. ما كنتُ لأعرفُ أين يبتدأ الواحدُ منكما وأين وينتهي
الأخرُ. تتداخلان كما تتداخلُ كلماتُ رجلٍ واحدٍ في أكثرِ من حكاية.

لا بأس، لتكنْ هذه الحكايةُ الأخيرةُ يا بيدرو فأيامنا الكلماتُ التي إذا انتهت انقضى معها العُمُرُ.

في ليلةٍ مُقَمَّرَةٍ كهذه من ليالي القَحَطِ والطّاعونِ رِبْطُوه في ساحةِ فاس، أوثقوه إلى صارٍ. تحرّكتِ
الرياحُ الآتيةُ من الشّعبِ باردةً فأوهمتِ البؤساءِ بالفرجِ.

كانت رياحًا صامتةً، بكَماء، تدفع المهملات وتعبُر الفجواتِ والدروب بلا صوتٍ، كأنّ العالمَ امتلأ بالخواء؛ خواءٌ في كلِّ شيءٍ وصمتٌ مثلَ الحجرِ يُثقلُ على صدورِ الناسِ.

في السماءِ لاحتْ غُيومٌ تنهذى على حواشي القمرِ. حنّتِ القلوبُ الحافِدةُ لمواسمِ المطرِ واستبشرتْ بالمياهِ تندفقُ في وادي فاس.

أرى الآنَ، من هُنا، وأنا مشدودٌ إلى شجرة النخيلِ، كلِّ شيءٍ من فوقِ، كأنني طائرٌ يُحلّقُ في سماءِ فاس التي كانتُ، أرى أسطحَ المدينةِ يأكلُها الظلامُ والليلُ يحوِّطُ الأسوارَ كظلماتِ المحيطِ. مدينةٌ تَعرقُ، وحدها بضعةُ مشاعِلٍ تزهَرُ كأوهامِ.

كان إبراهيمُ القُربانِ.

شاع الخبرُ عن قاتلِ الصّبيانِ وبائعِ لحومِ البشْرِ. مثلَ فِيرانٍ تُغادرُ جُحورًا خرجَ عدّةُ رجالٍ من محاشِرِهِم. لم يمُتْ بعدُ آخرُ الأحياءِ في فاس. اجتمعوا في السّاحةِ الكبيرةِ. كانوا بضعةَ رجالٍ وامراتانِ. تهامسوا قبلَ أن يصيرَ الهمسُ إلى لَعَطٍ وتعلو الأصواتُ مناديةً بالثأرِ.

أغلقَ على نفسه. ما خرجَ ليُقايضَ لحمَ ضحاياهُ بالمزيدِ من الصّبيانِ. دخلتُ البيتَ فوجدتُه قاعدًا في البهو يبكي. رقّ قلبي. فكّرتُ أنّ الرّجلَ الطيّبَ قد عاد. اقتربتُ:

- أبي.

رفع رأسه، نظر إليّ. رأيتُ في عينيه حكاياتٍ تُعدّبُ صاحبها. امتدّت يدهُ للسّكينِ. ارتجفتُ، مثلَ حيةٍ ترجعُ إلى جُحرها عادتُ لتستكينِ.

- لم قتلتِ إخوتي؟

نهضَ، سارَ إلى غرفتهِ حافيًا على أرضٍ تشبعتُ بدماءِ ضحاياه. صفقَ دقّةَ البابِ، سمعتهُ يتحدثُ إلى أمي:

- أرايتِ يا نعيمة؟ أحرقتي موتك فأحرقتُ كلَّ شيءٍ.

أجهشَ كما كان يفعلُ بين يديها، ثم سارَ يذكرُ أسماءَ أبنائه. ذكرَهُم واحدًا فواحدًا. لم ينسَ قطّتهُ. أطلتُ من النّافذةِ إلى الغرفةِ وتابعتُهُ يُخرجُ فراءها اليباسَ من صندوقٍ قديمِ.

ثُمَّ اقْتَحَمُوا الْبَيْتَ. وَقَفَتِ الْمَرَأَتَانِ وَسَطَ الْبُهِوِّ. مِثْلَ قَائِدِ جَيْشٍ وَجَّهَتْ إِحْدَاهُمَا الْأوامِرَ لِلرِّجَالِ
النَّسْعَةَ بِنَفْتِيشِ الْبَيْتِ. عَادُوا إِلَيْهَا بِرُؤُوسِ الْأَوْلَادِ الَّتِي تَعَفَّنَتْ وَمَدِيَّةِ وَسَكَكَيْنِ. أَحْصُوا مِائَةً
وِثَلَاثِينَ رَأْسًا. لَعْنُوهُ، ثُمَّ جَرَّوهُ عَلَى الْأَرْضِ. فِي سَاحَةِ فَاسٍ أَوْثَقُوهُ إِلَى سَارِيَّةٍ. بَصَفُوا فِي وَجْهِهِ
فَعَوَى كَذَنْبٍ مَرِيضٍ.

تَدَاوَلُوا طَوِيلًا فِي شَأْنِهِ. كَانُوا مُرْتَبِكِينَ وَخَائِفِينَ مِنْ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، مِنْ الْعَدَوَى، وَمِنْ لَعْنَةِ
إِبْرَاهِيمَ. صَرَخَتِ الْمَرَأَةُ فِي وَجْهِهِمْ:

- اذْبَحُوهُ، أَلَيْسَ بَيْنَكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ؟

رَدَّ شَيْخٌ مَسْنَةً كَلِمَةَ الْمَرَأَةِ فِي رُجُولَتِهِ:

- نَضْرِبُ رَقَبَتَهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يُطَهِّرُنَا بِدَمِهِ وَيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيَرْحَمَنَا.

فَهَمَّ إِبْرَاهِيمُ فَشَخَّصَتْ إِلَيْهِ الْعُيُونُ:

- تَنْظَهَرُونَ بَدْمِي؟ كُلُّ بَنِي آدَمَ دَنَسٌ، وَالدَّنَسُ لَا تُطَهَّرُهُ غَيْرُ النَّارِ.

قَالَ رَجُلٌ ثَانٍ لِلشَّيْخِ:

- وَنِعْمَ الرَّأْيُ رَأْيُكَ. هَيَّا يَا شَيْخَنَا، اُخْمِدْ صَوْتَهُ وَاطْفِئْ غَلْنَا.

الصفحة رقم 169 من: 211 صفحة

قَاسَمَ مَخَافَةً وَانْتَصَبَ. فِي لَحْظَةٍ خَطَرَ لَهُ أَنْ يُغْلِقَ بَابَ الْقَصَبَةِ وَيَقَاتِلَ جَيْشَ السَّعْدِيِّينَ وَحَدَّهُ. مَشَى
إِلَى الْمَسْتَوْدَعِ. أَحْرَقَ الْأَثْرَاكُ الْكَثِيرَ مِنَ الدَّخَائِرِ وَرَحَلُوا. فِي إِحْدَى الْغُرَفِ عَثَرَ عَلَى بِنْدَقِيَّةِ سَلِيمَةَ
وَذَخِيرَةٍ. وَضَعَ الْبِنْدَقِيَّةَ عَلَى كَتْفِهِ وَمَضَى. دَفَعَ دَفْتِيَّ الْبَابِ الْمَفْتُوحِ، أَغْلَقَ الْأَقْفَالَ. تَوَقَّفَتِ الرَّيْحُ
وَتَصَبَّبَ الْعَرَقُ.

- أَنْتَ الْآنَ الرَّجُلُ الْوَحِيدُ فِي الْقَصَبَةِ وَعَلَيْكَ وَحَدَاكَ وَاجِبُ الدَّفَاعِ عَنْهَا.

- لَكُنْهَا لَيْسَتْ أَرْضِي.

- انظُرْ حَوْلَكَ، لَيْسَ لَكَ مِنْ حَامٍ غَيْرِ أُسْوَارِهَا، اعْتَلِ قَبَّةَ الْقَصَبَةِ وَصَوِّبْ.

- ليكن موتا بطولياً يا زينة.

في الطَّرِيقِ إِلَى المَطْعَمِ مَرَّ عَلَى مَقْبَرَةِ الأَتْرَاكِ. كَانَتْ مَعْظَمُ القُبُورِ لَضَحَايَا المَعَارِكِ ضِدَّ جَيْشِ السَّعْدِيِّينَ. فَكَّرَ أَنَّ الرَّاqِدِينَ تَحْتَ التَّرَابِ مَحْكُومُونَ بِالعُرْبِيَّةِ إِلَى الأَبَدِ، مِثْلَهُ تَمَامًا. رَحَلَ الجُنْدُ وَتَخَلَّوْا عَنْهُمْ فِي تَرَبَةِ الأَغْرَابِ.

قَصِدَ المَطْعَمِ الكَبِيرِ، قَطَعَ الدَّهَالِيزَ الطَّوِيلَةَ، فِي المَطْبَخِ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ الأَوَانِي مَبْعَثَرَةً وَبَقَايَا طَعَامٍ لَمْ يَفْسُدْ بَعْدَ. أَعَدَّ وَجِبَةً إِفْطَارٍ وَجَهَّزَ لَهُ طَاوِلَةً ثُمَّ جَلَسَ. أَكَلَ بِهَدُوءٍ، غَابَ صَوْتُ أُمِّهِ فَاسْتَكَانَتْ خَوَاطِرُهُ. يُعْجِبُهُ لَبَنُ الأَطْلَسِ، شَرِبَ كَثِيرًا. شَبِعَ. «لَعَلَّهَا الوَجِبَةُ الأَخِيرَةُ»، قَدَّرَ. تَيَمَّمَ القِبْلَةَ وَصَلَّى. سَاجِدًا دَعَا اللهُ أَنْ يَكُونَ وَجْهُ زِينَةَ آخِرَ وَجْهِ يَرَاهُ قَبْلَ مَلَاقَاةِ وَجْهِ رَبِّهِ. مَعَ السَّلَامِ هَزَّهُ صَوْتٌ مِنْ خَلْفِ.

- لَمْ تَخَلَّفْتَ عَنْ أَصْحَابِكَ؟

اسْتَدَارَ، قَابَلَهُ بَارُوحٌ بِابْتِسَامَةٍ بَارِدَةٍ. فِي صَدْرِهِ اخْتَلَجَ إِحْسَاسٌ بِالرَّاحَةِ. لَمْ يَكُنِ الرَّجُلَ الوَحِيدَ فِي القَصْبَةِ إِذْنِ.

- بَلْ تَرَكُونِي نَكَايَةً.

ضَحَكَ بَارُوحٌ:

- فِي الحَيَاةِ شَيْءٌ مِنْ عَدْلِ.

«شَيْءٌ مِنْ عَدْلِ، وَهَذِهِ الأَلْهَةُ الَّتِي تَدْفَعُنَا إِلَى الجَحِيمِ وَتَسْكُنُ القُصُورَ عَلَى حِسَابِ دِمْنَانَا؟ العَدْلُ أَنْ يَبْقَى سَلِيمَانِ هُنَا، وَيُقَاتِلَ السَّعْدِيِّينَ، لَا أَنَا.»

مِنْ قَرِيبٍ ارْتَفَعَ أَزِيذُ طَلْقَاتٍ فِي الهَوَاءِ وَتَنَاهَتْ إِلَيْهِمَا الهُتَافَاتُ وَصِيحَاتُ العَوَامِّ يَنْصُرُونَ المَوْلَى عَبْدَ اللهِ. ارْتَاعَ أَيُّهُمْ فَاسْرَعَ إِلَى البَنْدِقِيَّةِ. سَأَلَ بَارُوحٌ:

- مَتَى دَخَلُوا؟

- دَعِ عَنكَ السَّلَاحَ يَا أَيُّهُمْ وَانزِعْ كَسُوةَ الانكْشَارِيَّةِ.

سَارَ بِهِ فِي رَدَاهَاتٍ تَرْبِطُ مَطَاعِمَ الجَنْدِ وَمَبَانِي الإِقَامَةِ، وَعَبَّرَ دُرُوبَ خَلْفِيَّةٍ وَصَلَ إِلَى البَيْتِ. عِنْدَمَا أَغْلَقَ بَارُوحٌ دَقَّةَ بَابِ بَيْتِهِ عَادَ وَجْهُ زِينَةَ لَيْلُوحٍ وَمَعَهُ الأَمَلُ فِي الرَّجُوعِ إِلَى اسْطَنْبُولِ. سَيَكْفَى عَنْ

أحلام الثراء ويكتفي بزينة. زينة
تركت المدينة وهربت.

عبرت درب بيتنا. عالم ميت يا بيدرو، نال منه القحط والطاعون. دفعت دقة الباب، لمحت ياسر
في البهو يُداعب قطّة أبي. مسدّ ظهرها برفق، انحنى حتى حاذى الأرض يتأمل وجهها الصغير
وعينيها الواسعتين. ياسر، كابي، أحب القحط واعتنى بها. لم يأكل يوماً إلا واقتسم طعامه مع
القطط والكلاب والطيور.

- هل كان ليصير عاشق دم، مثل إبراهيم، ومثلك أنت يا بيدرو؟

تحدث ياسر إلى القطّة:

- ألم يكن الأفضل لك أن تموتي في البئر؟ أخطأ أبي عندما نزل إلى القعر وعاد بك. الموت غرقاً
أرحم من حدّ سكين يذبك بها عزيز. الحظ لا يكون دائماً ببقائنا أحياء مدة أطول. الموت أبكر في
زمن المحلّ رحمة قطتي.

على مسافة خُطوات كان عبد الصمد يجلس مُفرفصاً. المصباح مُعلّق تحت إفريز الباب الداخلي
حيث تسرجه أمي عادة ليكون في متناول اليد. أبي كان يضعه بعيداً ليدفع عنا الهوام فتسلم جلودنا
من أدى البعوض والناموس. سال النور على حجارة البهو غامفاً، أقرب إلى لون الدم.

في ليالي صيف فاس القائظة كنا نسهر حتى وقت متأخر، نتناول عشاءنا في نفس المكان
ونواصل مرحنا على الحصير. أبي يستفرد بأمي. يضحكان من وقت لوقت. نور الفانوس يتمدد،
يلامس الجدران، لما يغلبنا النعاس نخلد للراحة. ينام بعضنا تحت القمر ويدخل البعض الغرف.
الغرف تستمر ساخنة. أبي يأخذ أمي ويدخل. يرجع أحيانا ليبيت في البهو ويبقى معها الليل كله
أحياناً أخرى.

ضحكات أمي لم تكن تملأ البهو وحسب، بل تتسرّب إلى أحلامنا، تستفز الجارات العيورات،
وتعمّر العالم كله.

قرص عبد الصمد يعجن التراب بالماء ليشكل بالطين دوراً فاخرة شبيهة بفصور المرينيين
والوالة. حلم بالسلطة والملك وعشق حكايات الأباطرة والخالدين. لو كُتبت له الحياة لكد واجتهد
لينال نصيباً من الجاه والحكم.

تركت دقة الباب مؤازبةً واستدرت. أدركت أن البيت صار مملوكاً لموتاه. لم أجد إليه مرةً أخرى
وما دخله أحد من أهل المدينة. ستعود الحياة إلى فاس ويبقى البيت رهينةً لماضيه إلى أن ينال منه

الخرابُ فينهدم.

خطوتُ في الدربِ، جاهدتُ لأبتعدَ. مِنْ خَلْفِي ارتفع صوتُ حانٍ يُناديني. لَمْ أملكِ الجُرأةَ لأستديرَ.
خشيْتُ أن يُباغتني وَجْهُ أُمِّي. واصلتُ. رَغَمَ الموتِ الطَّافِحِ كانَ صدري يَنْضَحُ بالحياةِ.

ثُمَّ شتتِ في غفلةٍ عَنَّا، بعدَ جفائِ. نَزَلَ المَطَرُ خَفِيفًا، وَدِيعًا، شادًا عن الزَّمانِ والمكانِ، وترفقتِ
الريحُ التي استعادتْ أصواتها. في صدري توَهَّجتْ فوانيسُ كثيرة. أيقنْتُ أنني ناجٍ، وأنَّ حياةً
أخرى تنتظرني. من إحدَى النوافذِ تناهى
إليَّ صوتٌ وَهِنٌ:

- أُمِّي، إِنَّهُ المَطَرُ.

- نَعَمْ، إِنَّهُ المَطَرُ بُنِي، السَّماءُ تشتتي.

- أَيْكُتَبُ لَنَا اللهُ النِّجاةُ يا أُمِّي؟

- ننجو بإذنِ الله.

ارتفع صوتُ إبراهيمَ مُجدِّدًا، أنعثنهُ المَطَرُ المُباغتُ فعادَ أقوى ممَّا كانَ. ذَهَبَ الصَّوتُ بعيدًا وتردَّدَ
في سماءِ المدينةِ كما تتردَّدُ كلماتُ الأذانِ في سُكونِ الفجرِ.

- أنا إبراهيمُ، أنا قاتِلُ الأطفالِ وِبايعِ لُحومِ البَشَرِ. أليسَ فيكمِ رَجُلٌ يقتصُّ؟

صَفقتِ المرأةُ دَقَّةً نافذتِها. لا بُدَّ أنَّ الصَّوتَ أرعَبها فسحبتْ ابنها بعيدًا بحثًا عن شيءٍ مِنْ أمانِ.

صرخَ إبراهيمُ أعلى فأعلى:

- أنا إبراهيمُ، أنا تاجرُ لُحومِ البَشَرِ.

يصرُخُ فتردُّ الدُّروبُ والسَّاحاتُ التي أخلاها الطَّاعونُ بالصدى، تذهن المدينةَ بأكملِها؛ تُبدي أمانه
المزيدَ من الدَّلِّ والخُوعِ، مثلَ عبدٍ دَليلٍ عَجَزَ عن أخذِ القصاصِ. يزعقُ فيتمدَّدُ الصَّوتُ أبعَدَ؛
يتفرَّغَ مع الدُّروبِ ثمَّ يتدقَّقُ في أطرافِ الشِّعابِ.

سرتُ، مضيتُ في الدُّروبِ. ضاعَ مع الضَّبَابِ الذي اشتدَّ ما تبقى من ملامحِ مدينةٍ تتأكلُ ولا
تنتهي. ولجتُ أزقةً أشبهَ بأقبيةٍ وحُضتُ في أخرى تُفضي إلى المزيدِ مِنَ الدُّروبِ. عندما تدققتِ

الرَّيْحُ أَقْوَى وَأَكْثَرُ تَحَرَّرًا أَدْرَكْتُ أَنْنِي بَلَعْتُ سَاحَةَ فَاسِ الْبَالِي. دَفَعَتِ الرَّيْحُ الضَّبَابَ فَمَا جَ.
خَطُوتُ إِلَى عُمُقِ السَّاحَةِ فَشَمَمْتُ رَائِحَةَ أَبِي. «هَلْ مَاتَ؟ ضَرَبَ أَحَدُ الرِّجَالِ رَقَبَتَهُ وَخَلَّصَهُ مِنَ
العذاب؟». تَقَدَّمْتُ فَلَامَسْتُ قَدَمِي نَصَلَ الْمَدِينَةَ الَّتِي تَرَكَ الرِّجَالُ وَرَاءَهُمْ وَلَاذُوا.

- حسنا فعلت يا صبي.

رفعت رأسي، من بين الضباب لاح جسد إبراهيم المصلوب.

- احمل المدينة وتقدم. أنت رجل شجاع في مدينة أكل فيها الطاعون كل الرجال.

التقطت المدينة، رأيت وجوه أخوتي تحوم ورؤوس العشرات من ضحاياه تطلب القصاص. خطوت
ببطء.

- تقدم، تعال، لا تخف.

اقتربت. رائحة أبي كما كانت. لم تأخذ منها كل الشرور التي خرجت من صدره شيئاً. لاح وجهه
أكثر نحافة مما كان قبل ساعات. تفاجأ.

- هذا أنت؟

كركر.

- لن يفعلها غيرك. أنت الرجل المتبقي في مدينة المسوخ.

- أبي.

- لا تنفوه بالحماقات، هيا، ضربة واحدة وينتهي كل شيء.

- لم قتلتي إخوتي؟ لم ذبحت صبيّة لا ذنب لهم في ما حل بنا؟

مال رأسه كما يتلوّى رأس أفعى أثارها عزف الناي. تنفس بعُمقٍ ثم حرّ زفرة عميقة.

- لعل الأمر أكبر من سنواتك صغيري. فم بمهمتك.

- لم قتلتي وأنت الرجل الطيب؟

توقّف رأسه عن الحركة، نظّر إليّ:

- رجلٌ طيّبٌ؟ عدتَ لتنفّوه بالحماقاتِ..

- هل يكفي الجحيم ليُطهّرَكَ من خطاياك؟

- لم تكن خطاياي؛ بل حسناتي.

- إلى الجحيم.

كتيبة الترك

- 46 -

التفت قائدُ الإنكشارية مثل دبٍ ترصدَ خطرًا ثم شدَّ لجامَ الحصانِ فأنحبسَ سيلاً الجُندِ المُتدفقِ عبرَ الوادي. أثارته الطيور التي طارت من مواقعِ عدّة. كانت تلك غريزةَ المُحاربِ الشرس التي روضتها المعاركُ والمحنُ على مدى السنين. ففرَّ إلى الأرض، مدَّ بصره على طولِ الوادي وسفوحِ الجبال. عندما انتفض سربُ طيورٍ آخر في بطنِ الجبل. صرّخ:

- كمين، تحصنوا.

أزَّ الرصاصُ فازهرَ اللونُ القرمزيُّ. سقطَ الكثيرُ من الجُندِ في مواقعِهِمْ. أكلتِ النيرانُ المسعورةُ وجوهَهُمْ ومزقتْ بُطونَهُمْ في رمشةٍ عَيْنٍ. أجفلتْ خيولٌ وبغالٌ وسارتْ تجرُّ العرباتِ إلى جوفِ الوادي. وراءها خلفتْ جنودًا مكشوفينَ.

مأخوذًا بهولٍ ما يجري، ورجاله يتساقطونَ على جنباتِ الطريقِ يذبُّهم الرصاصُ من كلِّ الجهاتِ، أخذ القرارَ الصائب:

- ارتموا في العشبِ واحتموا بالشجرِ.

رمى القائدُ بنفسِهِ وتدرجَ فتبعهُ العشراتُ من الجُندِ الذين بقوا على الطريقِ كانوا خرافًا مسلوخةً. ردَّ الأتراكُ من مواقعٍ متفرقةٍ فأمكنَ جنودَ المؤخرَةِ أن يرتبوا العرباتِ ويصفوا أنفسهم. كانوا محظوظين؛ قتلوا وقتلوا، أطلقوا نيرانَهُم من فوقِ الأشجارِ ومن خلفِ الصخورِ وبين العرباتِ المحملةِ بذهبِ المحمديّةِ وفضتها.

«معركةٌ خاسرةٌ»، فكر القائدُ في جحيمِ النيرانِ، ثم قرّر أن يندفعَ بما تبقى من الرجالِ ليكسرَ جناحَ الجيشِ الشرقيّ ويفتحَ فجوةً للنجاةِ. زحفوا على بُطونِهِمْ، أطلقوا النيرانَ بكثافةٍ، وعبروا بطنِ الوادي. صارَ الرصاصُ خلفَ ظهورِهِمْ فأسرعوا.

لاحتْ أمالٌ في النجاةِ. اجتازوا مئاتِ الأمتارِ ثم سقطوا في الحلقةِ الثانيةِ للجيشِ. «لعبةُ القطِّ والفار»، فكر قائدُ الإنكشارية مُحبطًا. كان المغاربة قد أعدوا لمحاولةِ التركِ الفرارِ عبرَ الجهة

الشرقية فكمثوا للبقية.

مائة جندي في وسعة الوادي ومن حولها ما يزيد عن الألف. انبطحوا وردوا الرصاص بالرصاص. غضب القائد. زعق في وجه رجاله:

- قاتلوا كما عهدتكم واقتلوا ما استطعتم من جند السعديين، أخرجوا ما في صدوركم فإنها لمعركتكم الأخيرة وسوموا العذاب قتلتكم.

لما فرغت بنادقهم كانوا عشرين مقاتلاً. انتصبوا جنباً إلى جنب وتمسكوا ببنادق فارغة. من فم الجبال كانت ألوية الجيش السعدي ترفرف بإصاحبها قرع الطبول.

تمسك الرجال الذين تبقوا داخل حلقة الموت بخيوط ربيعة للنجاة.

الصفحة رقم 174 :من: 211 صفحة

التاجي

- 45 -

صبي المزيد من النبيذ يا صوفي فهذا القمر الذي يظلل ليلتنا يدعونا للسمر الأخير. أريدك عارية، كاملة الأنوثة، اكتمال البدر في يوم النضج ولنهديك الحانين أن يزوياني حليب الرضاعة. ارفعي رأسك الجميل، وأنظري إلى السماء، ها هي الغيوم مثل حسنات تحف القمر البهي وخشخشة أغصان شجر اللوز والليمون تحف الكلمات وصوت التاجي كذكرى عن موت تدعغ عواطفنا؛ هيا، ارجي العنان للجراء التي تسكننا، حرري آخر الأفكار لنموت وقد انطفأت فينا آخر الرغبات.

انظري إلى وجه أمي بين كأس النبيذ، عيناها مطفأتان وفي جوفها ظلام قلبها الأسود، اقتربي فهذه دهشتها العالقة من جلال السيف تدعونا لتجرب العشق الأخير.

أوه، ما أروعك، نهذاك الجبال وبطنك المحيط.

أفرغي المزيد من النبيذ واطركي للريح أن تغازل شعرك الطويل وتدفع أعمارنا إلى خواتمها والكلمات إلى نهاياتها.

.....

«بيدرو اللعين، أيكما أكثرُ شبَّهاً بالشيطان؟»

لَكُمَا الْخُبْتُ نَفْسُهُ وَالْوَجْهَ نَفْسُهُ وَلِعَلَّكُمَا تَقْتَسِمَانِ نَفْسَ الْمَصِيرِ.

نعم، أحببتكما بصدقٍ، وكرهتكما بعُمقٍ. ما كنتُ لأعرفُ أين يبتدأ الواحدُ منكما وأين وينتهي الآخرُ. تتداخلان كما تتداخلُ كلماتُ رجلٍ واحدٍ في أكثرَ من حكاية.

لا بأس، لتكنْ هذه الحكاية الأخيرة يا بيدرو فأيا مَنَّا الكلماتُ التي إذا انتهت انقضى معها العُمُرُ.

في ليلةٍ مُفمِّرةٍ كهذه من ليالي القحطِ والطاعونِ رَبطوه في ساحةِ فاس، أوثقوه إلى صَارٍ. تحرَّكتِ الرياحُ الآتية من الشعابِ باردةً فأوهمتِ البُوساءِ بالفرجِ.

كانتُ رياحًا صامتةً، بكَماءٍ، تدفعُ المهملاتِ وتعبُرُ الفجواتِ والدروب بلا صوتٍ، كأنَّ العالمَ امتلأ بالخواءِ؛ خواءٌ في كلِّ شيءٍ وصمتٌ مثلُ الحجرِ يُثقلُ على صدورِ النَّاسِ.

في السماءِ لاحتْ غُيومٌ تتهاذى على حواشي القمرِ. حنَّتِ القلوبُ الحاقدةُ لمواسمِ المطرِ واستبشرتْ بالمياهِ تندفقُ في وادي فاس.

أرى الآنَ، من هُنا، وأنا مشدودٌ إلى شجرة النخيلِ، كلَّ شيءٍ من فوق، كأنني طائرٌ يُحلقُ في سماءِ فاس التي كانتُ، أرى أسطحَ المدينةِ يأكلها الظلامُ والليلُ يحوِّطُ الأسوارَ كظلماتِ المحيطِ. مدينةٌ تغرقُ، وحدها بضعةُ مشاعلٍ

أيهم الإسطنبوليُّ

- 47 -

على خلافِ نصيحةِ باروخ كان أيهمُ قد جدَّ في الطريق، سارَ على أطرافِ سجلماسةٍ وأسرعَ يرتقُ
تلا بتلَّ كي يلحقَ أصحابه قبلَ أن يُطلُّوا على مشارفِ تلمسان. في وُصوله مُتخلفًا عن ركبِ
الانكشاريةِ إهانةً لهُ ومذلةً لا يقبلُها جُنديُّ.

طيلةَ الطريقِ لم يتوقَّف عن التفكيرِ في زينة. فكَّرَ أنها ثروتهُ التي وجبَ عليه أن يُرابطَ جنبها
ليصونها. مرَّ على جنباتِ فُرى صغيرةٍ ووديعة. بدتْ كحكاياتِ منسيةٍ من زمنٍ غابرٍ. اكتشفَ أن
الجمالَ يسكنُ بعيدًا عن زعيقِ المُدنِ وهرجِ الأسواقِ وبدخِ قصُورِ السلاطين. شربَ من مياهِ ينبوعِ
أسفلِ جبلٍ ماءً لم يتذوق مثلهُ وباتَ في كوخِ راعي غنمٍ شابٍ استضافه ليلةً كاملةً. اطمأن لسريرِ
القننِ وشعرَ بالدفءِ مُحاطًا بخرافِ القطيع. أطعمه صاحبُ الكوخِ التمرَ والحليبَ، فجرا أهداهُ قريةً
لبنٍ صغيرةً.

- مرث كتيبةُ التركِ من هنا. كنتُ محظوظًا. كانَ القطيعُ في الوادي.

شعرَ أيهمُ بالخوفِ. لاحظَ الراعي اضطرابه. لزمَ الصمتَ طيلةَ الليلِ. لعلَّ أدبَ الضيافةِ منعهُ من
السؤالِ. أضافَ يتوكأ على الحُرُوفِ:

- ومن قبله مرَّ جيشُ السلطان.

- شكرًا على كرمِ الضيافةِ سيدي.

- أنت تركي؟

- أنا تاجرُ سجاجيد فارسيَّة.

- زوجتي تُحبُّ السجاجيدَ الفارسيَّة.

- أجلُّ لك سجادًا في العامِ القادمِ بحولِ الله.

يعرف أنه لن يعود أبداً إلى هذه الأرض. سيصل إلى القسطنطينية في سفينة تركية تخرج من ميناء بجاية ثم يجلس في بيته الذي يُشرف على تلال المدينة تحت قدمي زينة كمتعبد إلى بقية العمر. يكتب بتجارة والده فيفتح دكان العرائس ليبيع عرائس يصنعها بنفسه إلى ساكنة المدينة.

- شكراً سيدي.

بحث عن هدية. من الخرج أخرج دراهم ذهبية. مدها إلى الراعي. امتنع.

- لا نأخذ مقابلًا عن ضيافة عابري السبيل.

أخذت الخراف تستفيق، بضعة جراء تقافزت حولهما. في التلال تتابع الغابات وقد أحياها نور الشمس البارعة.

- خذ مني هذا إذن..

أهداه شيئاً بمقبض فضي كان قد غنمه في إحدى معارك السلطان المولى محمد الشيخ. اعترض الراعي:

- تكفيني عصاي.

- إنه لك.

مضى متسيراً في الغابات. رصد حركة عربات فحاده. في منتصف الطريق إلى بلاد الجزائر توقف فوق أكمة. كانت الشمس قد مالت، لكن الرؤية كانت واضحة بما يكفي ليتابع مذبح الترك في الوادي. تحركت الحمية في صدره، رفع البندقية، وجه زينة رده. لبث بين الأغصان، عندما غربت الشمس رأى العشرين الباقية تحترق إلى أن صارت قطعاً من فحم.

ملأ جراباً من رماد ضحايا الحريق. قرأ آيات من القرآن عليهم. في خليج بجاية ذرى الرماد فوق مياه البحر المتوسط. تخلى رفاقه عنه في تارودانت لكنه أكبر فيهم قتالهم جيش السعديين حتى الرصاصات الأخيرة.

عربة الموت الأخيرة

- 48 -

مآلتِ العربةُ التي حادَّتِ الجُرْفَ مُثْقَلَةً بعطايا السُلطانِ ثمَّ عادتْ لتستوي بصُعوبَةٍ في الطَّرِيقِ
الوَعْرِ، مَضَى الوادي أسفلها بعيدًا ثمَّ تلوَّى تتبَّعُهُ نباتاتُ الدَّفلى بأزهارها الزَّاهية وقَصَبِ الخَيْرَانِ
وُصُولًا إلى البَحْرِ. بدا العالمُ كُلُّهُ هاديًا وساكنًا، قِطْعَةً مِنْ نَعِيمِ.

- وَحَدَّهُمُ النَّاسُ ما يُفْسِدُونَ هذه البلادَ، كلِّما خَلَّتْ صارتْ أبهى.

قالَ البَشِيرُ إلى صديقِهِ الذي عَثَرَ أخيرًا على السَّكِينَةِ التي خَرَجَ يَنشُدُها منذُ تَرَكَ قَاسَ.

- تَنطَفِئُ الشَّمْسُ قَبْلَ بُلُوغِنَا البَحْرَ. نَبِيئُ في السَّفْحِ.

- نَبِيئُ في السَّفْحِ وتُواصِلِ فَجرا إن شاء الله.

تجاوزتِ العربةُ المُنحَدَرَ. صارتِ الطَّرِيقُ أيسَرَ ونباتاتُ الدَّفلى أَقربَ، لكنَّ دَكْنَةَ المَساءِ أَحرقَتْ
رُهورَها فصارَ الوادي إلى رَمادٍ. فَصَلَا الحِصَانَيْنِ عن نَيْرِ العربةِ لِيَسْتَرِيحَا. عِنْدَمَا هَبَّطَ اللَّيْلُ
أزْهَرَتْ بَدَلِ الدَّفلى السَّماءُ.

أشْعَلَ أَحْمَدُ نارًا وأعدَّ طَعامًا. «القَدِيدُ يُناسِبُ ليالي السَّفْرِ»، قالَ في نَفْسِهِ. تناولَ مع القَدِيدِ تَمْرًا
وتَبِيًا مُجَفَّفًا وشَرِبًا لَبَنًا. رَبَضَ الحِصَانانِ جَنبًا إلى جَنبٍ واستكانا. غنَّتِ الجَداجِدُ فمَلأتْ سَكِينَةَ اللَّيْلِ
بالصَّرِيرِ.

- هذه الأرضُ أمان.

قالَ البَشِيرُ. ردَّ أَحْمَدُ يحرقةُ الشوقِ إلى شهرزاد:

- البَشِيرُ يُفسِدُ كُلَّ بُلدانِ الأرضِ.

- كانتِ الأرضُ لتكوُنَ أَجْمَلَ بلا بشرٍ.

مالَ البشيرُ على جنبِهِ وتمدّدَ. خَلَفَ صاحِبِهِ لاحتَ مِئَاتُ مِن حَشْرَاتِ الحُبَابِ وَقَدْ غَمَرَتْ جِلْكَةَ الغَابَةِ بِنُورِهَا البَارِدِ. خَبَتِ النَّارُ، انطفأتْ، لَكِنَّ وَهَجَهَا استمرَّ يُزهِرُ كَجَمْرٍ. تحدّثَ البَشِيرُ:

- أُعْطِيَ نصيبي من هبةِ المولى عبد الله فدية عن النَّاجي .

- ما معنا يكفي لتحرير سرية كاملة.

علّق أحمد. ضحكَ البَشِيرُ. يُسَعِدُهُ أَنْ يحرّرَ صاحِبَهُ وَيُعِيدَ صِهْرَهُ إِلَى بيتِ أُخْتِهِ.

- لعلِّي تأخّرتُ كثيرًا. فَصَرْتُ فِي حَقِّ غِيثَةٍ يا أحمد. ما كنتُ الأخَّ الوفي.

- وما كنتُ لتحرّره بلا مالٍ.

- ماذا إذا أعدموه؟

- الأعمارُ بيدَ الله يا بشير وما كانت جيوشُ الدّنيا لتَمُدَّ في عُمُرِهِ يومًا أو تنقص.

استوى أحمد، قابِلَ السَّمَاءِ. لسنينَ طويلة لم يتركِ البندقيةَ بعيدةً عن يَدِهِ. أخذَ قَرَارَهُ بِتَرْكِ الحُرُوبِ أَيًّا كانَ الدَّافِعُ إليها فَعَمَرَهُ السَّلَامُ.

- وأطلتُ الغيبةَ عن شهرزاد.

- أحببتُها؟

- نعم، أحببتُها يا بشير. نَصَلْتُ إلى فاس فأخذها من الفُقرِ إلى العِنَى ومن الدَّلِّ إلى العِزَّةِ. أبني لها بيتًا كبيرًا في البوغازِ وأعيشُ معها العُمُرَ.

- وتهجُرُ فاس؟

- تقْتُلُنَا ألسُنَ النَّاسِ يا صاحبي إذا بقينا في فاس. لنا في طنجة تجارةٌ ومراكبُ صيدٍ وأراضٍ. أنوبُ عن والدي هناك فأنالَ الحُبَّ والرِّضَا والمالَ.

- كبرنا يا صاحبي بما يكفي لنتزوَّج ونسكن إلى قطعة أرض. لعلِّي أرجعُ إلى آسفي إذا عمّرها السَّعديون ولو بضعَ سنين.

- نَسْتَكِينُ إِلَى قِطْعَةِ أَرْضٍ.

جَفَلَ الْحِصَانَانِ، هَرَبَا بَعِيدًا فِي بَطْنِ الْوَادِي. قَتَلَ قُطَاعُ الطَّرْقِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ بُوغْتَا فِي لِحْظَةِ سَهْوٍ ثُمَّ دَخَلُوا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ. نَدِمَ اللَّصُوصُ عِنْدَمَا اِكْتَشَفُوا أَنَّهَا عَرَبِيَّةٌ مِنْ عَرَبَاتِ السُّلْطَانِ. خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ لَعْنَةِ الشَّرْفَاءِ فَوَضَعُوا الْجَثْتَيْنِ دَاخِلَهَا. لَمْ يَأْخُذُوا شَيْئًا. أَشْعَلُوا النَّارَ وَلَاذُوا.

غَيْثَةٌ

- 49 -

رَفَضَتْ غَيْثَةً أَنْ يَخْدَمَ أَحَدٌ أُمَّ الْغَيْثِ، فِي فِتْرَةِ حِمْلِهَا، سِوَاهَا:

- وَاللَّهُ لَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهَا غَيْرِي، أُعِدُّ لَهَا مَا اشْتَهَتْ مِنْ طَعَامٍ وَأَنْظِفُ فِرَاشَهَا وَأَرْقِيهِ عَنْهَا إِلَى أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ فَتَضَعَ وَتَسْتَعِيدَ عَافِيَتَهَا.

- أَصِيلَةٌ يَا بِنْتِي، أَصِيلَةٌ يَا غَيْثَةَ.

مَا كَانَتْ أُمَّ الْغَيْثِ لَتَرْتَاخَ لِغَيْرِ غَيْثَةَ، فَهِيَ صَاحِبَتُهَا وَمُؤْنِسَتُهَا وَكَاتِمَةُ سِرِّهَا. لَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ سِوَاهَا أَنَّ النَّطْفَةَ الَّتِي جَاءَتْ تَحْمِلُهَا أُمَّ الْغَيْثِ مِنْ ضَاحِيَةِ صَفْرٍ وَتَسْتَرِدُّ سَعَادَةَ زَوْجِهَا وَتَسْتَعِينُ بِهَا وَتُعِينُ الْعِيَّاطَ عَلَى مَوَاصِلَتِ الْعَيْشِ لَيْسَتْ مِنْ صُلْبِ زَوْجِهَا.

- فَعَلْتُ مُكْرَهَةً. مَا كَانَ أَمَامِي مِنْ خِيَارٍ.

قَالَتْ لَهَا. وَضَعْتَ غَيْثَةَ يَدَهَا عَلَى فَمِهَا وَكَتَمْتَ صَرْخَتَهَا.

- كَيْفَ تَجْرَأْتِ؟ تُغْضِبِينَ اللَّهَ وَتَسْتَغْفِلِينَ زَوْجَكَ؟

- أَوْ لَا تَفْعَلِي إِذَا مَا خُيِّرْتِ بَيْنَ الْفَعْلِ وَنَجَاةِ النَّاجِي .

أَحْنَتْ غَيْثَةَ رَأْسَهَا.

- مِمَّنْ يَكُونُ حَمْلَكَ؟

- مِنْ نَسْلِ شَرِيفٍ. طَرَقْتُ بَابَ شَيْخِ الْقَبِيلَةِ فَمَا رَدَّنِي.

- أَوْلَمْ تَخَافِ الْفُضِيحَةَ؟

- شَيْخُ الْقَبِيلَةِ أَعْظَمُ مَكَانَةً، يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ فَلَا يَجْرَأُ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةً.

- وَغُيُونُ النَّاسِ وَالسِّتْنَتُهُمْ؟

- يَدْخُلُ عَلَيْهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ كُلُّ يَوْمٍ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَشَوَاغِلِهَا فَلَا تَحْمِلِي هَمًّا.

تَحَدَّثَتْ غَيْثَةً كَمَا لَمْ تَفْعَلْ مِنْ قَبْلُ مَعَ جَارَتِهَا:

- لَا تُخْبِرِي غَيْرِي يَا أُمَّ الْغَيْثِ تُسَيِّبِي إِلَى نَفْسِكَ وَإِلَى الْعِيَّاطِ، وَلَا تَتَحَدَّثِي إِلَيَّ أَنَا الْأُخْرَى بِمَا قُلْتِ مَرَّةً ثَانِيَةً. مَا سَمِعْتُ مِنْكَ وَلَا عَرَفْتُ عَنْ أَمْرِ الْحَمَلِ شَيْئًا. هَذَا أَنْسَبُ لِي وَأَكْرَمُ لَكَ.

- سَأَهْبُهُ السَّعَادَةَ الَّتِي بَحَثَ عَنْهَا طَوِيلًا، وَالْحَقُّ فِي أَنْ يَصِيرَ أَبًا وَجَدًّا، وَلَنْ أُنْرَدَّ أَنْ أَفْعَلَ مَا فَعَلْتِ ثَانِيَةً لِأَنْجَبَ لَهُ وَأَدْخَلَ عَلَى قَلْبِهِ الْمَزِيدَ مِنَ الْفَرْحَةِ.

أَلْقَتْ غَيْثَةً مَا سَمِعَتْ مِنْ صَاحِبَتِهَا خَلْفَ ظَهْرِهَا وَصَارَتْ تَخْدُمُ الْمَرْأَةَ الَّتِي أَحَبَّتْ؛ تُعِدُّ لَهَا فُطُورَ الصَّبَاحِ وَلَا تَعُودُ إِلَى بَيْتِهَا إِلَّا إِذَا نَزَلَ اللَّيْلُ. تَمُدُّ وَلَدَيْهَا بِالطَّعَامِ مِنَ النَّافِذَةِ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى بَيْتِهَا وَتُطَلُّ عَلَيْهِمَا بَيْنَ السَّاعَةِ وَالْأُخْرَى. يَقْضِي بَكْرَ كُلِّ يَوْمِهِ فِي الْمَحَلِّ وَيَرْجِعُ مَعَ التَّاجِرِ مُتَأَخِّرًا. أَطْرَبَهَا أَنْ تَرُدَّ شَيْئًا مِنْ جَمِيلِ أُمَّ الْغَيْثِ وَالْعِيَّاطِ.

مَرَّتْ أَسَابِيعُ سَرِيعَةً، هُنَاتُ فَاسَ بِأَمْنِهَا، لَكِنَّ غَيْثَةَ خَافَتْ عَلَى زَوْجِهَا وَقَدْ تَنَاقَلَتِ الْأَلْسُنُ خَبَرَ تَحْرِكِ جَيْشِ خَلِيفَةِ السُّلْطَانِ فِي فَاسَ إِلَى جِصْنَ الْبُرْتِغَالِيِّينَ لِيَسْنَدَ فَصِيلَ السَّاجِلِ وَيُنْهِيَ الْحَرْبَ بِمَعْرَكَةِ الْحَسَمِ.

- انْتِظِرِي يَا بِنْتِي إِلَى أَنْ يَعُودَ الْعِيَّاطُ.

- وَاللَّهِ مَا أَسْتَطِيعُ يَا أُمَّ الْغَيْثِ، خَاطِرِي يُوجِعُنِي.

ارْتَدَّتْ جِلْبَابُهَا الْفَضْفَاضَ وَرَمَتْ الْوِشَاحَ عَلَى رَأْسِهَا وَوَضَعَتْ «الْحَايِكَ» عَلَى وَجْهِهَا ثُمَّ قَصَدَتْ جَارَهَا فِي مَحَلِّهِ. صَرَفَ الْعِيَّاطُ الرَّجَالَ عَلَى الْفُورِ وَاسْتَقْبَلَهَا:

- خَيْرٌ يَا غَيْثَةُ؟

- زَحَفَ الْجَيْشُ..

- إِيهِ نَعَمْ، خَيْرٌ مَا فَعَلَ الْخَلِيفَةُ. أَرْضُ الْمَغَارِبَةِ يَسْتَرْجِعُونَهَا وَيَطْرُدُونَ عَنْهَا الْعَدُوَّ الَّذِي اسْتَبَاحَ شَوَاطِئَهَا.

- وناجي يا سي العيَّاط؟

كان في نبرتها اتهامٌ بالتقصير. نظرتُ إليه بعُضْبٍ. كانَ أمَلُها الوحيدَ.

- يحرُّرُ مع الأرض يا بنتي.

- وماذا إذا أخذوه عبداً إلى بلاد البرتغال، أو أعدموه انتقاماً.

أجلستُها على الأريكة. أمرَ صبيّاً فجلب لها كأسَ بُرتقالٍ. تابعَ بَكَرَ جوارَهما في صمتٍ. «لو كنتُ أكبرَ بقليلٍ»، تأسَفَ. سألتُها العيَّاط:

- هل فرطتُ في واجبِ يا ابنتي؟

- حاشى يا سي العيَّاط، غمرتنا بعطفك وكرمك.

- لا تحملي همّاً، أعطيتُ لقائد الجيش وأجزلتُ له العطاءَ قبل أن يخرج الجيشُ من مَرابضِ فاس. يأتونَ به بِقُدرةِ القادرِ عزَّ وجلَّ.

سارعتُ لِتُقْبِلَ يدهُ، انتزعتها.

- حاشى لله. هذا واجبُ الجيرةِ فلا تشكريني على واجب.

أحنى بَكَرَ رأسه. لن ينسى بقيّةَ عُمره مَشْهَدَ أمه التي التقت يَدَ التاجر لتُقْبَلها شُكراً على صنيعه. غضب، خرَجَ مِنَ المَحَلِّ وأضربَ عَن الحَدِيثِ إلى أمه أَيْاماً.

- مالك يا بَكَر؟

قالتُ لَهُ. أشاح عنها

- شنو؟ خير يا ابني؟

- لا تقبلي يَدَ رَجُلٍ أياً كانَ ومهما يَكُن.

باغتها بما قال. شعرتُ بِجُرْحٍ غائِرٍ. مَسَّ بِمَا قال مكاناً حساساً داخلها. ابتلعتُ ريقها. نظرتُ إليه كما لم تفعلُ مِنْ قبل:

- اِسمَعْ يا بَكْرُ، انا اَمَّك، اِنَّمَا وَجَبَ عَلَيْكَ اَنْ تَعَلَّمَ اَكْثَرَ مِنْ غَيْرِكَ اَنَّ النَّاجِيَ اَعْلَى عِنْدِي مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا، لَا غَالِي يَغْلَى عَلَيْهِ وَلَا عَزِيزٌ اَعَزُّهُ فِيهِ؛ اَبِيعْ رُوحِي وَلَا اُنْدَم.

عِنْدَمَا اِنْتَبَهْتُ اِلَى مَا قَالَتْ فَكَّرْتُ اَنَّهَا مَا كَانَتْ لِتَتَرَدَّدَ فِي فِعْلِ مَا فَعَلْتُ جَارَتْهَا لِتَهَبَ السَّعَادَةَ وَالْفَرْحَةَ اِلَى زَوْجِهَا.

كتيبة البرتغاليين

- 50 -

سبعة عشر رجلاً كانوا كلما تبقى من جيش البرتغال في الحصن. أبحرت سفينة تحمل الفوج الأخير إلى سبتة. كانوا في معظمهم من ضباط الجيش والجنود والموظفين، وكانوا يائسين ومحبطين. خسروا الحصن الذي بنى أجدادهم قبل قرنين كاملين ودافعت عنه الأجيال المتتالية إلى أن صار أرضاً لأبناء لا يعرفون غيره وطناً.

قاوموا ببسالة. رفضوا الهزيمة. كانوا أصحاب حضارة، وكانت أحلامهم أعظم الأحلام على وجه الأرض.

جاءت الأوامر من لشبونة بإخلاء الحصن قبل معركة الحسم. إمبراطورية البرتغال العظمى تنقهر إلى الوراء وقد ألمها السعديون.

«وآباؤنا المدفونون هنا؟ أنحملهم في تربتهم إلى سبتة أم نتركهم للموزو يعبثون بهم؟ وذكر يائسنا؟ أحلام طفولتنا التي نشأت هنا، في الساحات والدروب وعلى أطراف البحر؟ قصص الحب الأولى؟ وبيوتنا التي صارت قطعاً منا؟».

ضاقت الأرض حولهم. اقتطع السعديون مساحات من كل الجهات. لما أشرف جيش المغاربة على الأسوار، ولم يتبق بحوزة المستوطنين ما يحرقون ولا ما يجنون، خرجوا في جولات بطولية، قاتلوا بشراسة. تسللوا مرة متخفين في الوادي ليلاً ثم التقوا على الجيش الذي يحاصرهم، أوقعوا في صفوف خصومهم خسائر كبيرة وعادوا سالمين. لم يتغير شيء. كان المغاربة قد اتخذوا قرارهم الأخير؛ ألا يبقى في أرضهم تركي جهة الشرق ولا برتغالي جهة الغرب.

تعالى نفي السفينة مرات تندر الغافلين أن الوقت قد انتهى. ظلّت راسية في الميناء وعلى متنها ركاب متوترون. أبحرت أخيراً ببطء تحمل ما استطاعت من الجنود وعائلاتهم وموظفي الميناء والبريد ثم غابت مكرهة في مياه المحيط وبلا رجعة.

لم تخلف السفينة الرجال السبعة عشر وراءها. كانوا هم من اتخذوا

قرار البقاء.

انتظر فُبطانُ السفينة، الذي أكبر في الرجال تشبُّثهم بالأرض، طويلاً، فأجلَّ الإبحارَ ثلاثة أيامٍ كاملةً، علَّهم يُراجعونَ موقفهم ويفعلونَ ما فعلَ مستوطنو البريجة. دخلَ السعديونَ إلى البريجة فوجدوها مدينةً أحرقتُ بالكامل.

قال لهمُ القبطانُ في صبيحة الإبحار:

- معركتكم خاسرة.

ردَّ عليه أحدُ الرجال:

- وثمة رجالٌ يحبونَ المعاركَ الخاسرة.

- تعالوا معي، نُقلَ رجالنا إلى سبتة ولشبونة ونُولي إلى أمريكا، فهناك أرضٌ عامرةٌ بالذهب، أحتاجُ إلى رجالٍ أشداءٍ ومُخلصين. هناكُ نبيي دولةٌ تحكُمُ العالمَ.

أشاحوا عنه. ارتبك، قرَّرَ أن يهاجمَ بطريقةٍ بحارٍ حنكته المَحَنُ:

- ما الذي يدفَعُ رجالاً شُجعاناً للموتِ في معركةٍ محسومة؟

نظروا إلى وُجوه بعضهم البعض، ابتسموا، ثم وَضعوا أسلحتهم على أكتافهم وساروا منتظمين خُلفَ بعضهم البعض، كتيبةً واحدةً ومنسجمةً، في مقدمتها سنتياغو؛ الشاب الصغير الذي لم يبلغ بعد ستة عشر عاماً وفي آخرها مندوسا؛ المقاتل الشرس بعقوده الستة.

رفع القبطانُ يدهُ يُحييهم كما يفعلُ في حضرة قائد القوات البحرية. لم يردُّوا التحية. ظلت يدهُ على رأسه إلى أن ابتلعنهم بنايات الميناء. راودتهُ للحظة رغبةُ البقاء. لامسَ في انصرافهم مرفوعي الهاماتِ نشوةَ رجالٍ جبارين فضلوا الموتَ على الخروجِ مُندجرين. لكنَّهُ لا يجرؤُ على الفعل. في صدره تتركُّلُ الرغبةِ في الحياة والشهوات.

أنشدوا في طريقهم إلى ساحة الحصن، كما كانوا يفعلونَ كلَّ صباحٍ. صوتهم كان أعمق وإحساسهم أصدق.

حَشِيَّ الْفُطَّانُ أَنْ يُدْرِكَهُ جُنُودُ السَّعْدِيِّينَ فِيهِلِكَ وَمِنْ مَعِهِ. اسْتَدَارَ، ثُمَّ أَسْرَعَ إِلَى سَفِينَتِهِ. عِنْدَمَا دَخَلَ
الْمَقْطُورَةَ، سَحَبَ حَبْلَ التَّفْيِيرِ بِنَفْسِهِ الْمَرَّةَ تَلَوَ الْأُخْرَى. لَمْ يَتَوَقَّفْ إِلَى أَنْ غَابَتِ السَّفِينَةُ فِي الْمُحِيطِ.
يَعْرِفُ الْمُقَاتِلُونَ أَنَّ التَّزْمِيرَ الْمُتَكَرِّرَ كَانَ رَسُولًا إِجْلَالٍ لَهُمْ.

وَاكتشفوا أَنَّ رَاهِبًا اسْتَمَرَ فِي كَنِيسَتِهِ. مَعَ قَرْعِ جَرَسِ الْكَنِيسَةِ الَّذِي تَلَا نَفِيرَ السَّفِينَةِ شَعَرُوا
بِالرَّضَا. اسْتَعَادُوا لِلْحَضَاتِ ذَكَرِيَاتِ قُدَّاسِ الْأَحَادِ وَحَفَلَاتِ التَّعْمِيدِ وَالْأَعْيَادِ.

ابْتَعَدَ صَوْتُ نَفِيرِ السَّفِينَةِ ثُمَّ غَابَ قَرْعُ النَّاقُوسِ. فِي صُدُورِ الرِّجَالِ السَّبْعَةِ عَشَرَ حَطٌّ فِرَاعٌ كَبِيرٌ.
مَعَ الصَّمْتِ شَطَّرَتْ قَذِيفَةٌ مَدْفَعُ بَابِ الْحِصْنِ نِصْفَيْنِ. كَانَ وَاضِحًا أَنَّ الْقَذِيفَةَ انْطَلَقَتْ مِنْ مَسَافَةٍ
قَرِيبَةٍ. الْقَذِيفَةُ الثَّانِيَةُ حَوْلَتْهُ إِلَى أَشْلَاءٍ. مِنْ بَيْنِ الدِّخَانِ انْبَعَثَتْ طَلَائِعُ الْمُشَاةِ وَالْخَيَْالَةُ تَنْدَفِعُ إِلَى
الْحِصْنِ الَّذِي تَحَرَّرَ مِنْ سَطْوَةِ الْأُورُوبِيِّينَ.

صَوَّبَ جُنُودُ الْكُتَيْبَةِ، أَطْلَقُوا النَّارَ بِعِزَّارَةٍ فِي مَعْرَكَتِهِمُ الْأَخِيرَةَ فَسَقَطَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ. عِنْدَمَا
صَارَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ إِلَى الصِّفْرِ أَلْقَوْا بِنَادِقِهِمْ وَرَفَعُوا سُيُوفَهُمْ.

أَمَّنُ الرِّجَالُ السَّبْعَةَ عَشَرَ أَنَّ الْمَوْتَ بِالسَّيْفِ غَيْرُ الْمَوْتِ بِالرَّصَاصِ؛ صَرَغَى الْمُبَارَزَةُ خَالِدُونَ،
تَحَفَّظُهُمْ ذَاكِرَةُ النَّاسِ وَالْأَرْضِ.

بيدرو

- 51 -

ارتدت صوفي لباساً خفيفاً؛ فميصاً من الحرير وتثورة من الصوف اللين. الجوارب الحمراء تجعلها مثل راقصة على خشبة مسرح. دسنت قدميها في الحذاء الجلدي. عندما وضعت القبعة فوق رأسها أدرك بيدرو أنها تنوي الرحيل.

«فات الأوان صغيرتي»، فكر في نفسه.

رغم السهر الطويل وتعب الليل، ظلت المرأة اليافعة يقظة، أما جسدها فكان فياضاً بأنوثته ربت في نور الصباح.

- بيدرو.

نادته بصوت حان. عاد ليتأملها. رآها من جديد أروع مما سبق. «كيف لهذه المرأة أن تتجدد كما يتجدد هواء البرية، كل مرة أعذب من المرة التي خلّت؟». انحنى لها بقدر ما تستحق.

- لك مهابة القديسات.

فاجأها هو الكاره للنساء ورجال الدين. ارتبكت. أضاف:

- تبدل حالك كثيراً حبيبتى. لعلّي أخطأت بالسماح لهذا العبد بالدخول إلى بيتي. أفسد ذوقك وعكّر سير حياتنا معاً.

بادرت:

- في الميناء مركب الحفر الذي يكفي عشرة رجال. لنسرع إليه ثلاثتنا.

كانت أشعة الشمس قد سطعت من سماء صحوة ورياح البرية المندفقة تغمر النفس برائحة الوادي الحصب؛ ربيع متأخر. التفت بيدرو إلى الناجي:

- يترجّل عن الحياة فلا يزيدُ ساعةً حبيبتِي.

استدار، سحب قطه الشبق إلى صدره، احتضنه بحنو، فتح القط عيناه الكبيرتين، نظر إلى صاحبه ثم أغلقهما ببطء.

- عُدْرًا عزيزي، تأخّرتُ عنكَ طويلا، سأمنحكُ خِصِيَّتِيهِ مقلّيتين وقلْبُهُ مطبُوحًا في ماءٍ مُخلّلٍ وأضعُ عينيهِ فوق الطَّبَقِ.

انحنّت تستعطفُهُ. مدّ يده يتلمّسُها:

- نِهْدَاكِ رائعانِ يا صُوفي، خَسَارَةٌ أَنْ تَعْصِرَهُمَا يَدُ الْبَدْوِ.

- ثَمَّةٌ فُرْصَةٌ لِلنَّجَاةِ يَا بِيدِرُو.

- دخل السّعديون يا صوفي، فجروا الأبواب. ألم تسمعي صوتَ خشبِهَا يَتَشَطَّى؟ لا تَطْلُبي النّجاةَ. لَنَا مَا تَبَقِيَ مِنْ مَتَعَةٍ. لا تُفْسِدِي سَاعَاتِنَا الأخريرة. سأضعُ رأسًا ثانيا على الطاولة وأشرب كأس النّبِيذِ. هذا قطافُ نهاية الدّربِ.

- لنركب قارب الخفر ونقصدُ أقربَ حصنٍ للبرتغال على الساحل. حصنٌ سبّته منيعٌ. سنبنّي بيتًا آخرَ أكبرَ وأجملَ، وسيكون لك أن تعملَ مع الجيش هناك وتستمعَ بحكاياتِ الأسرى. من يُرسل الخائبين إلى فصيل الإعدام؟

- انتهى كلّ شيءٍ حبيبتِي.

ترك القطّ، مسدّ فوهةَ البندقية بلُطْفٍ، ثم نظَرَ إلى النّاجي باشتهاء، رآه مثل فاكهةٍ ناضجةٍ أزفَ وَقَتُ قطافِهَا. سأله:

- عَفُوتَ عن أبيك أم قتلتَهُ؟

- لم أقتل أحدا يومًا.

- أمّا أنا فلستُ غيبًا لأعفو عنكَ. العفو سِمَةٌ الجُبْنَاءِ.

ارتفع دوي قذائف أخرى. في الجهة المُقابِلة لم تردّ المدافع التي في الأسوار. تحصرَ بيدرو، بدًا حزينًا وضعيفًا.

- هذه ليست قذائف حرب، بل قذائف احتفالٍ بالنصر يا ناجي. مُحزنٌ أن يسقطَ هذا الجمال في يد من لا يُقدّر الجمال. هل يسكنُ هذا البيت من يسقي هذه الزهور ويشدّب الأشجار ويقابل المحيط ساعات الليل؟

التفت إلى صوفي:

- دخلوا حبيبتي. هُزنا. سيصيرُ الحصنُ لغير أهله، تُظلمُ الدروبُ وقد حنّت للبرتغاليات اللواتي يزيّنّها بالفساتين وعيونهنّ الخضر. تصيرُ الحسناءُ الأوروبية المختالّة على الشطّ الإفريقيّ إلى وحشٍ يتربّص سُننًا.. اعذريني جميلتي. لا أستطيع أن أقاوم كلّ هذا الإغواء وأعفو عنه، كأنني لم أقتل رجلاً يومًا. يرضيك أن أموت وفي حلقي عُصّة جرمان؟

وَضَعَ البندقية على طاولة الحديقة، نَهَضَ بنتاقل ثم حملَ مدراةً وتقدّم نحو النَّاجي. تبعه القط بغرزة الإفتراس :

- هذه أفضلُ من تلك يا ناجي لتودّع الحياة. سيكونُ لأمعائك أن تتمزّق وللدّم أن ينفِر عبر النُّوب من بطنك. أنت القربانُ الأخيرُ.

الكذبة

- 52 -

مشغولة البال، مقبوضة الصدر، كَنَسَتْ غِيثَةَ الْبَهْوِ بِالكَامِلِ. «خير يا غِيثَةَ، إن شاء الله خير، بإذن رب العالمين خير»، حاولت أن تُهْدِي نَفْسَهَا. وضبت مريض النعجات، ملأت الطست الكبير بالحليب، ورمت الخبوب للدجاج. عبر شباك القن والألواح تطلعت إلى الديك المزرکش. سمن كثيراً ولم يعد الناجي بعد. تركت الديك يسمن لتعد به وليمة «الرفيسة» يوم يرجع. أحب الناجي ننف الخبز المسقي بمرق الدجاج والخلبة والفول اليابس والعدس والبصل. يأكل ولا يشبع. «يرحم والديك يا غالية وتسلم يديك»، يقول لها. ليلا لا بد أن يضاجعها بنهم. الخلبة تجعله أكثر رغبة وشراسة ودقفاً.

يُطْرَبُهَا لَهَاثُهُ فَوْقَ جَسَدِهَا. تُدَاعِبُ وَجْهَهُ، تُدَسُّهُ بَيْنَ نَهْدَيْهَا. يَهِيحُ، يَصِيرُ إِلَى ثَوْرٍ، ثُمَّ يَخْبُو كَالنَّارِ دُونَ أَنْ يَخْمَدَ عَشْفُهُ الْفُؤَارِ. رَائِحَةُ عَرَقِهِ تُشْعِرُهَا بِالْأَمَانِ. يَسْتَحِمُّ وَيَتَمَدَّدُ إِلَى جَانِبِهَا. يَنَامُ فَتَرَى وَجْهَ الطِّفْلِ. تُعْطِيهِ، تُعَدِّلُ الْمَخْدَةَ تَحْتَ رَأْسِهِ، وَتَطْمِئِنُّ لَوْضَعِيَّةٍ ذِرَاعِهِ حَتَّى لَا يُوجِعَهُ وَهُوَ يَسْتَيْقِظُ صَبَاحًا. تَشْكُرُ اللَّهَ. النَّاجِي أَجْمَلُ مَا حَصَلَ فِي حَيَاتِهَا. تَقْبَلُهُ كَمَا تَقْبَلُ طِفْلاً فِي الْمَهْدِ ثُمَّ تَهْجَعُ إِلَى جَانِبِهِ إِلَى أَنْ يَسِيلَ ضَوْءُ الصَّبَاحِ فَتَنْهَضُ لِأَشْغَالِ يَوْمِهَا.

«كنت راضياً على النصيب وما قسم الله، أخذك البشير في يده، عاد دونك، تخلى عنك وعني». تتأسف، بات الناجي ذكرى بعيدة. طالت الشهور، شق عليها الانتظار، وباتت أحلامها أمان هاربة ومتمنعة.

تتهدئ: «الله غالب». ولذاها لا زالا نائمين. اعتادا على غياب والدهما وما عادا يذكرانه إلا لماماً. أما بكر فيربط في محل العياط وقد باتت كل أحاديثه عن السئع والمال والمعاملات. صار رجلاً. يشرب الشاي لزوماً بعد العشاء ولا ينام إلا إذا توضحاً وصلى. على خلاف صغيريها يستيقظ فجراً وينام باكراً. يذكرها بالناجي وهو يبتهل. تعرف أنه يقلد أباه. «طيب وصادق مثل الناجي»، تقول في نفسها. تستدرك: «لكنه أكثر حظاً».

رفعت رأسها إلى نافذة جارتها. عدلت أم الغيث عن دفع الدفة منذ عادت إلى البيت حبلية. نسيبت رائحة المعزات ونقنقة الدجاج. مع الحمل تبدلت. الحياة تتغير أسرع مما تحتمل. قلبها معلق بالماضي.

- فين أصدّ يا أمّي؟

فكّرتُ أنْ تعجنَ. ستستفيقُ أمّ الغيثِ فيكونُ عليها أنْ تذهبَ إليها. لا بدُّ أنْ تتركَ الخُبزَ للأولادِ.
يداها ثقيلتان، بألها مُشوّشٌ، وبدنها مُنهكٌ. إحساسٌ بالضعفِ يُثبِّطُ همّتها.

- أعوذُ بالله، اللهم اجعله خيرا يا ربّ العالمين.

جلستُ على عَنبَةِ بابِ غرفِها. الهواءُ دافئٌ. الرّيحُ تدفّعُ فصلَ الصّيفِ إلى
الصفحة رقم 187 :من: 211 صفحة

مِنْ جَمِيلِ أمّ العَيْثِ والعِيَّاطِ.

مرّت أسابيعُ سريعة، هنأت فاس بأمنها، لكنّ غيثةَ خافتت على زَوْجِها وقد تناقلتِ الألسُنُ خَبَرَ
تحركِ جيشِ خليفة السّلطانِ في فاسِ إلى حصنِ البُرْتغاليّين ليسندَ فصيلَ السّاحلِ ويُنهيَ الحَرْبَ
بمعركةِ الحَسَمِ.

- انتظري يا بنتي إلى أنْ يَعُودَ العِيَّاطِ.

- والله ما أستطيعُ يا أمّ العَيْثِ، خاطري يُوجعني.

ارتدتْ جِلْبَابَها الفضفاضَ ورمّتِ الوشاحَ على رأسِها ووضعتِ «الحايك» على وَجْهها ثمّ قصّدتْ
جارها في مَحَلِّهِ. صرّفَ العِيَّاطُ الرّجالَ على الفُورِ واستقبلَها:

- خِيرِ يا غِيثَةَ؟

- زَحَفَ الجَيْشُ..

- إيه نعم، خير ما فعل الخليفة. أرض المغاربة يسترجعونها ويطردون عنها العدو الذي استباح
شواطئها.

- وناجي يا سي العِيَّاطِ؟

كان في نَبْرَتِها اتّهامٌ بالتّقصيرِ. نظرتُ إليه بِغَضَبٍ. كانَ أَمَلُها الوحيدَ.

- يحرّرُ مع الأرضِ يا بنتي.

- وماذا إذا أخذوه عَبْدًا إلى بلاد البُرْتغال، أو أعدموه انتقامًا.

أجسَهَا على الأريكةِ. أَمَرَ صَبِيًّا فجلب لها كأسَ بُرتقالٍ. تابعَ بَكرَ جوارِهُما في صمتٍ. «لو كنتُ أكبرَ بقليلٍ»، تأسَفَ. سأَلها العِيَّاطُ:

- هل فرطتُ في واجبِ يا ابنتي؟

- حاشى يا سي العيَّاط، غمرتنا بعطفك وكرمك.

- لا تحملي همًا، أعطيتُ لقائد الجيشِ وأجزلتُ له العطاءَ قبل أن يخرجَ الجيشُ من مَرابضِ فاسٍ. يأتونَ به بِقُدرةِ القادرِ عزَّ وجلَّ.

سارعتُ لِتُقَبِّلَ يَدَهُ، انتزَعَهَا.

- حاشى لله. هذا واجبُ الجيرةِ فلا تشكريني على واجب.

أحنى بَكرُ رأسَهُ. لن ينسى بقيَّةَ عُمرِهِ مَشْهَدَ أُمِّهِ التي التَقَمَتْ يَدَ التَّاجِرِ لَتُقَبَّلَهَا شُكْرًا على صَنِيعِهِ. غضِبَ، خرَجَ مِنَ المَحَلِّ وأضْرَبَ عَنِ الحَدِيثِ إلى أُمِّهِ أَيَّامًا.

- مالك يا بَكر؟

قالتُ لَهُ: أشاح عنها

- شنو؟ خير يا ابني؟

- لا تقبلي يَدَ رَجُلٍ أَيًّا كانَ ومَهْمَا يَكُن.

باغثَهَا بما قال. شعرتُ بِجُرْحِ غائِرٍ. مَسَّ بِمَا قال مكانًا حساسًا داخلها. ابتلعتُ
الصفحة رقم 188 من: 211 صفحة

ريقها. نظرتُ إليه كما لم تفعلُ من قبل:

- اسمع يا بَكر، أنا أمك، إنَّما وجبَ عليك أن تعلمَ أكثرَ من غيرك أن النَّاجي أعلى عندي من الدُّنيا
بما فيها، لا غالي يغلى عليه ولا عزيزُ أعزُّه فيه؛ أبيعُ روحي ولا أُندم.

عندما انتبهت إلى ما قالت فكّرت أنها ما كانت لتتردّد في فعل ما فعلت جارّتها لتَهَب السعادة والفرحة إلى زوجها.

مهمة فاشلة

- 53 -

أكلت السُّيُوفُ الْمُقاتِلِينَ البُرْتغاليينَ بلا شَفَقَةٍ. مزقت أجسادَهُم وما كان يُوسِعُ الشَّيْطانُ نَفْسِهِ أن يُفَرِّقَ بَيْنَ القَتِيلِ والقَتِيلِ. في قُلُوبِ الفاتِحِينَ كراهيةٌ عَمِرتُ دَهْرًا وِحَقْدٌ بليدٌ. مثَّلوا بِهِمُ ثمَّ مرَّوا فوق أجسادِهِم إلى شِوارِعِ الحِصْنِ. لم يَمْتَعُوهُم بِقتالِ عادِلٍ يَسْمَحُ لَهُم، كما تَمَنَّوا، بِمَوْتِ بَطُولِيٍّ ومُشَرَّفٍ. تَبَدَّدَ حُلْمُهُم بِمَعْرَكَةٍ يَنْحِنِي لَهَا العَدُوُّ قَبْلَ الحَلِيفِ.

سنتياغو، ذو الخمس عشرة ربيعًا، تهيَّبَ الموتَ في اللَّحْظَاتِ الأخيرة. رأى فُرسانَ جيشِ السَّعديينَ يَزْحَفُونَ بِعَمَائِمِهِم الصَّفراءَ وبرانيسِهِم البيضَ فانقَلَبَ هارِبًا. وَجَدَهُم أعظَمُ مِمَّا قَدَّرَ. لَمْ يَكُونُوا هُمُ الذين تَابَعُ من فوقِ الأَسوارِ في المَعاركِ التي خَلَّتْ. تراجَعَ خُطواتٍ ثمَّ أَدْبَرَ بِخَفَّةٍ قِطِّ، تَوَارَى مع أَقْرَبِ دَرْبٍ وأسْرَعَ إلى الميناءِ. فَكَّرَ في مَرْكَبِ الخَفَرِ، لَعَلَّهُ يُفْلِحُ في نَجْدَتِهِ. عِنْدَمَا انعَطَفَ مع الدَّرْبِ الثَّانِي قَدَّرَ حَجْمَ الخَطَأِ الذي اقْتَرَفَ. ما كان عليه أن يُحَارِبَ لأجلِ مَلِكِ البُرْتغالِ ونِصْفُهُ يَدِينُ بالولاءِ لِمَلِكِ إسبانيا. عَشِيقُ والدُهُ، الإسبانيُّ المُنحَدِرُ مِنْ طوليدو، فتاةٌ بَرْتغاليةٌ من لشبونة. انتَصَرَ لِحَبِيئِها رَغَمَ العداوَةِ الرَّاسِخَةِ بينَ الدَوْلَتَيْنِ. كَبُرَ الصَّبِيُّ وَكَبُرَ في داخِلِهِ الشَّرْحُ؛ لأَيِّ أُمَّةٍ يَدِينُ بالولاءِ، ما يَكادُ يَرَجِّحُ كَفَّةً حَتَّى يَنْقَلِبَ إلى الأخرى.

النَفَتَ إلى الخَلْفِ، لَمْ يَرَ في إثرِهِ جُنُودًا فانْتَعَشَتْ أَمالُهُ في الحِياةِ. تَرَكَ السَّيْفَ يَسْقُطُ ومضى يُسابقُ هِواجِسَهُ إلى الميناءِ. في الشِّوارِعِ الأخيرة التي تُفْضِي إلى البَحْرِ تَوَسَّلَ لِلرَّبِّ أن يَحْمِيهِ. انعَطَفَ عَبرَ مَعْبَرٍ فرعيٍّ وسَلَّكَ مَدخِلاً جَانِبِيًّا ثمَّ سارَ يَلْهَثُ إلى قَلْبِ الميناءِ. أعلامُ البُرْتغالِ لا تزالُ تَخْفِقُ. أشعَرَتْهُ النُّوارِسُ بشيءٍ من الطَّمائِنَةِ، تَوَقَّفَ لِحِظَاتٍ يَنْظُرُ إليها تَحَلَّقُ في أسرابٍ وتُغَيِّرُ على صَفْحَةِ المائِ لِتَصْطادَ السَّمَكِ. نزلَ الأَدراجُ. «أيسعُفني الوقتُ لأفكَّ الحِبالَ وحدي وأقلعَ بالمركبِ إلى المُحيطِ؟». سَيَحاولُ؛ كان القارِبُ أمله الأخيرَ.

تَخَلَّصَ جُنْدُ السَّعديينَ من كَتِيبَةِ البُرْتغاليينَ سَريعاً ونسوهُم. كانوا مَشغُولينَ بِنشوَةِ الانتِصاراتِ المتواتِرةِ وفَرَحَةِ دُخُولِ حِصْنِ تَمَنَعِ عَقُودًا طويلاً. وَجَدَ رِجالُهُمُ الأَسوارَ أَقلَّ قسوةً مِمَّا حَسِبُوا وأكثرَ تِواضِعًا وقد أَحْفَضَتْ لَهُمُ جِناحَ الدَّلِّ. تَدَقَّقَتِ الرِّيحُ مع الدُّرُوبِ خَفِيفَةً تَجْرِي كَمِياهِ في عَدِيرٍ ومالَتِ البِنائياتُ بِالظَّلَالِ تُرْحَبُ بِسَادَتِها الجُدُدِ. فَضَّلَ البَعْضُ أن يَجُوبَ كَلَّ الدُّرُوبِ والأحياءِ، وأَثَرَ كَثُرَ الوُقُوفِ على الأَسوارِ حيثُ كان جُنْدُ البُرْتغاليينَ يَتَبَجَّحُونَ بِأزيائِهِمُ النِّظاميةِ وَقُبَعاتِهِمُ المُرَكَّشَةِ. الإحساسُ بِالتَّفوقِ لَازِمَ الجَميعِ. أَدْنَى بَعْضِ المُقاتِلِينَ مِنْ فوقِ الأَبراجِ التي أُعْطِبَها

القَصْفُ وصلَّى آخرونَ على أطرافِهَا. كانوا فُخُورِينَ لِأَتَهُمْ حَازُوا شَرَفَ اسْتِرْجَاعِ أَرْضِ فَقَدَهَا
أجدادُهُم. سيُخَلِّدُ التَّارِيخُ ذِكْرَهُمْ وتَصِلُ أخبارُهُم إلى الشَّرْقِ والغَرْبِ.

وأصِيبَ جُنْدٌ مُنْدَفِعُونَ بالإحْبَاطِ. منى الكثيرُ مِنَ المُحَارِبِينَ أنْفُسَهُم بِسبَابِهَا
بُرْتُغَالِيَاتٍ يُرَيَّنَ بِهِنَّ أسْرَتَهُم. رحلتِ السَّاكِنَةُ، غادرتِ البُرْتُغَالِيَاتُ وأحْرَمُوا مِمَّا حَازَ غَيْرُهُم فِي
حُرُوبٍ أُخْرَى.

- خَسَارَةٌ، نَسَاءٌ وَهُم جَمِيلَاتُ.

قالَ عدنانُ المَرَّاشِي إلى صاحبه. كانا على فَرَسَيْهِمَا يَتَقَدَّمُهُمَا دَلِيلٌ من أَعْيُنِ الجَيْشِ. دخلَ الثَّلَاثَةُ
من البابِ الغَرْبِيِّ لِلْحَصَنِ كَمَا أَمَرَهُم القَائِدُ حَتَّى يُدْرِكُوا الفَاسِيَّ الأَسِيرَ. وَعَدَّهُم بِمِائَةِ دِرْهَمٍ فَضِيَّةً
إِنْ أَفْلَحُوا. أَضَافَ الرَّجُلُ الرَّاعِبُ فِي امْرَأَةٍ أوروْبِيَّةٍ يَحْرُثُ تُرْبَتَهَا:

- حُورُ الدُّنْيَا يا صاحبي لا حَرَمْنَا مِنْهُنَّ اللهُ لا على الأَرْضِ ولا فِي السَّمَاءِ.

لَمْ يَعلِقْ. تحدَّثَ رضوانُ بما يَجُولُ فِي صَدْرِهِ:

- مَهْمَةٌ على قَدْرِ وافرٍ من الغَبَاءِ. غادرتِ السَّاكِنَةُ وأخذتُ معها ما استطاعتُ. لن نُدْرِكَ لا الأَسِيرَ
ولا السَّيِّدَ.

اعترضَ الدَّلِيلُ الَّذِي يَتَقَدَّمُهُمَا:

- ولو سَيدِي رضوانُ. أخبارِي لا تُحْطَى. لَمْ يَرَكِبِ المُسَمَّى بيدرُو ولا المَرأةَ البُرْتُغَالِيَّةَ المَدْعُوءَةَ
صُوفِي السَّفِينَةَ الَّتِي أَقْلَعَتْ بِأَخْرِ أفْواجِ الهَارِبِينَ. الأَسِيرُ الفَاسِيَّ اسْتَمَرَ مَعَهُمَا فِي البَيْتِ.

ضربَ المَرَّاشِيَّ على ظَهْرِ فَرَسِهِ فَتَقَدَّمَ. تكلمَ إلى الدَّلِيلِ:

- إِذَا صَحَّتْ أخبارُكَ أَكرَمَتِكَ.

- ومَتَى أخطأتُ؟ مددتُ الجَيْشَ بَكلِّ ما يَلْزِمُ عَن البُرْتُغَالِيِّينَ عَدَدًا وَعُدَّةً وما جَانِبْتُ الصَّوَابَ يَوْمًا.
لولا يَ لَمَا تيسَّرَ دُخُولُ الجَيْشِ كَمَا رَأَيْتُ.

انشرَحَ صدرُ المَرَّاشِيِّ، تراجَعَ قليلاً إلى الخَلْفِ، همسَ فِي أذنِ زميلِهِ:

- أَتَنَزَّلُ لَكَ على المِائَةِ قِطْعَةٍ وَتُجِيزُ لي امْتِلاكَ المَرأةِ البُرْتُغَالِيَّةِ. ما قولُكَ؟

- لا وقتَ لنتفاوَضَ في أمرٍ لم نُدرِكْهُ بعد يا عدنان.

- وأزِيدُكَ فوقَهَا خمسينَ قطعَةً أخرى بطيبِ خاطرٍ يا رضوان. حلال عليك.

مرّةً أخرى يُلاحظ رضوانُ ذلكَ الفَرْقَ الذي ما فتئ يتعاظَمُ بين العالمَيْنِ؛ أوّلُ غربيٍّ يُجيدُ البناءَ ويُنقِصُ الصنَائِعَ، ويبدعُ العجائبَ، وثانٍ شرقيٌّ يتراجَعُ إلى الخلفِ ويغرَقُ أكثرَ في صرَاعَاتِ الحُكْمِ والقبيلةِ والعرقِ وأحكامِ الطّهارةِ وأنواعِ التّكاحِ. أعجبتُهُ الشّوارِعُ البهيجَةُ وأعمدَةُ الإنارةِ البديعةُ بفوانيسِها الفخمةِ التي تتدلى كعناقيدِ العنَبِ وألّق شُرُفاتِ البُيوتِ وزخارفِ النّوافذِ الواسعةِ. «نصُرُ زائفٌ»، قدَرَ. على خلافه استمرّ المرّاكشيّ يحلم بامرأةٍ بيضاء؛ بياض التّلج، مُمدّدةً على سريره، يأتيتها حتّى الشّبع.

- بل أعطيك مائةً كاملةً فلا تعانِدْ فتخسرَ صاحبك.

دوّتِ المدافعُ تحتفلُ بالنّصرِ احتفاءً باستردادِ الأرضِ المسلوبةِ. كانتُ أشبهَ بقذائفِ أيامِ الصّيّامِ وعيدِ الفِطْرِ، يتلقّفُها الصّائمونَ بالهفّةِ إلى الشّهواتِ.

- نُدرِكُهما أوّلاً ثمّ نرى يا عدنان؛ على قدرِ جمالِها تدفَعُ، لعلّ قطعَ الفِضةِ تصيرُ ذهبًا.

«لأقتلُك يا وحيدَ أمّه فلا تطالُ فِضةً ولا ذهبًا»، قال المرّاكشيّ في نفسه وأسرعَ على فرسه يتأبّطُ النيةَ في العَدْرِ.

بيدرو / الناجي

- 54 -

أخطأ بيدرو التقدير لحظة سهو. تقدّم خُطوتين يحملُ المدراة وأهمَلَ البندقيةَ على الطاولة. عندمَا انتبَهَ إلى خَطئِهِ المُميتِ كان وقتَ النَّدَارِكِ قد فات. تسمَّرَ في مكانِهِ لحظةً يختبرُ حدْسًا لا يُخطئُ. الرِّصاصةُ الأولى التي اخترقتُ ظهرَهُ مزقتُ جانبًا من بَطْنِهِ. استدارَ يَحْمِلُ المِدْرَاةَ جاحِظَ العَيْنَيْنِ. تداخلتُ في خلدِهِ أفكارٌ بأفكارٍ واعتصرتُ أزمِنَةً وعوالمٌ لا حصرَ لها. رأى وَجْهَ أمِّهِ عابِسًا وسمعَ قهقهاتِ زَوْجِهَا تتردّدُ كالصدى. كابرَ ليبتسمَ في وَجْهِ صُوفِي. لا تزالُ فاتنةً رَغَمَ مرارَةِ الموتِ. تركَ المدراةَ تسقطُ:

- شكّرًا صُوفِي.

- اشكُرْ عرَبَةَ البريد.

مَعَ الطَّلقةِ الثَّانيةِ تداعَتِ الابتسامَةُ. تمنى ساعةً واحدةً ليمرَّغَ وَجْهَهُ في صدرِهَا ويشمَّ رائحةَ شَعْرِهَا. جاهدَ ليحرِّكَ لِسَانَهُ، خانتهُ قدماءُ، ترنَّحَ، ثمَّ مالَ بِبُطْءٍ وسقطَ على العُشبِ وبين الرُّهُورِ التي تعهَّدَ على مدى السنين.

ألقَتُ صُوفِي البندقيةَ على الطاولةِ وأسرعَتُ لتفكِّ قَيْدَ الناجي.

- هيا، اتبعني يا ناجي.

رَحَفَ بيدرو بِمَشَقَّةٍ على العُشبِ، مدَّ يَدَهُ إلى الطاولةِ، أمسَكَ البندقيةَ، سحبها إليه. كانا قد انزلقا عبْرَ البابِ. ضاقتُ أنفاسُهُ في السَّماءِ تراقصتِ السُّحُبُ، تدافعت، ثمَّ أخذتُ تنفكُّ. شعرَ بِجَسَدِهِ يغرقُ، بالأرضِ تنخسفُ، وأنفاسِهِ تضيقُ.

- بيدرو، بيدرو، تعال يا بني.

- أنا؟

- نعم، أنت.

- تسامحيني؟

- أوه، كلا، سامحني أنت. أهملتكَ كثيرًا وأذيتكَ.

- لكنني قتلتك يا أمي.

- لست أنت، إنه الربُّ يُطَهِّرُ المرءَ من خطاياها يا بيدرو فلا تبتئس. تعال، لا تخشَ شيئاً، أنا هنا لأساعدك.

رأى وجهها يُطلُّ عليه. من فوق لآح سَعَفِ النَّخِيلِ تدفعُهُ الرِّيحُ.

- أمي، هل توجدُ حياةٌ أخرى؟

وكان الصَّوتُ صوتَ الطِّفْلِ.

- لا تسألْ يا بُنَيَّ، انتهى زَمَنُ السَّوَالِ، لك الآن أن تعرف كلَّ شيءٍ، معرفةً منزَّهةً من شُبُهَةِ الشُّكِّ؛ إنَّه اليقِينُ.

الصفحة رقم 193 من: 211 صفحة

الكذبة

- 52 -

مشغولة البال، مقبوضة الصدر، كَنَسَتْ غِيْثَةَ البُهْوِ بالكاملِ. «خير يا غِيْثَةَ، إن شاء الله خير، بإذن ربِّ العالمين خير»، حاولتُ أن تُهدِّيَ نفسها. وضبتُ مريضَ النَّعْجاتِ، ملأتِ الطَّسْتِ الكبيرَ بالحليبِ، ورمتِ الحُبُوبَ للدَّجاجِ. عبَّرَ شُبَّانُ القَوْنِ والألواحِ تطلَّعتُ إلى الدِّيَكِ المُزْرَكِشِ. سمنَ كثيرًا ولمَّ يعد النَّاجي بعد. تركتِ الدِّيَكِ يسمنُ لثُعدِّ به وليمَّة «الرفيسة» يوم يَزْجَعُ. أحبَّ النَّاجي نُتْفَ الخُبْزِ المَسْقِيِّ بمزقِ الدَّجاجِ والحلْبَةِ والفُولِ اليباسِ والعدسِ والبَصْلِ. يأكلُ ولا يَشْبَعُ. «يرحم والديك يا غالية وتسلم يديك»، يقول لها. ليلا لا بُدَّ أن يضاجعها بِنَهْمٍ. الحلْبَةُ تجعلُهُ أكثرَ رغبةً وشراسةً ودققاً.

يُطْرَبُهَا لَهَاثُهُ فَوْقَ جَسَدِهَا. تُدَاعِبُ وَجْهَهُ، تُدَسُّهُ بَيْنَ نَهْدَيْهَا. يَهِيْجُ،
يَصِيرُ إِلَى ثَوْرٍ، ثُمَّ يَخْبُو كَالنَّارِ دُونَ أَنْ يَخْمَدَ عَشْقُهُ الْفَوَّارِ. رَائِحَةُ عَرَقِهِ تُشْعِرُهَا بِالْأَمَانِ. يَسْتَحِمُّ
وَيَتَمَدَّدُ إِلَى جَانِبِهَا. يَنَامُ فَتَرَى وَجْهَ الطِّفْلِ. تُغَطِّيهِ، تُعَدِّلُ الْمَخْدَةَ تَحْتَ رَأْسِهِ، وَتَطْمِئِنُّ لَوْضِعِيَّةٍ
ذِرَاعِهِ حَتَّى لَا يُوجِعَهُ وَهُوَ يَسْتَيْقِظُ صَبَاحًا. تَشْكُرُ اللَّهَ. النَّاجِي أَجْمَلُ مَا حَصَلَ فِي حَيَاتِهَا. تَقْبَلُهُ كَمَا
تَقْبَلُ طِفْلًا فِي الْمَهْدِ ثُمَّ تَهْجَعُ إِلَى جَانِبِهِ إِلَى أَنْ يَسِيلَ ضَوْءُ الصَّبَاحِ فَتَنْهَضَ لِأَشْغَالِ يَوْمِهَا.

«كُنْتَ رَاضِيًا عَلَى النَّصِيبِ وَمَا قَسَمَ اللَّهُ، أَخَذَكَ الْبَشِيرُ فِي يَدِهِ، عَادَ دُونَكَ، تَخَلَّى عَنْكَ وَعَنِّي.»
تَتَأَسَّفُ، بَاتَ النَّاجِي ذَكَرَى بَعِيدَةً. طَالَتِ الشُّهُورُ، شَقَّ عَلَيْهَا الْإِنْتِظَارُ، وَبَاتَتْ أَحْلَامُهَا أَمَانِ هَارِبَةً
وَمُتَمَنِّعَةً.

تَنْهَدَتْ: «اللَّهُ غَالِبٌ». وَلَدَاهَا لَا زَالًا نَائِمَيْنِ. اعْتَادَا عَلَى غِيَابِ وَالِدَيْهِمَا وَمَا عَادَا يَذْكُرَانِهِ إِلَّا لِإِمَامًا.
أَمَّا بَكْرٌ فَيُرَابِطُ فِي مَحَلِّ الْعِيَّاطِ وَقَدْ بَاتَتْ كُلُّ أَحَادِيثِهِ عَنِ السِّلْعِ وَالْمَالِ وَالْمُعَامَلَاتِ. صَارَ رَجُلًا.
يَشْرَبُ الشَّايَ لُرُومًا بَعْدَ الْعِشَاءِ وَلَا يَنَامُ إِلَّا إِذَا تَوَضَّأَ وَصَلَّى. عَلَى خِلَافِ صَغِيرَيْهَا يَسْتَيْقِظُ فَجْرًا
وَيَنَامُ بَاكِرًا. يَذْكُرُهَا بِالنَّاجِي وَهُوَ يَبْتَهَلُ. تَعْرِفُ أَنَّهُ يُقَلِّدُ أَبَاهُ. «طَيِّبٌ وَصَادِقٌ مِثْلُ النَّاجِي»، تَقُولُ
فِي نَفْسِهَا. تَسْتَدْرِكُ: «لَكِنَّهُ أَكْثَرَ حِظًّا».

رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَى نَافِذَةِ جَارَتِهَا. عَذَلَتْ أُمَّ الْغَيْثِ عَنِ الدَّفْعِ الدَّفْعِ مِنْذَ عَادَتْ إِلَى الْبَيْتِ حُبْلَى. نَسِيَتْ
رَائِحَةَ الْمِعْزَاتِ وَنَقِيقَةَ الدَّجَاجِ. مَعَ الْحَمْلِ تَبَدَّلَتْ. الْحَيَاةُ تَتَغَيَّرُ أَسْرَعَ مِمَّا تَحْتَمِلُ. قَلْبُهَا مَعْلَقٌ
بِالْمَاضِي.

- فِينِ أَصْدَى يَا أُمِّي؟

فَكَّرَتْ أَنْ تَعْجَنَ. سَتَسْتَفِيقُ أُمَّ الْغَيْثِ فَيَكُونُ عَلَيْهَا أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهَا. لَا بُدَّ أَنْ تَتْرَكَ الْخُبْرَ لِلْأَوْلَادِ.
يَدَاهَا ثَقِيلَتَانِ، بِالْهَذَا مُشَوَّشٌ، وَبَدْنُهَا مُنْهَكٌ. إِحْسَاسٌ بِالضَّعْفِ يُثَبِّطُ هَمَّتَهَا.

- أَعُوذُ بِاللَّهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ خَيْرًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

جَلَسَتْ عَلَى عَنَبَةِ بَابِ غُرْفَتِهَا. الْهَوَاءُ دَافِيٌّ. الرِّيحُ تَدْفَعُ فَصَلَ الصَّيْفِ إِلَى
جَافٍ. لَوْ سَفَاهُ الرَّجُلُ الْوَاقِفُ كَمَلَكَ مَوْتٍ دَمَا لَكَانَ أَرْحَمَ لَهُ.

- صُوفِي الْجَمِيلَةَ.

انْحَنِى الْمُرَاكَشِي، اقْتَرَبَ مِنْهُ.

- نَعَمْ، صُوفِي الْجَمِيلَةَ.

ردّ بيدرو بصوتٍ متقطعٍ وخفيضٍ:

- إلى الميناء. أدركها.

كان رضوانُ البوعناني قد فتّشَ البيتَ كلَّهُ ولم يجدَ للأسيرِ الأثر. «بيتٌ بديعٌ»، فكرّ. ثمّ سار على المسارِ المبلّطِ بالحجارةِ الصّقيلة، بين الورودِ المشدّبة، إلى الباب. ما التفتَ إلى البُرتغاليِّ الجريحِ.

- مهمّة على قدرٍ وافرٍ من الغباء.

قال رضوانٌ يؤكّدُ موقفَهُ السّابق. ثمّ جاز العتبةَ إلى الشّارع. فكّر أنّ معركةَ تحريرِ الحصنِ قد انتهتُ وأنّ الفائذ لا بدّ أن يتركه ليعود إلى «دبدو» التي في أقصى شرقِ البلادِ ليطمئنّ على أمّه. امتطى حصانَهُ. من فجوةِ البابِ تابَعَ زميلُهُ يهمسُ في أذنِ البُرتغاليِّ المُحتضِر.

انحنى المُراكشيّ على الجريحِ:

- سأكافئك على طريقي، أغضُّ الطّرف على توصياتِ قادة الجيش وأتركك لتموتَ على مهلٍ.

انتصبَ المُراكشيّ، سارَ بخطواتٍ عَجَلَى ليلحِقَ امرأةً راودتُ أحلامَهُ منذُ الصّبا. في عتبةِ البابِ المفتوحِ تلقّفهُ الموتُ. صادهُ بيدرو برصاصةٍ غادِرةٍ. كان المُراكشيّ القتيلُ الأخيرَ لجيشِ السّعديينِ في الحصنِ. تركَ بيدرو البندقيةَ تستكينُ على العُشبِ الباردِ، ابتسمَ ببلاهةٍ ينظرُ إلى اللاشيء. شعرَ بحسَمٍ يربضُ فوق صدّره. غاصتْ أطرافُ صغيرةٍ بمخالبِ حادّةٍ في أمعائه. أيقنَ أنّهُ القَطُّ الشّيقُ يَبْحَثُ عن فتحةٍ إلى قلبِهِ. سَجَرَ مِنْ نَفْسِهِ، من الدنيا، ثمّ انطفأَ يمتصّه الزّوالُ.

- إنّها زوجتي سيّدي.

قال النّاجي للجُندي بلسانِ مغربيّ لا لبس فيه. أخفضَ الجُنديّ كتفَهُ الأيسرَ، مال بشيءٍ من سخرية، وأشار له بأصبعِ اليَدِ اليمنى يجمع بين التّشكيك والتّهديد:

- كيف تكونُ زوجتكُ وقد جاءتْ إلى الميناء لتهرب إلى بلدها؟

- جنّتُ لألحقها، وها قد فعلتُ.

حاولَ الجُنْدِيّ أن يَلْتَفِّ. أرادها لنفسه. اعترضتُ بقيةَ الجُنْدِ.

- إنّه مُسَلِّمٌ يا عبدَ الباسطِ وليسَ مِنّا من يَنْتَهِكُ حرمةَ أخيه.

بُهتَ وانكفاً. تواترتِ الكلماتُ تَطْمِئِنُ النَّاجِي:

- خذِ زَوْجَتَكَ وَسِرِّي فِي أَمَانِ اللَّهِ، مَا دَخَلْنَا الْحَصْنَ لِنَكُونَ بِلَاءَ عَلَى إِخْوَانِنَا.

انحنى لَهُم:

- شكرا إخوتي.

أمسك النَّاجِي صُوفِي من يدها وسحبها أَمَامَ الجُنْدِ كما يفعلَ رَجُلٌ غَاضِبٌ مِنْ زَوْجَةٍ خَرَجَتْ عَنْ طَاعَةِ زَوْجِهَا. صرّخ في وجهها:

- قَسَمًا بِاللَّهِ لِأَحْزَ عُنُقِكَ إِنْ عَدْتَ لِهَذَا. لَا أَرْضُ لَكَ غَيْرَ هَذِهِ الْأَرْضِ وَلَا رَجُلَ غَيْرِي. إِنْ رَضِيتَ بِهَذَا فَلِكِ بِمَا رَضِيتَ، وَإِنْ لَمْ تَرْضَ فليسَ لَكَ عِنْدِي غَيْرَ الشَّقَاءِ.

سَارَا عبرَ الرَّصِيفِ إِلَى سَاحَةِ المِينَاءِ ثُمَّ انزَلَقَا عبرَ البَابِ الكَبِيرِ حَيْثُ تَدَقَّقَتْ رِيَاخُ يَوْمٍ جَدِيدٍ وَمَخْتَلَفٍ عَنِ بَاقِي الأَيَّامِ.

خَرَجَتْ صُوفِي مِنَ المِينَاءِ لَا كَمَا دَخَلَتْ. كَانَتْ القُوْيَّةَ وَهَا قَدْ تَبَدَّلَ الحَالُ فَصَارَتْ فِي عَهْدِيهِ بَعْدَمَا كَانَ فِي عَهْدِيهَا. مَدَّ يَدَهُ، أَمْسَكَهَا بِشِدَّةٍ عَلَى يَدِهَا. غَدَا السَّيِّدِ. سَكَنَ نَاقُوسُ الكَنِيسَةِ أُخِيرًا وَظَهَرَ الرَّاهِبُ بلباسِ الرَّهْبَانَةِ فِي البَابِ العَرِيضِ. عِنْدَمَا التَقَّتْ عَيْنُهُ بَعَيْنِي صُوفِي رَسَمَ شَارَةَ الصَّلِيبِ. بَدَأَ هَادِنًا وَسَاكِنًا كَمَا فِي كُلِّ الأَيَّامِ.

- ليحفظك الربُّ.

تَوَقَّفَ النَّاجِي، التفتَ إِلَى الرَّاهِبِ. قَالَ لَهُ:

- ادخُلِ إِلَى الكَنِيسَةِ سَيِّدِي وَلَنْ يَلْحَقَكَ أَدَى.

ابتسمَ الرَّاهِبُ الَّذِي ظَلَّ فِي مَكَانِهِ:

- الرَّبُّ نُورِي وَخَلَاصِي، مِمَّنْ أَخَافُ؟ الرَّبُّ حِصْنُ حَيَاتِي، مِمَّنْ أَرْتَعِبُ؟

ابتعدا. في الطَّرِيقِ إِلَى الْبَيْتِ، سَمِعَا صَوْتَ الْأَذَانِ. مَا كَانَ أَوْانُ الظُّهْرِ قَدْ بَلَغَ. «أَذَانُ الْاِمْتِنَانِ وَالشُّكْرِ»، فَكَّرَ النَّاجِي. صَوْتُ نَاقُوسِ الْكَنِيسَةِ الَّذِي عَادَ لِيَرِنَّ أَشْعَرَ صُوفِي بِالْأَلْفَةِ. تَمَنَّتْ أَنْ يَبْقَى النَّاقُوسُ إِلَى الْأَبَدِ وَيَسْتَمِرَّ الرَّاهِبُ فِي كَنِيسَتِهِ لِيَسْتَقْبَلَ الْمَسِيحِيَّيْنَ.

التَفَتَتْ إِلَى النَّاجِي:

- يُرْضِينِي أَنْ تَكُونَ زَوْجًا لِي. لِنُكْمَلِ سَوِيًّا مَا ابْتَدَأْنَا فِي بَيْتِ بِيَدْرُو يَا نَاجِي. لَنْ أَفَكِّرَ فِي الرَّحِيلِ إِلَى الْبُرْتِغَالِ مَا دُمْتُ مَعِي.

- أَنَا مَتَزَوِّجٌ يَا صُوفِي. تَعْلَمِينَ. أَخْبَرْتِكِ فِي أَيَّامِي الْأُولَى، وَلِي ثَلَاثَةُ أَطْفَالٍ يَنْتَظِرُونَ عَوْدَتِي فِي فَاسِ.

- أَنْقَدْتِكِ مِنَ الْمَوْتِ. لِي حَقٌّ عَلَيْكَ يَا نَاجِي. لَعَلِّي الْأُولَى.

- وَأَنْقَدْتُكَ مِنَ السَّبْيِ. كُنْتُ لِنَشْفِي بَيْنَ الْجُنُودِ وَفِي أَسْوَاقِ النَّخَاسَةِ يَا صُوفِي.

نَظَرْتُ إِلَيْهِ. تَغَيَّرَ بَدْوُهُ سَرِيعًا، كَكُلِّ شَيْءٍ، صَارَ أَصْلَبَ فِي تَعَاطِيهِ مَعَهَا. وَجَدْتُ فِي النَّدِيَةِ الطَّارِئَةَ تَتَكَرَّرُ لِنُضْحِيَّاتِهَا. لَا يُمْكِنُ لِلرَّجُلِ الَّذِي أَحَبَّتْ أَنْ يَخْذِلَهَا. سَأَلْتُهُ:

- أَلَمْ تَحَبِّبْنِي يَا نَاجِي؟

- بَلَى، فَعَلْتُ.

- لَمْ تَكَابِرْ لِتَهْرَبَ مِنِّي؟

- زَوْجَتِي يَا صُوفِي، زَوْجَتِي.

تَوَقَّفْتُ، قَابَلْتُهُ تُمْسِكُ كِلْتَا يَدَيْهِ. شَعْرَ بِالْدَمَاءِ تَتَدَقَّقُ، بِالرَّغَبَةِ تَشْتَعِلُ، وَبِإِحْسَاسٍ حُلُوٍّ؛ بِجَسَدِهِ خَفِيفًا يَطْفُو. لَا يُمْكِنُ لِلرَّيْحِ أَنْ تَكُونَ أَعْدَبَ، وَلَا لِنُورِ الشَّمْسِ أَنْ يَكُونَ أَلْطَفَ وَأَرْحَمَ، وَلَا لِلْأُنثَى أَنْ تَكُونَ أَرْقَى وَأَجَلَّ.

- لِنَعِشْ هُنَا سَوِيًّا؛ أَنَا وَأَنْتِ. سَأَقْبَلُ بِالْبَقَاءِ مَعَكَ، أَنَا أَنْسَى بِلَدِي الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ وَتَنْسَى أَنْتِ زَوْجَتَكَ، نَجُوتَ مِنَ الْمَوْتِ وَسَلَمْتُ مِنَ السَّبْيِ. وُلِدْنَا الْيَوْمَ يَا نَاجِي، لِنَعِشْ بِلَا مَاضٍ. أَنَا لَكَ وَحَدَاكَ

وأنت لي وُحدي.

مأخوذاً بما قالت همسَ في أذنها:

- لِنَمُضِ إِلَى الْبَيْتِ.

بَدَتْ فِكْرَةَ الْبَيْتِ جَمِيلَةً جَدًّا. مَثِيرَةٌ وَشَهِيَّةٌ. رَأَتْ نَفْسَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، لَا كَمَا كُلُّ الْمَرَّاتِ. سَتَنَادِيهِ أَسْوَةً
بِالْمَغْرِبِيَّاتِ، احْتِرَامًا وَتَلَطُّفًا: «سَيِ النَّاجِي». وَيَأْتِي إِلَيْهَا كَرَجُلٍ حَرٍّ، بِكَامِلِ أَهْلِيَّتِهِ، وَيَقْبَلُ عَلَيْهَا
إِقْبَالَ الْعَطْشَانِ عَلَى الْمَاءِ. حَرَّكَتْ رَأْسَهَا:

- لِنَمُضِ إِلَى الْبَيْتِ سَيِ النَّاجِي.

العيّاط / غيثة

- 55 -

لَمْ يَبْلُغْ أَوَّانَ الظَّهْرِ بَعْدَ، لَكِنَّ شَمْسَ فَاَسَ كَانَتْ حَارَّةً تَحْرِقُ. بَدَا الجُّوْ خَانِقًا. بِالكَادِ أَمَكْنَهُ أَنْ يَتَنَفَّسَ.
فِي صَدْرِهِ كَانَتْ النَّارُ تَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ.

مَا كَانَ ضَعِيفًا فِي أَيِّ وَقْتٍ مَضَى كَمَا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ.

«أَنَا أَحْتَرِقُ، أَغِيثِنِي»، قَالَ فِي نَفْسِهِ. بَيْنَ رَجُلٍ «زَوَاغَةٌ» الْمَرِّحِ وَهَذَا مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ. نَاءَ ظَهْرُهُ
وَعَادَ الْعَمُّ لِيُرْسِمَ الْهَالَاتِ الزَّرْقَاءَ وَالشُّحُوبَ عَلَى وَجْهِهِ.

«ضَعَّ عِنَاكَ حَمَلِكَ الَّذِي سَيَقْسِمُ ظَهْرَكَ»، قَالَتْ غَيْثَةٌ تَحْمَلُ فِيهِ. عَادَتْ لِتَسْحَرَ مِنْ نَفْسِهَا هِيَ الَّتِي
لَمْ تُفْلِحْ فِي وَضْعِ حِمْلِ النَّاجِي عَنْ ظَهْرِهَا يَوْمًا أَوْ بَضْعِ يَوْمٍ. اسْتَدَارَ الرَّجُلُ، نَظَرَ إِلَى الْبَابِ، أَشَارَ
بِأَصْبَعِهِ إِلَى الْعَتَبَةِ:

- تَعْلَمِينَ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ الْبَيْضَ وَالْحَلِيبَ وَيَتْرُكُ الدَّرَاهِمَ بَدَلًا عَنْهَا كُلَّ صَبَاحٍ؟

فَاجَأَهَا السُّؤَالُ. ارْتَبَكَتْ. حَزَّ فِي نَفْسِهَا أَنْ تَتْرَكَ الرَّجُلَ الَّذِي أَكْرَمَهَا يَتَعَدَّبُ. تَنَهَّدَتْ:

- أَلِكُلِّ هَذَا الْوَقْتِ يَا عِيَاطُ؟

- مَا ذَهَبْتُ يَوْمًا إِلَى الْمَحَلِّ إِلَّا وَأَخَذْتُ الْبَيْضَ وَالْحَلِيبَ. أَضَعَّ الدَّرَاهِمَ وَأَعْطَيْتُ مَا حَمَلْتُ مَعِي
لِلْمَسَاكِينِ. أَخَذَهَا مِنْكَ وَأَتَصَدَّقُ بِهَا عَسَى اللَّهُ يَجْعَلَ مِنْ حَسَنَاتِهَا شِفَاعَةً لِرُوحِكَ فَيَعُودَ إِلَيْكَ سَالِمًا.

رَفَعَ وَجْهَهُ إِلَى السَّمَاءِ. تَصَبَّبَ عَرْقًا. بَدَا وَهُوَ يَخْفِضُ رَأْسَهُ مِثْلَ نَسْرِ هَرِمٍ وَمَرِيضٍ. تَحَدَّثَ
بِاسْتِعْطَافِهَا:

- يَرْضِيكَ أَنْ يِنَالَ الْأَعْرَابُ مِنْ عَرْضِي؟ يَرْضِيكَ أَنْ يَطَالَ الدَّنَسُ شَرْفِي؟

سَقَطَ عَلَى رِكْبَتَيْهِ فَاتَّجَهَتْ صَوْبَهُ رُؤُوسُ الْمَعْرَاتِ. صَمْنَتْ الدَّجَاجَاتُ فِي الْقَنَّ وَرَفَرَفَتْ طُيُورٌ
كَانَتْ عَلَى جَنَابَاتِ السُّورِ. أَلَمَهَا أَنْ تَرَاهُ مُنْكَسِرًا. تَرَكَتْ يَدَهَا الَّتِي عَلَى فَمِهَا تَرْتَخِي.

- حرام عليك يا سيدي تؤذي نفسك.

- أذلني الشك يا غيثة، قهرتني الوسوس يا بنتي فارحميني.

- قم يا سيدي، انهض، لا شيء يستحق.

«انهض، لا شيء يستحق»، ذكرتُه الكلماتُ بالعباراتِ التي رددَها عليه النَّاسُ في سنِّ السادسةِ، عندما أُفجِعَ بموتِ والديهِ في الحريقِ الذي شبَّ في البيتِ. كلَّ الذينِ واسوهُ ودعوهُ للنَّهوضِ تركوهُ يُجَابِهُ العالَمَ وحدهُ. «غيثةُ لن تخذلني». ساعدتهُ لينهَضَ فاستجابَ لها. نفضتُ عن جلابيهِ العُبَارَ الذي علق. «انكسارُ الرِّجالِ بعدِ عِزِّ عَسيرٍ»، فكَّرتِ. عدلتُ ملايسهُ كما كانت تفعلُ مع والدِها وَهُوَ يَخْرُجُ إلى صلاةِ الجَماعَةِ في مساجِدِ أسفي البديعةِ. أكبرَ فيها
الصفحة رقم 198 :من: 211 صفحة

- نُدرِكهُما أوْلا ثم نرى يا عدنان؛ على قدرِ جمالِها تدفَعُ، لعلَّ قِطْعَ الفِضَّةِ تصيرُ ذهبًا.

«لأقتلك يا وحيدَ أمهٍ فلا تطلُ فِضَّةً ولا ذهبًا»، قال المرَّاكشي في نفسهِ وأسرعَ على فرسهِ يتأبَّطُ النيةَ في العَدْرِ.

استدارَ العياطُ في صمتٍ، ومضى. سارَ إلى العتبةِ، دفعَ دقَّةَ البابِ، ثم مشى يقصدُ جامعَ القرويينَ ليصلي.

«للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ».

غَيْثَةٌ

- 56 -

عادَ الجَيْشُ الذي حَرَّرَ الحِصْنَ، وَطَرَدَ البُرْتِغَالِيينَ، وَلَمْ يَعْذِ النَّاجِي.

المِغَارِبَةُ المُهَلَّلُونَ بالنَّصْرِ كانوا يَحْلُمُونَ بالمَعَارِكِ الكُبْرَى؛ بِمُقَارَعَةِ التُّرْكِ والجَوَازِ عِبْرَ الجَزَائِرِ
إلى تونس ومصرَ لِدْفَعِ العُثمانيينَ إلى الديار التي قَدِمُوا منها.

وقفتْ غَيْثَةٌ بَيْنَ الحُشُودِ، على مَقْرَبَةٍ من مَدخَلِ بابِ الفُتُوحِ، تتطلَّعُ في وُجُوهِ العائدينَ. لَمْ تَأْبَهُ
لِنَصِيحَةِ العِيَّاطِ الذي جاءَ إليها يَسْتَبِقُ دُخُولَ الجَيْشِ:

- يَدْخُلُ الجَيْشُ اليَوْمَ يا غَيْثَةُ، لعلَّ النَّاجِي يكونُ بَيْنَ العائدينَ.

- يَعودُ يا سي العِيَّاطُ، يَعودُ إن شاء اللهُ.

كانت هَذِهِ المَرَّةَ أَكْثَرَ تَفاوُلًا. تَفاوُلَها المَفرطُ أَرْبَكَ العِيَّاطُ. لَنْ يَبِيَعَهَا أَوْ هَامًا. يَخْشَى عليها مِنْ هَوْلِ
الخَيْبَةِ. أَحْجَمَ عن مُسَايَرَتِهَا. تَحَدَّثَ بِبُرُودٍ:

- كُلَّ الخَيْرِ عند ربِّ العالمينَ، لعلَّهُ يَعودُ فَتَفْرَحينَ ونَفْرَحَ معكَ.

- اللَّيْلَةَ يَرُفُدُ في فرَشَتِهِ وبيِّنَ أولادِهِ يا سيدي. أَلَمْ تَعِدْني أَنْ يَرِجِعَ مَعَ الجَيْشِ؟ أَلَمْ تَقُلْ إِنَّكَ أَجْزَلْتَ
العطاءَ للقائِدِ كي يَبْذَلَ المَجْهُودَ؟

- بلى، فَعَلْتُ.

- جاي، راجِعْ مَعَ الجَيْشِ، قَلْبِي يُخْبِرُني؟

- العلمُ عند اللهُ يا بنتي.

لَمْ تَلْتَقِ كُلَّ الرِّسائِلِ التي أُرسلَ لها العِيَّاطُ. «لَوْ عَنَرُوا عَلَيهِ لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ يَعلَمُ يا بنتي». سَيَنْزُكُهَا. لا بُدَّ أَنْ تَتَقَبَّلَ الأمرَ. رَفَعَ يَدَهُ يُحَدِّثُهَا:

-إنما اجتنبى الخروج إلى باب الفتوح يا بنتي. أولاد الحرام كثر. يكثر التدافع واللغط والعابثون وتمتد يد الحرس بالسياط فلا تفرق بين كبير وصغير ولا بين رجل وامرأة. الزمي بيتك يا غيبة أكرم لك ولأولادك. الناجي إذا عاد يعرف طريقه إلى داره.

«الزم بيتي؟ أخطأت التقدير سيدي؛ خاتك جس التاجر الشاطر. كيف لي أن أفعل أنا التي انتظرت عودة الناجي شهورًا طويلة؟ من ينلهف للعديد يتطلع إلى طلوع الهلال بغيون مفتوحة.

تركت ولديها في عهدة جارتها الحامل وذهبت إلى الحمام، فركت جسدها جيدًا ولينت جلدًا بالزيوت وسرحت شعرها ورطبته بالعسول. مع كل حركة تحلم بيد زوجها تتحسس جسدها. وسط الضباب وهرج النساء سمعت الزغاريد والتهاني. تركت قفة الملابس في مستودع الحمام وقصدت باب الفتوح رأسًا.

على الأسوار كان رجال بكسوة مخزنية يقرعون الطبول وكان آخرون يحملون أعلامًا كبيرة تخفق كأشعة.

ثم هدرت المدافع ثعلن ووصول طلائع الجيش للأسوار. اندفعت الجموع أكثر واشربت الرؤوس بفضول تتطلع وحفت اللغط وشخصت العيون.

«حيد بلاك»، صرخ الحرس في وجوه المندفعين ثم أعملوا السياط. تراجع الحشود بمقدار ما يكفي لمزور مقدمة الجيش. دخل القادة وأمراء الجيش يكلمهم بهاء الانتصار. مالت الرايات وخفت الألوية مع الريح، وفرعت الطبول بصخب واحد.

ما أشبه اليوم بالأمس. من نفس الباب دخلت جيوش المرينيين قبل زمن وأقبلت عليها ساكنة المدينة بالتهليل والنصر. مالت لهم الألوية وفرعت الطبول احتفاء، ثم انقلب الزمن، فاستقبلت الأبواب نفسها أعداء الأمس بالزغاريد والترجيب.

مر الخيال في صفوف منتظمة. الخيل بدورها بدت مختالة، تعرف بغريزتها أنها تحمل المنتصرين. عندما ظهر المشاة تساهل الحرس فسمحو للمتجمهرين أن يقتربوا أكثر. تزاومت غيبة مع الفضوليين. ما همها أن يحتك جسدها بأجساد الرجال. اندفعت وقالت بصرابة وصولاً إلى الصفوف الأولى. كان بإمكانها أن تمد يدها وتلامس العابرين. نظرت بين الوجوه، لم تفوت لحظة. استمرت بقطعة كصفر. لا بد أن تكون أول من يرى الناجي يعود إلى المدينة التي غاب عنها فسراً. رأت فرحة نساء بعودة أزواجهن سالمين من الحرب. كن يلوحن وفي ظهورهن الأطفال ويصرخن بأسماء أحببهن وتابعت خيبة نساء قتل رجالهن وصرن تكالي في مستهل الطريق.

الفرحُ حدَّ الجنونِ والخيبةُ حتى اليأسِ، تهاني وتباريكُ ومواساة. فهقهاتُ وانتحابُ.

تَبَعَ الفُضولِيُّونَ العَرَباتِ الأَخيرةَ للجيشِ وخَلَّفُوا غيثةَ هُنَاكَ. صَمَتَتِ الطُّبُولُ وتبدَّدَ الهَرَجُ ومألتِ الشَّمسُ تبغي طيَّ صَفْحَةٍ أُخرى من صفحاتِ كتابِ فاس.

تراجَعَ العُبارُ الذي أثارتهُ أقدامُ المُشاةِ وخَفَّ اللَّعْطُ بجوازِ العَرَباتِ الأَخيرةِ التي حملتْ لوازمَ المؤونةِ والطباخينِ والجِرْحَى. انكسرَ الضَّوءُ ونزلَ مع الصَّمَتِ الشُّكُّ. ظَلَّتْ تنتظرُ بِنَلِّهِ إلى الفراغِ. تسلَّلتْ جِراءً تَتَّبِعُ رائحةَ المَرَقِ التي خَلَفَتْها عَرَباتُ المؤونةِ واختَفَتْ بِدَورِها.

تحرَّكَ الحرَسُ ليُغلقوا البابَ.

- لا تفعلوا.

قالتْ غيثةُ تَسْتَجِدِّي. تنبَّهَ الحرَسُ إليها. كان غطاءً شعرها قد سَقَطَ فظَهَرَ شعرُها الكسِتنايَّ الطويلُ يفضحُ جمالها.

- ما بالكِ تَصْرُخِينَ؟

- زوجي، زوجي لَمْ يَعُدْ بَعْدُ.

نظَرُوا إلى وُجُوهِ بعضِهِم البعضِ، ابتسمُوا بِخُبْتِ، ثم أغلَقُوا البابَ الكبيرَ:

- عُوْدِي إلى بيتكِ يا امرأة.

رفعتْ رأسها تتطلَّعُ إلى البابِ الذي أُغلقَ. فوقَ القوسِ الكبيرِ كان نَسْرٌ ينتشُ طائراً صغيراً. هاجمَها البردُ، لَفَّتْ قِطْعَةَ الثَّوبِ السَّوداءِ على جَسَدِها. «الطُّيُورُ الصَّغِيرَةُ لا مكانَ لها»، فَكَرَّتْ.

ثُمَّ صرَفَها الحراسُ بجفاءٍ أَكْبَرَ.

- هيا، رُوجي يا امرأة.

نكستْ رأسها. فَقدَتْ أَحَدَ نعلَيْها في الازدحامِ. أهملتهُ وَقَدْ أهملَها القَدْرُ وصُرِفَ فيها القضاءُ. سارتْ مَبْتَسِئَةً لا تَعْلَمُ إلى أينَ تمضي. لمحتِ الفرحةَ في وُجُوهِ الكثيرِ مِنَ النِّساءِ، سمعتِ الرِّغاريِدَ تُلْعَلُغُ مِنْ داخلِ البيوتِ وفي الحاراتِ ولا مَسَتْ بِهَجَّةِ الصِّبيانِ بِعَوْدَةِ الأَباءِ.

- لِمَ لَمْ تُعْذِ يَا نَاجِي؟ أَلَمْ بِكَ الْمَكْرُوهُ أَوْ تَخَادَلْتَ فَنَسِيتَ مِنْ أَحَبَّتْكَ وَأَخْلَصَتْ إِلَيْكَ؟

بلغت ساحة السوق. لن تذهب لتسأل العياط عن زوجها. فقدت كل الأسئلة معناها. لن تسأل أحدًا بعد اليوم. أغلقت باب الفتوح على عربات الجيش الأخيرة وأغلقت معها كل انتظاراتها. الفوانيس التي أطفأها تجار يتأهبون للعودة إلى بيوتهم جاءت كآمال تخمد. مكان كل منها يتعمق اليأس مع السواد.

- لِمَ خَدَلْتَنِي يَا نَاجِي؟

بكت أخيرًا بصوت مسموع. لم تأبه للرجال الذين توقفوا ينظرون إلى امرأة مكلومة تبكي كطفل. لن يجرا أحد أن يسألها أو على الاقتراب منها في مساء عاد فيه الجند من حرب دامت طويلا ضد البرتغاليين. «ليرحم الله موتى المسلمين»، قالوا في أنفسهم. أخذوا رؤوسهم إجلالا وأفسحوا لها الطريق.

الذرب الأخير إلى البيت كان أطول وأقسى. عاجزة عن فعل شيء واصلت خطواتها تجر قدميها. مالت على دفة باب بيئها التي أرخت صريرا مخنوقا. رمت قدمها على حجارة البهو. تساءلت عما تقول لأطفال ينتظرون أبا غاب أكثر مما يحتملون.

- غَيْبَةٌ..

باغتها الصوت. رفعت رأسها لتتبين صاحبه. شلت المفاجأة لسانها. رأته واقفا يحمل طفله الصغير بين ذراعيه.

«كلا تحلمين يا غيبته، ليس هو، بل تهيأ لك».

ثم هزتها زغرودة أم الغيث تطل عليها من نافذتها وإلى جانبها العياط باسمًا. مسحت عينيها. كان هو لم تزده شهور الغياب إلا بياضًا ووسامةً.

- مبروك يا بنتي، مبروك.

رفعت وجهها تنظر إلى أم الغيث في نافذتها. كان الليل قد حط لكن كل فوانيس الدنيا أنيرت في صدرها دفعة واحدة. خفصت رأسها. خشيت على نفسها من الجون.

مد وجزر، حر وبرد، ويقين بعد شك. فتحت فمها بالكاد:

- عدت؟

أَنْزَلَ طِفْلُهُ الصَّغِيرَ، عَلَى مَسَافَةٍ أَمْتَارٍ كَانَ بَكَرَ يَنْظُرُ إِلَى أَبِيهِ بِفَخْرٍ. اهْتَزَّتِ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيْهَا
وَدَارَتِ الْجُدْرَانُ حَوْلَهَا، رَكُضَ قَلْبُهَا، مِثْلَ قَطْءٍ، يَلُودُ. غَابَتْ بَعِيداً.

سَقَطَ الْمَطْرُ فِي عَزِّ الصَّيْفِ، أْبْرَقَتِ السَّمَاءُ وَأْرَعَدَتْ ثُمَّ هَطَلَ الْمَطْرُ مِدْرَاراً وَتَدَفَّقَتِ الْمِيَاهُ عِنْرِ
الْأُودِيَةِ وَدُرُوبِ فَاسٍ.

استيقظت غيثة، فتحت عينيها وتساءلت. كان يصلي. بدا أضخم قليلا وقد زاد وزنه بضعة
كيلوغرامات وبيض أكثر. المطر الهادئ أحيأ في ذاكرتها ليالي الشتاء. ارتعشت. ظلُّه على الجدار
رسم رجلا أعظم بكثير، كما هو في قلبها. تساءلت وهي تستوي في جلستها «هل غاب الناجي
عنها كل هذه الشهور بالفعل؟». تفقدت شعرها الكستنائي الطويل. لا زال رطباً. سرحته فتدلى
يغطي جسدها. صوت الترتيل أطربها. نزع فتستأنها فتتنفس جسدها الغض أنوثة احتبست طويلا.

ثم تذكرت الطنفسة التركية والملاءة الفارسية. أسرع إلى الرف، مدت الطنفسة وفرشت الملاءة
وجعلت مخدتان على المسند الخشبي. سيمد الناجي يده إلى إحداهما في حمي المضاجعة ويدسها
تحت خصرها ليشعر باختراق كلي واتصال تام.

«هيا، تعال»، قالت في نفسها.

أبرقت السماء، ابيضت الأسطح الهاجعة في الليل الداجي. لاحت لها مدينة أخرى. «لعله العشق»،
فكرت. نهضت عن سريرها. استدارت تبحث عن المرأة لتنفذ زينة وجهها. باغتتها يده من خلف
يشدان على نهديها، جرّها إليه، ضمها.

- غيثة.

- اشتقت لك.

تحسس طراوة جسدها. ضحك بكياسة ومالت برأسها على كتفه.

- تألمت يا ناجي. تعذبت.

سحبها إلى الفراش، أطفأ الفانوس ومددها.

ثم أقبلت على بعضهما البعض.

أَبْرَقَتِ السَّمَاءُ تَوَالِيًا. بَعْدَ كُلِّ هَبَّةٍ نُورٌ يَغْطِيسَانِ فِي الظَّلَامِ وَالشَّهْوَةِ، ثُمَّ يَغْمُرُهُمَا الْهَدِيرُ كَمَوْجِ
الْبَحْرِ وَاللَّدَّةُ تَجْرُفُهُمَا إِلَى بَعِيدٍ.

مَا عَادَ يَرَى مِنْ شَيْءٍ غَيْرَ وَجْهَهَا يُحْيِيهِ نُورُ الْبَرْقِ وَيَجْلُّهُ الرَّعْدُ، وَمَا كَانَ
لِيَسْمَعَ غَيْرَ صَوْتِهَا الْعَذْبِ، الْحَانِي.

- غَيْثَةٌ.

- نَعَمْ سَيِ النَّاجِي.

- مَا هَمَّتِي أَنْ أَبْقَى بَعْدَ هَذَا إِلَى يَوْمِ غَدٍ.

وَضَعْتُ أَصَابِعَهَا عَلَى شَفَتَيْهِ، سَحَبْتُهُ إِلَيْهَا:

- اسْ، تَعِيشُ وَتَبْقَى بَعْدِي سَيِ النَّاجِي، الْحَيَاةُ دُونَكَ هَبَاءٌ.

2020/01/15

إِلَى

2020/09/25

أَغَادِيرُ / الْمَغْرِبُ